محمود ثابت الشاذلي

المسألة الشرقية

دراسة وثائقية عن

الخلافـــة العثمانيـــة

(١٢٩٩م - ١٩٢٣م)

الناشر
مكتبـــة وهبـــة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت : ٣٩١٧٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م

قَدْ تُنْكِرُ العينُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ

وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

(البوصيري)

الباب الأول

لبيك .. أبا أيوب .

- في مؤتة كان البدء .
- درس الشرخ .
- البشارة ..
- والصبغة إسلامية .

الفصل الأول

في مؤتة كان البدء

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (التوبة: ٣٣)

منذ مؤتة وجذور «المسألة الشرقية» تنغرس في الضمير الأوربي وتلقى اهتماماً بالغاً في دولة «الروم الشرقية».. «الدولة البيزنطية».

وكان عند «بيزنطة» عقدة تاريخية تبرر ذلك الاهتمام. فلقد شطرت قبائل «القوط الغربيين» و«الوندال» و«الجرمان» الامبراطورية الرومانية الكبيرة إلى قسمين: «غربي» ومقره «روما» وشرقي وعاصمته «القسطنطينية». ثم قضى «الهون» نهائياً على الدولة الرومانية الغربية، وأعلن «أودواكر» الوندالي -كبير الجند البرابرة- نهايتها في عام ٤٧٦م وأبلغ بلاط «بيزنطة» أنه لم يعد هناك امبراطور في الغرب.

وأصبح «ثيودوريك القوطي» ملكاً على روما نفسها في عام ٤٩٣م.. وهنا وهناك، بين الطليان والقوط والجرمان والفرنجة والنورماند وغيرهم ملوك وأمراء ودول ودوقيات[1] . وكانت «القسطنطينية» قد بنيت -أصلاً- على أنقاض مدينة «بيزنطة» الإغريقية، لتكون مدينة مسيحية الصبغة، ودشنها قسطنطين الأول في ١١ مايو ٣٣٠م وسميت باسمه لتكون عاصمة الدولة الرومانية الكبرى.

وكانت مدينة «البسفور» بقرنها الذهبي أكثر أماناً ومنعة من مدينة «التيبر» بتلالها السبع.

---

(١) يراجع «موجز تاريخ العالم» - هـ. ج. ويلز، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد.

ولئن كانت «روما» القديمة قد تميزت بكنائسها الضخمة فإن كنيسة القديسة صوفيا في «روما الجديدة»، قد فاقت الكل أبهة وفناً ومعماراً، حتى قيل: «إن اللّه والإنسان قد اشتركا في البناء»!!

وترقت بطريركيتها فبذت بطريركيات هرقلية وأنطاكية والإسكندرية وغلبتها، ثم نافست السدة الرسولية في كنيسة بطرس الأكبر، وانفصلت عنها، وأصبحت قلعة الأرثوذكسية العالمية.

فلما سقطت «روما» في أيدي القوط، وانتهى معها القسم الغربي من الامبراطورية، غدت «روما الثانية» أو القسطنطينية رمز الاتحاد بين التقاليد الرومانية والديانة المسيحية!! فأصبحت المعتقدات الكنسية والجنسية الرومانية شيئين مترادفين.

وهي تعني في الوجدان الغربي رمزاً للحضارة الهيلينية وتراث الرومانية وواسطة العقد للشعوب النصرانية، وحصناً للمسيحية العالمية على مدى ألف ومائة عام.

والبيزنطي - أو الروماني الشرقي - نصراني متعصب حتى النخاع، فكانت عطلاته أعياداً دينية وألعابه في الملعب تستهل بتراتيل، وعقوده التجارية تتسم بعلامة الصليب أو تحتوي على ابتهال للثالوث المقدس. وكان يتخذ من التمائم المقدسة تعاويذ له ويرى في الغبار المحتوى على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس من الذين ماتوا على الأعمدة أنجع دواء عنده، وكانت حروبه صليبية مقدسة، وامبراطوره خليفة اللّه في أرضه[1] .

ولذلك أصبحت الامبراطورية الشرقية المدافعة عن عالم الغرب المسيحي وتعبيره السياسي وحاملة مواريثه الثقافية، ولها مستعمراتها في مصر، والشام،

(١) الامبراطورية البيزنطية - نورمان بينز - ترجمة حسين مؤنس، ومحمود يوسف زايد ص١٧.

وشمال إفريقيا والأناضول. وهي من الشرق تواجه بالدولة الفارسية، والحرب بينهما سجال.

وكان كتاب النبي ﷺ لملوك الأرض قد وصل هرقل امبراطور بيزنطة - يوم انتصاره على الفرس.

وفي مؤتة تلقى الامبراطور إشارة الخطر!!

صحيح أن المسلمين قد انسحبوا .. وكان ذلك أبرع انسحاب تكتيكي في التاريخ.

لكن الساسة في عاصمة الروم رأوا المسألة بوضوح تام. فلأول مرة يواجه الرومان جيشاً عقائدياً على حدودهم لا يعترف بما اصطلح عليه الناس من نصر أو هزيمة، وإنما يسمي الأشياء والمعاني تسمية جديدة. فنتائج أي معركة عند هذا الجيش الجديد تسمى إحدى الحسنيين: «النصر أو الشهادة»!! ولم يعد لمعنى الهزيمة العسكرية -لو وقعت- أي أثر في عقيدة المقاتلين الجدد، ولا في ضميرهم وهو على البشرية أيضاً جديد.

وصدق «ابن إسحاق» الذي اعتبر ذلك نصراً وفتحاً. وكان حجته أن ثلاثة آلاف قد صمدوا لمائة ألف من الروم ومائة ألف من تابعيهم من العرب - من قبائل لخم، وجذام، والقين، وبهراء، وغيرهم - ثم خلاصهم من إحاطة العدو وتراكمه وتكاثره وتكاتفه عليهم!!

وأيده «ابن كثير». وعنده: أن من عادة الجيش أن يفر إذا قتل قائده فكيف وقد استشهد قادة ثلاثة تولوا القيادة على التوالي، وصمد من بعدهم كل المقاتلين!!؟[1] .

(١) راجع «البداية والنهاية» لابن كثير -الجزء الرابع- المطبعة السلفية ١٣٥١هـ - ص. ٢٥ وكذا «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية - الجزء الثاني - المطبعة المصرية ١٣٤٧هـ، ص٩٥٦.

ويستمع «هرقل» لأول مرة أن النفس إن لم تقتل تموت!! نقلت إليه عن المسلمين المقاتلين في مؤتة، وقد صاغوها في طمأنينة الواثق بوعد اللّٰه، المتحقق من صدقه، في يقين يعيشه المؤمنون بإحساس أقوى من الرؤية وأشد من اللمس.

ويطور المسلمون غريزة البقاء الفاني إلى طلب الخلود في دار المقامة - حيث الرجعى والمآب.

ويصبح للموت بالقتل طعم آخر .. ويغبط الشهيد.

وقاتل «زيد بن حارثة» حتى شاط في رماح القوم شهيداً، وعلم «هرقل» أن «جعفر بن أبي طالب» عقر فرسه لما اشتد القتال وقاتل راجلاً واشتد على العدو، وقد أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى نال إحدى الحسنيين .. الشهادة.

وتولى «عبد اللّٰه بن رواحة» القيادة واستعلى أن يأكل قطعة من اللحم يشد بها صلبه بعد أيام عصيبة، وألقاها وهو يردد: «وأنت بعد في الدنيا»!!

وقال «ابن رواحة»، وهو يؤكد معنى واضحاً في عقيدة الرجال: «واللّٰه يا قوم إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة - ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا اللّٰه به .. فانطلقوا فإنها إحدى الحسنيين: إما ظفر وإما شهادة.

واستشهد وصمد الرجال من بعده، وشهد لهم اللّٰه بأنهم طلائع الأمة الشهيدة على الناس .. كل الناس.

وتأكد «هرقل» -أيضاً- أن كل جريح من جيش العقيدة في جسده بضع وتسعون ضربة ورمية من رمح أو سهم أو سيف!! .. أي بشر هؤلاء!؟ .. وأجيب بأنهم «المسلمون»!!

ويشهد «أومان» على المفهوم الجديد:

«.... فإنه في الأعمال الحربية الأولى بين الرومانيين الشرقيين والمسلمين لم يكن تفوق النظام وجودة الأسلحة عند الأولين عاملاً كافياً يمكن أن يصمد أمام التهور الجنوني(!!) عند الآخرين (يقصد حماس المجاهدين) - فإن المسلم كان يريد أن يموت حتى يستطيع أن يجني ثمار الشهادة في العالم الآخر، ولم يكن يعنيه كيف مات إذا كان قد قتل عدداً قبل موته.. وكان الروماني يحارب حرباً لا بأس بها، لكنه لم يكن مثل عدوه يتوق إلى الشهادة»[١].

إن جيش المدينة بقيادة «زيد بن حارثة»، و«جعفر بن أبي طالب»، و«عبد الله ابن رواحة»، قد نبه المسئولين في بيزنطة أن شيئاً ما يتحرك إلى أمام ويحتك بهم في عناد عند حدودهم في الشام.

اقتحام جديد، له رسالة جديدة، ومفاهيم جديدة.

ودرست المسألة في أروقة الحكم في القسطنطينية.

وتساءل «هرقل»: إذا كان غزو قبائل الهون قد قضى على الدولة الرومانية الغربية في مدى أربعين عاماً - وكانت دولة الرومان الكبيرة قد استغرق تكوينها ألفي عام - أفتسقط دولتهم الشرقية -كذلك- بدفع الدولة المسلمة الوليدة.. التي تتكون من مدينة واحدة وبضع كيلو مترات حولها؟[٢] وقبائل الهون كانت بربرية، ولا تملك هدفاً إلا السلب، والنهب، والاستيطان.. أما الجدد فإن لهم رسالة منبثقة عن عقيدة وهدفهم تحرير الناس جميعاً!! إذن هو الخطر!!

ودقت الأجراس في كنيسة القديسة صوفيا، تستصرخ الناس أن يحاربوا المسلمين، لأن المسلمين قادمون!!

(١) أومان -الامبراطورية البيزنطية- تعريب د. مصطفى طه بدر - دار الفكر العربي، ص١٢٦.
(٢) كانت غزوة مؤتة قبل فتح مكة بحوالي أربعة شهور - ولا زالت الجزيرة العربية - عدا الجماعة المسلمة في يثرب المطهرة - في جاهليتها!!.

ولم تكد تمض سنوات قلائل -أقل من أصابع اليد- حتى استولى المسلمون بقيادة «أبي عبيدة» على حصن «بصرى»، ثغر سوريا الشرقي فيما وراء الأردن، رغم كثافة الجيش البيزنطي وكثرة سلاحه.

وكان سقوط الحصن كما يقول جيبون: «حدثاً تافهاً لو لم يكن مقدمة لثورة عظمى»[1] .

ولم يكن ذلك الذي أسماه «Gibbon» - ثورة إلا الحركة الإسلامية بعينها.. إنه الفتح في طريق الطلائع المجاهدة لتحرير الإنسان.

وتأكد عند الرومان الخطر.

ذلك أن القاعدة التي تنطلق منها جيوش العقيدة الآن لم تعد مدينة محاصرة بعينها تضم جماعة المسلمين من المهاجرين والأنصار..

ولم تعد «دار الأرقم» تعد الطلائع الفاتحة في رقابة من قريش، ولا -كذلك- كانت حركتهم يحدها جبلان متقاربان في شعب «أبي طالب» ... وإنما صارت الأرض من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي، ومن حضر موت إلى ما بعد العقبة، قاعدة لانطلاق الدعوة. وأصبحت شبه الجزيرة العربية - المكان والفكرة والإنسان - داراً للإسلام.

فلم تكد تمض عشر سنوات على قيام المجتمع المسلم الأول في يثرب المطهرة حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وأسلمت جزيرة العرب كلها، وسلمت أمر قيادها لنبيها العظيم وسارت على نهج ربها الأعظم.

وتحول الرجل العربي القبلي إلى الإنسان المسلم المنهجي. واستروحت الدنيا عبيراً طيباً يصدر عن «طيبة» الظافرة: «أنا سابق العرب، وبلال سابق الحبش، وسلمان سابق الفرس، وصهيب سابق الروم».

---

(١) جيبون : تاريخ سقوط الإمبراطورية وانهيارها - الفصل الرابع عشر - ص٩٥.

وكان عليه الصلاة والسلام قد أعلن «الميثاق العالمي لتحرير الإنسان» -الميثاق الفعلي- بعد أن صنع برسالته الخالدة ميلاده الجديد، وهو يودعهم الوداع الأخير، في حجة الوداع، وأشهد الحاضر منهم على الغائب، أنه أبلغهم رسالة ربهم وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة.. وأن عربيهم، كعجميهم، كزنجيهم، مسلمون لا يتفاضلون إلا بالتقوى، وأشهدهم جميعاً، وشهدوا جميعاً وأقروا، أنهم لآدم وآدم من تراب، وأن دماءهم وأعراضهم وأموالهم عليهم حرام، كحرمة يومهم ذاك.

وسار الراجلون والراكبون من عدن إلى معان لا يخافون إلا الله، فلا يخشون شيئاً، ولم يعد هناك ذئب على الغنم.

وصدق النبي وهو يرى الصورة قبل أن تتكون في عالم الشهود، وتحقق وعد الله للذين كانوا مستضعفين: فكانت الخلافة في الأرض، والتمكين للعقيدة، والأمن من بعد خوف.

وانبثقت أمة جديدة من نصوص كتاب!!

ولا يعني هذا أن عرقاً جديداً قد وجد في شبه الجزيرة العربية، أو أن القرآن قد استورد بشراً من خارج ديار العرب، إنما يعني ذلك التغيير الشامل الذي أحدثه الإسلام في داخل الإنسان العربي، وتلك الحضارة الفريدة التي أنشأها في واقعه.

وسقطت الردة، وهلك «مسيلمة» وأضرابه، وانمحت كل آثار المعاونة التي قدمها القيصر لإحداث الفرقعة من داخل النظام الوليد.

ولبى المجاهدون داعي الجهاد، وانطلقت الدعوة المبشرة بوعد الله، والمدعومة بالقوة الذاتية، شمالاً وشرقاً وغرباً، لتقاتل الروم والفرس .. فرسالتها غير مقيدة بحدود المكان والزمان.

وجه الراشدان «الصديق» و«الفاروق» جيوش الإسلام لقتال الروم في الشام

وفلسطين وأرض جزيرة الرافدين.

وأبلى المسلمون البلاء الحسن في معارك تبوك واليرموك والرملة ووادي الأردن وأجنادين بقيادة «أبي عبيدة عامر بن الجراح» و«شرحبيل بن حسنة» و«خالد بن الوليد» و«عمرو بن العاص» و«خالد بن سعيد». وهناك كانت دروس القتال العقائدي المهيب. فلم ير المقاتلون المسلمون في كثرة عدد عدوهم ولا كثافة سلاحه إلا أنه الزبد الذي يذهب جفاء، أما هم فهم النافعون الماكثون -بالرسالة- في الأرض.

واستمعت الدنيا إلى المفهوم الرائع عندما يثق المؤمنون بالنصر وهم قلة:

«قل ما أكثر المسلمين وأقل الروم ... إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان».

قالها القائد «خالد بن الوليد» وهو يعي درس «أبي بكر» قائده الأعظم.

ولم ينفع قادة الروم المهزومين أن قيدوا جنودهم بالسلاسل لكيلا يفروا، كما لم يستطع تفوق نظامهم وكثرة عددهم وجودة أسلحتهم أن يصد عنهم حماس المجاهدين!!

ويشهد أومان: «وكان المسلمون المتعصبون يتحمسون عندما يسمعون صوت قائدهم يناديهم: الجنة أمامكم والشيطان والنار من خلفكم، ويرمون بأنفسهم على الفرقة بعد الفرقة يكتسحونها من الميدان»[(١)] .

وأنجزت الجيوش مهمتها فرحة ومحتسبة ومنتصرة. ففي عام ١٤هـ - (٦٣٥م) فتحت دمشق وفي عام ١٥هـ فتحت حلب، وبعلبك وقنسرين وحمص والرستن وأنطاكية. وصرخ «هرقل» مودعاً سورية الوداع الأخير!!

وسلم بيت المقدس ١٥هـ (٦٣٧م).

---

(١) أومان - الإمبراطورية البيزنطية - ترجمة د. مصطفى طه بدر. ص١٢٨.

وصاح البطرك «سفرونيوس» الذي عين دليلاً للفاتح العظيم «عمر بن الخطاب» عند تجوله في المدينة المقدسة - عندما رأى هذا الزاهد المسلم يقف عند مذبح كنيسة الضريح. صاح بأعلى صوته: «إن هذه هي النبوءة التي تكلم عنها النبي دانيال بحق في الكتاب المقدس».

ثم فتحت مصر عام ٢٠هـ (٦٤١م) بقيادة «عمرو بن العاص» و«الزبير بن العوام»، ولم تعد مصر مزرعة القمح للامبراطورية الرومانية .. أصبح «زيتها في دقيقها».. وعاد المضطهدون من المغارات والكهوف!!

نعم .. كانت طلائع جيش محمد ﷺ هي الخلاص والأمن والرخاء. فنزل الأقباط من الكهوف والمغارات التي اختبأوا فيها هروباً من النصارى الرومان..

عادوا إلى الوادي يفلحون الأرض ويدفنون قتلاهم وقديسيهم.. من «مارمينا إلى مار بقطر، إلى مار جرجس إلى الأنبا مقار»!!.

وكان العَلَمْ الإسلامي والأمن الإسلامي والنهج الإسلامي هو الباعث والدليل والمرشد والعرّاب الذي شد أجدادنا الأقباط إلى اعتناق هذا الدين بهذه الكثرة الراشدة والغالبة!!

وتلك حقيقة قد لا تعجب البعض هنا .. لكنها حقيقة التاريخ!!

نعم دخل المصربون في دين الله أفواجاً. وتلا ذلك فتح برقة وطرابلس عام ٢٢هـ (٦٤٣م) بقيادة «عمرو بن العاص» و«عقبة بن نافع».

وفي زمن الخليفة« عثمان بن عفان» استقبل «عبد الله بن أبي السرح» والي مصر جيش العبادلة بقيادة «عبد الله بن الزبير، والحسن والحسين ولدي علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عمرو بن العاص»، وتقدم الجيش فصحبه «عقبة بن نافع» إلى طرابلس. وتم فتح تونس تحت إشراف «عبد الله بن أبي السرح» و«عبد الله بن الزبير» عام ٢٦هـ.

وقد عظمت قوة الأسطول الإسلامي - في عهد «عثمان» رضي الله عنه، حيث سير «معاوية بن أبي سفيان» والي الشام أسطولاً بقيادة «بسر بن أرطأة» يشاركه أسطول مصري بقيادة «عبد الله بن أبي السرح»، واستطاع الأسطولان أن يحطما «الأرمادا» البيزنطية في معركة «ذات السواري» تحطيماً تاماً، وغنم الأسطولان المسلمان سفناً رومية كثيرة، وأصبحت السيادة في البحر المتوسط للبحرية الإسلامية.

ولم يحل عام ٢٦هـ إلا وقد حررت الدولة الإسلامية كافة الأقاليم المستعمرة من الدولة البيزنطية في مصر والشام وفلسطين والعراق والقسم الشرقي من آسيا الصغرى والولايات الرومانية في شمال إفريقية .. وانضمت جميعها إلى دار الإسلام.

وفي الوقت ذاته -وبالتوازي معه- كان المسلمون قد فتحوا أراضي الامبراطورية الفارسية وما بعدها من الشرق حتى وصلوا سور الصين العظيم لينشروا من ورائه اسم الله الأعظم.

ففي عام ٢١هـ دخل القائد المنتصر «حذيفة بن اليمان» مدينة «نهاوند» وفر كسرى «يزدجرد» وكبر المسلمون لفتح الفتوح. ولم يعد في المشرق بعدها شيء يهدد بالخطر في ذلك الزمان.

وبذلك أضاف الفاتحون رقعة جديدة من الأرض انتظمت أرض العراق وهضبة إيران وشرق خراسان والأرض ما بين بحر قزوين والبحر الأسود حتى تخوم الهند وحدود الصين.

ومن قبل، كان البشير قد نقل إلى أمير المؤمنين في المدينة المنورة نبأ سقوط المدائن عاصمة الفرس.

ومع البشير جاءت قوافل البريد بنفائس الفتح وغنائمه، ومنها: تاج كسرى وسيفه ودروعه وقلائده، وذهب الدولة المهزومة وفضتها، وبسط الإيوان الشاهنشاهي ونمارقه.

وفي وسط المعارك الضارية كان المنهج هو الغاية وهو الراية وهوالطريق.

فأمر أمير المؤمنين فألبس تاج كسرى على عمودين من خشب ووضعت عليه ثيابه وأوشحته وقلائده. وأجلس للناس في المسجد. وأشار «عمر» فشاهدوا المنظر، ثم رد الطرف واغرورقت عيناه بالدموع - وقال يعظ المسلمين:

«أحمق بامرئ من المسلمين غرّته الدنيا .. هل يبلغن مغرور منها دون هذا أو مثله»!!؟

ثم التفت إلى النفائس والذهب الذي حملته القوافل إلى بيت المال. وقال الحارس اليقظ، وهو يثني على رجاله المقاتلين: «إن قوماً أدُّوا هذا لأمناء»!!

فأجابه «علي بن أبي طالب» وهو يؤكد على أهمية المثل الذي يعطيه الراعي: «بل عففت فعفت رعيتك، ولو رتعت لرتعت».

وبكى «عمر»، وبكى المسلمون، ولم يزدهم تحقيق وعد رسول الله بأبيض كسرى إلا خشوعاً.

ولبس «سراقة بن مالك» سواري كسرى. وكان النبي عليه الصلاة والسلام - قد وعده بهما والقوى الجاهلية متربصة به ليقتلوه!!

وكانت معارك الجسر والقادسية والنمارق والمزار وجلولاء الواقعة ونهاوند شهود اليقين على الحركة الإسلامية الفاعلة والواعية حيث كان كل المجاهدين أبطالاً، تساووا تماماً مع قادة لهم. كـ«المثنى بن حارثة الشيباني وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيد الثقفي وعاصم بن عمرو وهاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو والنعمان بن مقرن وحذيفة بن اليمان».

وهوت مع الأنقاض أسماء قيادات الفرس المهزومة مثل: «رستم، ونرسي، والجالينوس، والفيروزان، وشهربازان».

وسقطت راية «الدرفس كابيان» القومية الفارسية ليرتفع مكانها علم «الأخوة الإسلامية».

وشهد التاريخ للطلائع المجاهدة بأن الله قد أرسلهم «ليخرجوا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

ستة وعشرون عاماً، فحسب، كانت المسافة منذ هاجر النبي ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، إلى ميراث الأرض في دولة مترامية الأطراف.

أليس عجيباً أن الفتى الذي كان بالغاً منذ دخل النبي ﷺ المدينة، مهاجراً، قد تنقل من القيروان إلى نهاوند، ومن أرمينيا إلى السودان، ومشى في أراض صارت مسلمة، وكانت تديرها من قبل أكبر امبراطوريتين في التاريخ!!؟ تديرها بالقيصر والشاهنشاه، بالقلاع والثغور، بالحاميات، والعسكر والولاة. عاش وتنقل على امتداد أكبر قارتين ولا زال عمره أقل من الأربعين!!، امبراطوريتان ضخمتان، وبمقاييس الأرض متحضرتان غالبتان، وتسيطران على أمم وشعوب وقوميات مغلوبة، ولهما من قوة الجيوش وفنون الإدارة والنظم والقوانين والآداب، والطرق والجسور والقصور، وصناعة العصر وتجارته وزراعته - وفوق ذلك الحس الوطني الملتهب ... كل ذلك - وتسقطان في مثل عدد تلك السنين!!.. ماذا؟

إنها النبوة، وإنها الرسالة، وإنهم المسلمون!!

وسقط الأهواني وهو ينسب انتصار الإسلام بالمؤمنين إلى تجمع قومي عرقي. يقول الأهواني: «إنه انتصار القومية العربية على قومية الفرس والروم»!![1].

والأشد غرابة أن يصل الكذب حد اصطناع صنم وهمي تصدر عنه قيم الإسلام وأخلاق المسلمين .. حداً تنسب فيه الرسالة الخالدة إلى شيء غير ذاتها .. شيء خرافي!!

---

(١) د. أحمد فؤاد الأهواني - القومية العربية - المكتبة الثقافية . ١٩٦٠ - ص.١.

ونصاب بالغثيان ونحن نقرأ ما سطره من سطور تقول:

«وجاءت القومية العربية تقرر حرية الفرد في الفكر والعقيدة وأن جميع المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .. الحرية والمساواة والخير والعدالة والسلام والتسامح هي القيم الجديدة التي غزت بها القومية العربية العالم منذ أربعة عشر قرناً من الزمان»!!(١) .

وقبح الله الكذب وأهله!! .. أهكذا يكون تزوير التاريخ؟ .. لحساب من؟

لا أعتقد أن الأب «لامانس» والقسيس «مارجليوث» والمبشر «سكيف» يرضون عن كلامه، بل بالقطع يعتبرونه تلميذاً فاشلاً لا يجاز.

فهم يسمون الأشياء بأسمائها فيقولون: «تاريخ الإسلام، ورسالة الإسلام، ومبادئ الإسلام، وانتشار الإسلام».

ترى هل كان «ربعي بن عامر» وهو يجيب على أسئلة «رستم» مبشراً ومعلماً: «إن الله قد ابتعثنا لإخراج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».. غير واع بعبقرية القومية العربية ومنجزاتها ولاهوتها!!؟

أم أنه - رضي الله عنه - كان يعلم سر العروبة «الباتع» لكنه احتال عليه بالإسلام، ليكون حديثه عصرياً يتلاءم وظروف المرحلة !؟

أم كانت قريش والأوس والخزرج وبكر وتميم وخزاعة وربيعة وثقيف وهوازن وغيرهم من العرب قد فقدوا هويتهم القومية!! ولم يحسنوا التعبير عن مبادئها في حينه، فأراد صاحبنا أن يصحح مسارهم المغلوط!! بعد أربعة عشر قرناً من الزمان، منذ جنايتهم على عروبتهم المباركة!!؟

---

(١) د. أحمد فؤاد الأهواني - القومية العربية - المرجع السابق - ص١٢.

أم أن أسلوب الأهواني التقدمي!! جعله يقلب الحقائق فزعم أن القوم العرب قد اقترحوا على الله سبحانه الفكرة الإسلامية، وليس جلّ وعلا: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ !؟ (التوبة: ٣٣) ..

لكن «تقدمياً»!! أبرز منه هو الأستاذ «ميشيل عفلق» القائد المؤسس لحزب البعث العربي القومي العلماني يسمي الإسلام باسمه ولا يستعير له أي بديل!!

يقول ميشيل عفلق: «إن العرب ينفردون دون سائر الأمم برسالة دينية، فلم يتوسعوا بغية التوسع، ولا فتحوا البلاد وحكموا استناداً إلى حاجة اقتصادية أو ذريعة عنصرية أو شهوة للسيطرة والاستعباد، بل ليؤدوا واجباً دينياً، كله حق وهداية ورحمة وعدل وبذل، أراقوا من أجله دماءهم وأقبلوا عليه خفافاً متهللين لوجه الله»[١] .

فليست الرسالة إذن ذريعة عنصرية قومية ولكنها أداء لواجب ديني، والغاية هي الله.

ويقول عفلق: «لم يعد المسلمون تلك الفئة المحصورة في بحر من الأعداء، بل كوّنوا لأنفسهم جماعة كلها مؤمنة»[٢] .

جماعة المسلمين برباط مستمد من آصرة العقيدة وليس تجمعاً عربياً عرقياً يضمه سياج القطيع!!

أما بحر الأعداء الأول فقد كان القوم العرب أنفسهم في مواجهة جماعة المؤمنين!!

ويقول أيضاً: «فلو تخيلنا أن المسلمين الأولين الذين عرفوا النضال من أجل المبدأ وذاقوا كل مرارته واجتازوا امتحانه ودفعوا ضريبته .... »[٣] الخ..

---

(١) ، (٢) ، (٣) من مجموعة أحاديث منسوبة لميشيل عفلق ذكرها حسنين كروم في كتابه: «الصامتون يكذبون» ص١٥٢ - ١٥٦.

ويشهد رجل آخر وهو ليس عربياً ولا مسلماً - إنه «جواهر لال نهرو» الرئيس الهندي الراحل: «وقد استهوت بساطة الدين الإسلامي الذي أتى به، ومباشرته وديمقراطيته ومساواته عامة الناس في الأقطار المجاورة ممن حطمهم وطحنهم الملوك المستبدون والقساوسة المتغطرسون والمستبدون أيضاً»[1] .

فليس حركة الإسلام انتصاراً للقومية العربية على قومية الفرس والروم .. لكنه انتشار دين وقبول بالحق المطلق.

مرة أخرى صدق «نهرو» وكذب «الأهواني».

إنها «النبوة» وإنها الرسالة، وإنهم المسلمون.

ولا ينبغي لي أن أتوقف في طريق أنا ماض فيه ولا يشغلني الأصفار من تلاميذ الغزو الفكري وصبية المبشرين الفاشلين.

المهم .. استمر الفتح في عهد الأمويين فاتسعت رقعة الأرض التي تديرها دولة الإسلام.

فلم يكد ينتصف القرن الأول الهجري حتى ضمت السند والهند والتركستان وبلاد ما وراء النهر واكتمل فتح كل الشمال الإفريقي.

فمن الصين شرقاً يؤذن داع الصلاة فيتردد صداه في جبال الشطوط في أقصى المغرب على شاطئ المحيط الأطلسي .. شاطئ بحر الظلمات.

وجنود «عبد الرحمن الغافقي» يفرغون من الاستيلاء على شبه جزيرة إيبريا ويتخطون جبال البرانس ويطئون جنوب فرنسا في الطريق إلى القلب الأوربي.

والبحرية الإسلامية تحول البحر المتوسط إلى بحيرة إسلامية. تتخذ من جنوب أوروبا وجزر قبرص ورودس وكريت والبليار مراكز إشعاع تنادي: «حي على الفلاح».

---

(١) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم - ترجمة عبد العزيز عتيق. دار المعارف ص٣٨.

دولة مسلمة واحدة لا تكاد تضع سلطانها على بلد من البلاد حتى تزيل الفوارق بينها وبين أهله، فإذا هم يعتنقون دينها مقتنعين راضين .. لغتها لغتهم وقيمها قيمهم .. لا تصبح الأرض الجديدة مستعمرة أو محمية .. بل وطناً إسلامياً كيثرب نفسها، أو دار إسلام تحت راية القرآن.

وإذا جميع من تنتظمهم من رعية قد تكافأت دماؤهم وتساوت أنسابهم، وسعى بذمتهم أدناهم .. قرابتهم آصرة عقيدة، وشرفهم انتماء لدين.

كلهم للأب الأول ينتسبون. ولمثل عليا هتف بها محمد ﷺ ذات يوم في مكة المكرمة وحملها - بالحق - صحابته وتلاميذه وتابعوهم للناس جميعاً في أربعة أركان الدنيا، فالتقى واجتمع - أو تصاهر وامتزج - الأسود والأبيض .. الأصفر والأشقر، فامحت -بذلك- كل فروق اللون والجنس والعرق والعصبية القبلية ومؤثرات المكان والزمان.

ولم تعد المبادئ تصورات ذهنية في أدمغة الفلاسفة والحكماء أو في سطور ترف فكري، في كلمات بينها وبين الواقع البعد من الأرض إلى السماء، وإنما تجسدت القيم في أناس من البشر، ولهم كل خصائص البشر - في لحم ودم وأعصاب - لكنهم مسلمون!!

أمة مسلمة واحدة قرآنها واحد. نزل به الوحي الأمين على صاحب الرسالة - صلوات الله عليه - ويهتف به المسلمون في سمرقند وشيراز ونهاوند والبصرة وحلب وأطنة والفسطاط ونجران والسودان والقيروان وبرقة وفاس .. ويتلوه قارئوه بلسان عربي مبين في بخاري وخوارزم وحلب والرها وقرطبة وأصفهان.

وأحسبني أستعيد صوتاً لقراءة من الكتاب الكريم تتلى في المدينة المنورة أو الكوفة فيتردد صداها في جبال طوروس وهضاب البنجاب وتلال غزنة، ويجاوب الصدى تلبية من وراء الصحراء الكبرى وسط إفريقيا، لتتناغم معه قراءة أخرى من وراء طشقند ونهر جيحون!!

حكومة مركزية في طيبة المطهرة أو الكوفة أو دمشق، وحكومات إقليمية في خراسان وبلاد النهر وقرطبة واليمن ومصر والقيروان وبرقة والجزائر والسودان.

ونعود إلى الجهاد مع الدولة الرومانية ....

باستيلاء المسلمين على أرمينيا ومنطقة جبال طوروس أصبحت آسيا الصغرى أو الأناضول مسرح العمليات المتصلة بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية (عدو المسلمين التقليدي) فلقد أصرت هذه الدولة على حرب المسلمين واستعادة مستعمراتها!! التي حررها الإسلام.

وظلت الحروب مستمرة على امتداد تلك المنطقة تتخذ قواعدها الإسلامية من الثغور التي أقامها المسلمون في جزر البحر المتوسط وفي سلسلة الجبال الممتدة من ملطية على الفرات الأعلى حتى طرسوس. وكانت حصوناً محكمة، قامت على حمايتها كتائب مجاهدة من شباب المسلمين سموا بالمرابطين، ومنها تتحرك الطلائع المجاهدة في مواسم مسماة بأسمائها، إبان فصل الصيف وتسمى بـ«الصوائف» وفي وقت الشتاء وتسمى بـ«الشواتي» ،حيث يقوم بهذه الحملات فدائيون من المرابطين في المدن الواقعة في مناطق الحدود أو الذين يفدون إلى هذه الثغور في موسمي العمليات طلباً لثواب الجهاد في سبيل الله أو احتساباً لأجر الشهداء.

وتقرر القضاء التام على الخطر البيزنطي الذي يهدد الثغور في الشرق والشمال الإفريقي فتوجهت حملة لفتح القسطنطينية نفسها في خلافة «معاوية بن أبي سفيان» بقيادة «سفيان بن عوف» وضمت عدداً من كبار أبناء الصحابة، منهم: «عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير» ومعهم الصحابي الكبير «أبو أيوب الأنصاري» مضيف رسول الله في دار الهجرة، وقد استشهد رضوان الله عليه ودفن بجوار سور القسطنطينية عام ٥٢ للهجرة.

وكان «أبو أيوب» الشهيد قد أوصى «يزيد بن معاوية»: «إذا مت فاركب بي ثم سغ في أرض العدو ما وجدت مساغاً، فإن لم تجد مساغاً فادفنني ثم ارجع».

وكأنه -رحمه الله- أراد أن يكون مدفنه هناك تحريضاً دائماً للمسلمين، ومعلم طريق إلى الفتح العظيم.

وتتابعت حملات المسلمين لفتحها وهم يرددون: «لبيك أبا أيوب» حيث كان قبره دعوة مفتوحة لمعاودة الجهاد.

أليست رفاته هناك وديعة تستحث مودعها أن يواصل الطلب!!؟ .. بلى !!

وأرسلت حملة أخرى بقيادة «مسلمة بن عبد الملك» عام ٩٨هـ زمن الخليفة «الوليد بن عبد الملك»، حاصرت العاصمة الرومانية براً وبحراً بعد أن عبرت الجانب الأوربي من الشرق، لكن الفتح تعثر، فغادروها وهم مصرون على عودة وأن: «لبيك أبا أيوب».

عادوا وفي يقينهم أنهم لا بد أن يأتوا القسطنطينية مجاهدين من جهة ما. فلقد كان في ترتيبهم أن سقوطها سيتم بعد أن تأتيها جيوش المسلمين من الشرق براً وبحراً، ومن الغرب من جهة غرب أوروبا بعد أن عبرت طلائع الفتح جبال البرانس ووطأت بلاد الفرنجة من الغرب والجنوب.

وجاء العباسيون ليحملوا الراية من بغداد.

وردوا على نقض الرومان لمواثيقهم، واعتداءاتهم على الثغور والجزر، وهجومهم المتكرر على أرمينيا التي احتلوا جزءاً منها وقتلوا آلافاً من أهلها المسلمين، واصل المسلمون الجهاد فقاموا بتدعيم حصون ملطية والمصيفة ومرعش وطرسوس وأضنة التي دمرها الرومان.

وقاد الخليفة «المهدي» حملة تأديب اخترقت آسيا الصغرى حتى وصلت البسفور واضطرت الإمبراطورة «إيرين» لدفع الجزية.

وقام «الرشيد» بحملة لمواجهة الإمبراطور «نقفور» -ناقض العهد- سنة ١٨١هـ فوصل هرقلة وفتحها وأمن الحدود.

واستمرت الحروب طوال عهد العباسيين ..

تصرخ امرأة على الحدود مع الرومان: «وامعتصماه»!!. فيجاوبها رجع الصدى من الخليفة في بغداد: «لبيك يا أختاه»!! وعندما ضعفت الدولة العباسية -إبان نظام الدويلات- حمل بنو حمدان راية الجهاد من حلب ضد الروم.

ثم جاء السلاجقة الذين ينتمون إلى قبائل الغز التركية في وسط آسيا من بلاد ما وراء النهر في منتصف القرن الرابع الهجري. وكان جدهم «سلجوق» قد أسلم من قبل في بخارى وحصل حفيده «طغرل بك» على لقب سلطان من خليفة بغداد، وأصبحت آسيا الصغرى وطناً لهم وجعلوا من «قونية» عاصمة لدولتـهم.

وكانت معركة «ملاذكرد» الحاسمة في سنة ٤٦٣هـ (١٠٧١م) مثالاً للجهاد الإسلامي العظيم. فقد انتصر فيها جيش المسلمين بقيادة السلطان السلجوقي «ألب أرسلان» على الإمبراطور الروماني «رومانوس» الذي كان يقود جيشاً قوامه مائتي ألف أو تزيد. وسحق الجيش البيزنطي وانتشر السلاجقة في الأناضول، وبسطوا نفوذهم في القرن الحادي عشر على رقعة واسعة من الأرض تمتد من تركستان الصينية إلى شواطئ بحر مرمرة ومن القوقاز إلى خليج البصرة.

ومن يومها أصبحت الأناضول المسلمة فاصلاً بين دولة الروم وبلاد الإسلام في الشرق والجنوب.

وعملت الدولة السلجوقية على تجديد قوة المسلمين وإعادة تكوين وحدتهم السياسية وتثبيت مركز الخلافة العباسية المحتضرة في بغداد.

ودام حكم السلاجقة في آسيا الصغرى من ٤٧٠-٧٠٠هـ (١٠٧٠-١٣٠٠م) وقد صدت هذه الدولة اعتداءات الصليبيين وحملات البيزنطيين[١] .

وعن هذه الدولة وجهادها يقول فازلييف: «ومن ذلك الحين صار الإسلام خطراً حقيقياً يهدد بيزنطة بعد أن أصبح لواءه بأيدي السلاجقة»[٢] .

لقد دافع المجاهدون الترك عن الإسلام وحموا ديار المسلمين وكانوا قوة الحركة الإسلامية ودرعها يوم ضعف العرب وتفرقوا طرائق قدداً.

وعن هذه الحقيقية يقول «فازلييف»:

«كان العرب منذ القرن السابع حتى منتصف القرن الحادي عشر يمثلون الإسلام. ومنذ منتصف القرن الحادي عشر حتى سقوط بيزنطة في عام ١٤٥٣م أصبح يمثله الأتراك السلاجقة منهم أولاً ثم تلاهم العثمانيون»[٣]

* * *

(١) راجع «الدولة الإسلامية» - الدكتور محمد سعيد الشعفي وزملاؤه - دار الأصفهاني - جدة ص٨٠-٨٩.

(٢) ، (٣) «بيزنطة والإسلام» ملحق لكتاب «الإمبراطورية البيزنطية» - نورمان بينز - ترجمة حسين مؤنس، محمود يوسف زايد - القاهرة ١٩٥٠ ص٣٨٥.

الفصل الثاني

درس الشـرخ

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا
وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْبَيِّنَاتُ ، وأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

كان المفروض أن يستمر النظام الإسلامي، ربما إلى الأبد وفق المنهج الذي تقدم به الإسلام، والأمة المنبثقة من خلال نصوص كتاب، وبناء على الصيغة الحياتية السامية التي شهدها عالم الشهود تتحرك في واقع الناس، حتى أصبحت المبادئ والمثل والقيم هي ذاتها صورة المسلمين.

أي تجمعت التصوات في شخوص من الناس يعيشونها تماماً أو تسكن هي فيهم وكانوا حركتها المحسوسة والمنظورة!!

كان المفروض أن يستمر هذا البناء السامق للأبد لأنه يحمل في ذاته خصائص بقائه بفضل ما تضمنه من توازن بين عنصر الروح وعنصر الزمن.

لكن تعارضاً على غير طبيعة النهج قد طرأ على النظام.

وعند الفيلسوف المسلم «مالك بن نبي» أن جرثومة الشرخ قد زرعت يوم عرف العالم الإسلامي أول انفصال في تاريخه في معركة صفين عام ٣٨ للهجرة. أي يوم أن وقع الانقسام بين الروح القرآنية في جماعة «علي بن أبي طالب» والحمية القبلية في جيش «معاوية»، فانقسمت الأمة المسلمة إلى صفين في «صفين»!!

ومنذ ذلك الانفصال الأول فقد العالم الإسلامي توازنه الأول مع بقاء الفرد المسلم متمسكاً في قرارة نفسه بعقيدته التي تبض بها قلبه المؤمن.

واستمرت جرثومة التعارض التي حملتها معركة «صفين» تعمل حتى بلغت عوامل التعارض قمتها ووصلت إلى وعدها المحتوم وهو تمزق عالم واهن.

ومع أن مالك بن نبي -رحمه الله- يؤكد أن الإيمان لم يفقد سيطرته في العالم الإسلامي حتى في عهود الانحطاط حين يكون الأمر أمر تقييم أخروي للقيم الروحية، وأن العالم الإسلامي لم يقو على البقاء إبان تلك الأزمة الأولى في تاريخه وبعدها إلا بفضل ما تبقى فيه من دفعة قرآنية حيّة قوية .. فإنه يرى أن هذا الإيمان قد أصبح إيماناً جذبياً دون إشعاع. أي نزعة فردية، خصوصاً في العصور المنحطة، فأصبح عاجزاً عن دفع الحضارة وتحريكها، لأنه أصبح إيمان رهبان يقطعون صلاتهم بالحياة ويتخلون عن واجباتهم ومسئولياتهم كأولئك الذين لجأوا إلى صوامع المرابطين منذ عهد بن خلدون[1] .

وعند سعيد العريان[2] أن أول الوهن في الدولة الإسلامية كان يوم نسيت الأمة المسلمة قصة الأب الشيخ الذي أعطى بنيه حزمة مجتمعة من العصى ليكسروها فعجزوا، فأعطاهم إياها عوداً عوداً فكسروها جميعها.

وكانت البداية أن أخذ أمير من بني أمية في الأندلس أول عود من الحزمة المجتمعة وانفصل عن دولة الخلافة العباسية في بغداد، ليكون أميراً آخر للمؤمنين، تضرب السكة باسمه، ويخطب له على المنابر. وقلده أمير من ولد «علي بن أبي طالب» في المغرب فأخذ عوداً آخر من الحزمة ليبدو في عين من يراه سيداً ذا صولجان!!

فلماذا يكون (وحده) الرعية وهناك خليفتان للمسلمين في قرطبة وبغداد ؟

أليس هو أولى بهذا الشرف من بني مروان أو بني العباس؟

وانفصلت بذلك رقعة أخرى في دولة يتوارثها الأدارسة الهاشميون في فاس. ثم تتابع خروج العصى من الحزمة لمن يستطيع أن يتوكأ عليها من ذوي النفوذ وذوي المذاهب وذوي الأحقاد .. بل وحتى أمراء الأجناد.!!

---

(١) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي - ترجمة. د. عبد الصبور شاهين - دار الفكر ص٢٧-٣٢.

(٢) سعيد العريان : أول الوهن في الإمبراطورية الإسلامية - رسالة إلى المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٥٥.

فلم يكد ينتصف العصر العباسي الثاني حتى انفرط العقد وتناثرت حباته. وقامت دويلات متهالكة متصارعة على الساحة الإسلامية كلها.

ففي غزنة وخوارزم وبلاد ما وراء النهر، الدولة السامانية والدولة الغزنوية، وفي حلب الدولة الحمدانية، وفي مصر الدولة الإخشيدية، ثم الطولونية، ثم الدولة الفاطمية في مصر والشام وبعض بلاد المغرب، ثم الدولة الأيوبية ودولة المماليك في الشام ومصر أيضاً، ودويلات القرامطة والزنج في اليمن والبحرين والعراق وخوزستان. ثم دولة بني بوية في مقر الخلافة نفسها في بغداد!!

ولا أعتقد أن ثمة تعارض بين الرأيين - فالحركات الانفصالية التي استفحل أمرها في العصر العباسي الثاني لم تكن انقلاباً فجائياً لكنها كانت النهاية البعيدة لبذرة الشرخ في «صفين»، غزتها المفاهيم الخاطئة عند أصحاب الفرق الدينية المنحرفة الذين استغلوا الخلاف حول مسألة الخلافة فأدخلوا تعاليم آبائهم من يهودية ونصرانية ومجوسية وهندية - في مذاهبهم الضالة كالسبئية والخوارج والباطنية والإسماعيلية، وراحوا تحت ستار قضايا وهمية ينفثون سمومهم في أذهان بسطاء الناس يساندهم الشعوبيون ومن في قلوبهم مرض، فأخذوا يكفرون الخلفاء، ويخرجون على الإجماع، ويمزقون الدولة لينشئوا كيانات هزيلة، أو ينتظرون الإمام المستور!!

وينبغي هنا أن أزيل لبساً قد يقع فيه البعض...

فالشعوبية لم تكن نزعة كل الشعوب غير العربية، كما لم تكن العصبية نزعة كل العرب إبان العصرين الأموي والعباسي، لكنها كانت وسيلة أصحاب المذاهب المنحرفة وسلاح منشئى الدويلات وأدواتهم من الأجراء والمستفيدين، وهم قلة ضئيلة، قياساً إلى الجماهير العريضة التي ظلت تحت كل الظروف متمسكة بدينها القيم، أمينة على تراثها الفكري، واضحة الرؤية أمام التصور الإسلامي الأصيل.

«فالحسن البصري ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير وعطاء بن يسار وابن جريج كانوا من سادة التابعين وهم من الموالي. والمسلمون من عرب وغير عرب يأخذون عنهم وعن غيرهم من أئمة المسلمين العرب، على السواء»[١] .

وظل الناس -كل الناس- أمام شريعة الله الحاكمة في كل العصور متساوون في الحقوق والواجبات.

وأياً كان وضع أمير المؤمنين في خلافة موروثة، بيعتها صورية، وأياً كانت درجة صلاحه وتقواه - فإنه ملتزم بتطبيق المنهج، مسئول عن إيصال الحق وزيادة إلى مبتغيه، في أي أرض ترفرف عليها راية الإسلام.

فمثلاً ترسل «فرتونة بنت عبد الملاك» المسيحية المصرية من إحدى قرى الجيزة إلى الخليفة «الوليد بن عبد الملك» في دمشق رسالة تشكو فيها أن حائط بيتها منخفض وأنها تخاف على دجاجها من اللصوص!!

فيرسل أمير المؤمنين - المشغول بإدارة دولة من «الصين» إلى «المحيط الأطلسي» والحرب مع الروم على أشدها - رسالة إلى والي مصر «عبد الله بن شرحبيل»: «من الوليد بن عبد الملك إلى والي مصر عبد الله بن شرحبيل .. إذا أتاك كتابي هذا فأقرئ فرتونة بنت عبد الملاك السلام، وابني لها من بيت المال حائطاً يطول أعلى دار بجوارها، وأمنها على نفسها ودجاجها والسلام».. أو ما معناه.

والحادثة والحالة والرسالة غنية عن كل تعليق.

لكن وصلت عوامل التعارض في داخل البناء الإسلامي إلى وعدها المحتوم فكان التمزق والوهن.

وكانت حركة الدولة البيزنطية -على الرغم من ذلك- قد انشلت، فراحت -في ظروف هذا العالم الإسلامي الواهن- تبحث لها عن ظهير.

---

(١) راجع : تاريخ الدولة الإسلامية - محمد سعيد الشعفي وزملاؤه - ص١٦٥.

فكانت إشارة بدء الحروب الصليبية تلك الرسالة التي أرسلها الإمبراطور «الكسيوس كومينين» إلى بابا روما «أربان» يستصرخه لحرب المسلمين الذين صارت لهم بيت المقدس وأنطاكية والرها وقد تصبح مدينة القسطنطينية نفسها في أيديهم. وحثه على إعلان حرب مقدسة وطلب نجدته والغرب اللاتيني لإنقاذ الإمبراطورية الشرقية وكنائسها وأهلها المسيحيين.

وصرخ البابا المذكور في تجمع من الملوك والأمراء والقساوسة: «لقد كنتم تحاولون من غير جدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم .. فالآن اذهبوا وأزعجوا المسلمين وخلصوا البلاد المقدسة من أيديهم .. وامتلوكها لأنفسكم .. فإنها كما تقول التوراة : تفيض لبناً وعسلاً»!!

وأعلن البابا أن كل من يشترك في هذه الحملات تغفر له ذنوبه، ويدخل في حماية الكنيسة. ومن ثم ملكوت السماء. مغفورة خطاياه. وعلى الذين يضعون صليباً من القماش الأحمر على ملابسهم من ناحية الكتف أن يتجهوا إلى الشرق والرمز المقدس يعلن مشاركتهم في الحرب. أما إذا ترددوا وتقاعسوا فإن عقوبتهم الطرد من الكنيسة حتى الحرمان.

أما «بطرس الناسك» فقد راح على حماره الأعرج وفي ثيابه المهلهلة وقدميه العاريتين يحث الناس على قتال «الكفار»!! ويقود مجموعة من الأساقفة تلهب حماس المسيحيين إلى الحرب المقدسة!!

وتحرك زعيم صليبي آخر هو «والترالمفلس» يثير الجموع الصليبية.

وصلت جموع الصليبيين إلى القسطنطينية ثم زحفوا على أراضي السلاجقة، لكن المسلمين لاقوهم عند «نيقيا» وأفنوهم على بكرة أبيهم عام ٤٨٩هـ - (١٠٩٦م).

وأخفقت حملات أخرى مماثلة وكانت هذه بمثابة الطلائع للحملات الصليبية المنظمة التي باركها البابا وقادها الملوك والأمراء الأوربيون.

واستمرت الحروب الصليبية المنظمة - من الحملة الأولى التي نظمها البابا بنفسه وحتى الحملة الصليبية الثامنة - قرنين من الزمان حيث سقط العدوان الصليبي عام ١٢٩١م.

جاء الصليبيون -إذن- معلنين وليسوا متسترين وراء صليب المسيح. الصليب أولا، والعسل ثانياً .. وكذب مزورو التاريخ.

وتحت الراية الإسلامية وحدها جاهد المسلمون تحت قيادة «نور الدين وعماد الدين زنكي وصلاح الدين والصالح أيوب والظاهر بيبرس والمظفر قلاوون».

وخاب ملوك أوروبا مثل «فردريك بارباروسا» إمبراطور ألمانيا و«ريتشارد الأول» ملك انجلترا و«فيليب أغسطس» و«لويس التاسع» ملكي فرنسا.

وقد كان غل الصليبيين طافحاً في كل معاركهم الخسيسة. ومن ذلك ما ارتكبوه في أنطاكية وبيت المقدس.

ففي أنطاكية مثّل حملة الصليب بأهلها أشنع تمثيل فقتلوا عشرة آلاف مسلم من الآمنين في المنازل والمساجد والطرقات.

أما في بيت المقدس فقد قاموا بمذبحة وحشية رهيبة. فاستباحوا دم الرجال والنساء والأطفال وأجهزوا على من احتمى بالمسجد الأقصى وخاض جنود الصليبيين -في شوارع القدس- حتى سيقانهم في بحر من الدماء!!

ويشهد المبشر «استيفان نيل» في «تاريخ الإرساليات المسيحية - لندن ١٩٧١»: «حيث إنه قد قدرت الجحيم بخصوص «الكفار» (نحن المسلمين) فإن الصليبيين يعتقدون أن سحقهم أمر ضروري وخلقي أيضاً (!!) وأما من يُسمح له بالحياة منهم، فإلى عبودية دائمة، بمعنى ما يقومون به من خدمات للمؤمنين (المسيحيين)!! وحيث إن المسلمين -ببساطة- كفار، فليس لهم الحق في الوجود، فلا عهد معهم، وينبغي أن يذبحوا بلا رحمة أو شفقة تمجيداً لإله المسيحية» (ص١١٣).

وينقل عن «أولدينبرج» من كتابه «تاريخ الحروب الصليبية» قوله: «إن البابا كان على علم بالفظائع التي ارتكبها الصليبيون حيث نقل إليه ممثله هناك -غداة دخولهم القدس- بصراحة مبهرة، أن ما يقرب من عشرين ألفاً من هؤلاء الناس (أي المسلمين) قد أعمل فيهم السيف دون النظر إلى العمر أو الجنس»[1] !! (ص١١٥).

ومع ذلك يوافق الكاتب «القسيس نيل» على ما حدث ويباركه بقوله: «وعلى أية حال فإن المسلمين لا يظهر أنهم أتباع أمير السلام (المسيح)!! ومن ثم استحقوا ذلك..»!! (ص١١٤).

وخلص من المسألة قائلاً: «وعند الغربيين، فإن الحروب الصليبية قد حدثت من زمن بعيد والصليبيون الآن نائمون قريرى العين في مقابرهم في الكنائس الإنجليزية الهادئة»[2] (ص١١٤).

إن علاقة أوروبا المتعصبة -المستنفرة أبداً لقتال المسلمين- وثيقة الصلة بكل من حارب ويحارب المسلمين، أياً كانت هويته. وأبرز مثال على ذلك -في تلك المرحلة- المعاونة الصليبية للمغول في غزوتهم الشرسة للعالم الإسلامي. إن زوجة «هولاكو» الذي قضى على الخلافة العباسية كانت مسيحية وأمه كذلك. كما كان وزيره السفاح «كتبغا». وكان في بلاطه عدد من القساوسة يحرضونه دائماً على مواصلة الزحف للقضاء على المسلمين.

وقد بدا ذلك واضحاً في مذبحة بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وتعانق النصارى القادمون مع «هولاكو» مع النصارى المستأمنين من رعايا الدولة العباسية في بغداد.

---

(1) Z. Oldenbuorg - "Massacre at Montsegur": A. History of the Albigensian Crusade. (1959: Eng. trans. 1961), P. 183.

(2) Stephen Neill - (A. History of Christian Missions) - Published by Penguin Books - London. 1971 - Pages: 113, 114, 115.

ولما انتصر «المظفر قطز» على التتار في معركة «عين جالوت» الشهيرة أحست البابوية وبيزنطة وشراذم الصليبيين في بلاد الغرب بخيبة الأمل وحاولوا الاتفاق مع «أباقا» الذي خلف «هولاكو» وحرضوه على غزو الشام فنهض للقائه «سيف الدين قلاوون» وهزمه هزيمة ساحقة عند «حرض» ٦٨٠هـ (١٢٨٢م).

ووثبت الصليبية -عندما فشلت في المشرق الإسلامي- على شبه جزيرة إيبريا لتصفية المسلمين في الجنوب الغربي الأوربي.

وكانت الظروف مواتية حيث العصبية القبلية والصراع بين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم في الأندلس زمن «ملوك الطوائف» وقد بلغ الانقسام والتشرذم مداه، فولد الضعف والمهانة حد الاستعانة بالمتربصين «الأسبان».

من ذلك مثلاً استعانة أحد أمراء المسلمين بمغامر أسباني مسيحي ليحارب في صفه ضد أمير مسلم آخر.

وانتهى الأمر إلى أن أصبح المغامر الأسباني سيداً على «بلنسية» فحول مسجدها الجامع إلى كاتدرائية!!

وتحرك أسبان الشمال بزعامة مملكتي ليون وقشتالة وتمت عملية التصفية فسقطت لشبونة وطليطلة وقرطبة وغرناطة وأشبيلية وقادس وبلد الوليد.

وسفكت الدماء وبقرت بطون الحوامل وذبح المسلمون الأندلسيون في كل مكان!!

وفي عيد جميع القديسين عام ٩٧٨هـ احتفل الأسبان بالقضاء على كل من عثروا عليه من المسلمين، ومن لاقوه بعد ذلك حكموا عليه بالعبودية الأبدية، ومات آلاف في الطرقات من العرى والجوع والنصب. وحكم بالنفي على نصف مليون من المسلمين المستأمنين.

ونصبت الصلبان الفضية فوق أبراج المدن، وحكمت محاكم التفتيش بالإعدام

على كل أثر للمسلمين وجوداً ولساناً وتراثاً، وسيق للإعدام كل من رفض المسيحية ديناً[1] .

وانمحت ثمانية قرون من العز والحضارة والثقافة الإسلامية في الأندلس ودفن اليراع وغيب الصمصام!!

ولا حول ولا قوة إلا بالله..

* * *

(١) علي الجارم : العرب في أسبانيا - دار المعارف - ص٢١٤-٢١٥.

الفصل الثالث

البشـــارة ..

«لتفتحن القسطنطينية .. فلنعم الأمير أميرها .. ولنعم الجيش ذلك الجيش» .. «حديث شريف»

وصلت عوامل التعارض الداخلية في العالم الإسلامي الواهن قمتها وانتهت إلى حتميتها الموعودة، فأنشأت مجتمعاً جديداً له خصائص وسمات جديدة في عصر جديد هو عصر الانحطاط، حيث توقف إشعاع الروح فخمد إشعاع العقل، وبالتالي فقد الإنسان تعطشه إلى الفهم وإرادته للعمل ومقدرته على الهمة الناشطة واتسعت الهوة بين السلطة الحكومية والضمير الشعبي.

وقد أدى هذا الانقلاب في القيم إلى انهيار البناء الاجتماعي فلم يعد يقوى على الوفاء بمقومات العلم والفن والابتكار.

ذلك أن «الروح، والروح وحدها هي التي تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة وانحطت، لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوى بتأثير جاذبية الأرض، وعندما يبلغ مجتمع ما هذه المرحلة، -أي عندما تكف الريح التي منحته الدفعة الأولى عن تحريكه - تكون نهاية دورة وهجرة حضارة إلى بقعة أخرى تبدأ فيها دورة جديدة»[1] .

ولم يعد الدين هو «مركب» القيم الاجتماعية، أي بؤرة الارتكاز التي تنبثق منها كل المفاهيم والتصورات والعادات والتقاليد والإلهام الدافع إلى الخبرات المختلفة، بل صار إيماناً جذبياً أو نزعة فردية دون إشعاع.

وعندما يتحول الدين من التعبير عن فكرة جماعية إلى التقوقع في نزعة فردية، تتجمد رسالته التاريخية على الأرض.

---

(١) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي - دار المعرفة - بيروت ١٩٦٩- ص.٣.

ذلك أن الإيمان الناشط المشع يصنع حضارة، أما الإيمان الفردي الجذبي فيهرب إلى صومعة!!

«حتى إذا وهنت الدفعة القرآنية توقف العالم الإسلامي كما يتوقف المحرك عندما يستنفد آخر قطرة من الوقود وما كان لأي معوض زمني أن يقوم خلال التاريخ مقام المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية وهو الإيمان»[1] .

ويقصد: الإيمان الفاعل المشع.

وقد ترتب على ذلك -كما سبق أن عرضنا في الفصل السابق- حالة من التشرذم خر معها الصولجان القادر، وتحطم، واستحال إلى صويلجانات يتخاطفها صغار الملوك!!

وفي إطار ذلك الجو الهابط -من التوقف الحضاري والتحلل- غزا الصليبيون واجتاح المغول الأرض البور، وصفى الإسلام في الأندلس، ونعى الفردوس المفقود.

وصحيح أن الدولة الأيوبية ومن بعدها الدولة المملوكية قد استطاعتا -بحكم التنادي على غريزة البقاء- أن تتصديا للغزوة الصليبية والهجمة التترية وتهزمها وتصفيها، وأعطتا الإسلام يومين من أمجد أيامه .. يوم الصليبين في «حطين» ويوم التتار في «عين جالوت».

لكن حالة التمزق والجمود كانت باقية بفعل الشروط النفسية والزمنية الخاصة بتلك المجتمعات، وكانت دورة الحضارة -بناء على الشروط ذاتها- قد هاجرت إلى بقعة أخرى .. تركت عالمنا الإسلامي إلى مكان آخر لتبدأ هناك دورة جديدة.

فما كانت دولة المماليك في مصر -أقوى دول عالمها الواهن في ذلك الوقت- لتقوى على مواجهة أوروبا الناهضة .. أوروبا عصر الإحياء، والبعث، والكشوف

---

(١) مالك بن نبي - المرجع السابق - ص٣٠.

الجغرافية، والأساطيل التي راحت تعبر المحيطات وتدور حول الدنيا، بل وتكشف دنيا جديدة في القارة الأمريكية.

ولا كانت -كذلك- شراذم الدويلات المهترئة على امتداد الساحة الإسلامية وعددها بالمئات، لتصمد -في عالم إسلامي يغفو- أمام محاولة جديدة وجادة للغزو والسيطرة والاحتلال والاستيطان، أتت بها قوة متيقظة، مزودة بكل وسائل البحث والحرب والتقدم المادي، والحقد أيضاً.

فلم يكد ينصرم قرن وبضع قرن على اندحار الهجمة الصليبية والمغولية، ولم تكد تمض سنوات قلائل على سقوط آخر معقل للمسلمين في شبه جزيرة إيبريا، واندثار كل أثر للإسلام في الأندلس، حتى جاء صليبيون آخرون في صورة قراصنة احتلوا ثغور الشمال الإفريقي المسلم.

فاستولى البرتغاليون على سبتة عام ١٤١٥م، ووهران عام ١٥٠٩م، وطرابلس وآسفي عام ١٥١٠م، وآزمور عام ١٥٥٣م.

واحتل الأسبان مليلة وطنجة عام ١٤٧١م، وجعلوا من تونس مستعمرة أسبانية تحت وصاية أمير من بني حفص.

وتحرك الأسطول البرتغالي في البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي تحرك القوة والسيادة فاحتل القراصنة البرتغال مضيق هرمز وجزيرة سوقطرة في خليج عدن بغية السيطرة على التجارة الإسلامية في الهند بعد أن قطعوا طريق الشرق التجاري واكتشفوا رأس الرجاء الصالح.

وكان الأسطول الذي أنشأه المماليك قد حطمه البرتغاليون عام ١٥٠٩م في «ديو» إحدى موانى الكجرات الهندية.

في تلك الحقبة البالغة التعقيد، والأمة المسلمة تعيش حالة ضعف مهين، تظهر الدولة العثمانية، قوة إسلامية جاءت على موعدها لتنقذ أمتنا من الاندثار، ينتسب الأتراك العثمانيون إلى جدهم «عثمان بن أرطغرل»، من قبيلة

قايي الغزية - أي التركمانية، ويشتركون في النسب الغزي مع الأتراك السلاجقة، وقد وفدوا إلى الأناضول مع السلاجقة الفاتحين.

وقد أسس «أرطغرل» ومن بعده «عثمان» التشكيل السياسي لقيام الدولة في القرن الثالث عشر الميلادي في شمال غرب الأناضول.

ويعترف أصحاب كتاب «تركيا والسياسة العربية» بالهوية الإسلامية لهذه الدولة العلية :

«وتختلف الدولة العثمانية في طبيعة تكوينها عن غيرها من الدول، فالغاية التي قامت من أجلها إنما هي الدفاع عن الإسلام ورفع رايته في مشارف آسيا الصغرى والقضاء على الدولة البيزنطية التي كانت تهدد المسلمين في ديارهم. ومن ثم أطلق على زعيم هذه الدولة الناشئة لقب الغازي، أي المجاهد في سبيل الله، وكان يتلقى هذا اللقب في حفل مشهود يتسلم فيه راية الجهاد من شيخ الصوفية. وأن «الغازي عثمان» رحمه الله «دعا المسلمين من الترك وغيرهم لينضموا تحت راية الجهاد في سبيل الله فاستجاب له الكثير من المؤمنين الصابرين، تحدوهم جميعاً رغبة شديدة في الانتصار لدين الله بالقضاء على الدولة البيزنطية»[(١)] .

كان على الأتراك العثمانيين إذن -من منطلق إسلامي بحت- أن يتصدوا للدولة البيزنطية وأن يدرأوا عن أمتهم الإسلامية خطرها المقيم، بل ويقضوا عليها .. وليس هذا فحسب، بل ويخلصوا ثغور الإسلام في كل مكان من السيطرة الاستعمارية الاستيطانية ويطهروا بحار الإسلام من القراصنة المتعصبين.

أكثر من ذلك .. كان عليهم أن يوصلوا الإسلام إلى قلب أوروبا ذاتها.

كانت تلك رسالتهم وقد أدوها بأمانة واقتدار.

---

(١) تركيا والسياسة العربية - أمين شاكر وسعيد العريان ومحمد عطا - دار المعارف ص١٣.

تحركوا في آسيا الصغرى فاتسعت رقعة الدولة وسقطت «بورصة» عام ١٣٢٦م، ثم وقعت نيقية في قبضة «أورخان بن عثمان»، وتم الاستيلاء على أزمير وشبه جزيرة «قوجة لي» فانتهت بذلك آخر قدم للدولة البيزنطية في الأناضول.

أسس «أورخان» جيشاً خاصاً ربَّى أفراده منذ الصغر تربية دينية خالصة ودربوا تدريباً عسكرياً راقياً، وسمى هذا الجيش المخصص للجهاد «الييني شارية» أو «الإنكشارية» وتعني العسكر الجديد.

اجتاز العثمانيون البحر عام ١٣٤٥م بعد أن عبروا مضيق البسفور واستولوا على شبه جزيرة غاليبولي بقيادة «سليمان بن أورخان». وفتحت مدينة أدرنة عام ٧٦٢هـ (١٣٦١م) بقيادة «مراد بن أورخان».

بعد وفاة «أورخان» تولى الحكم ابنه «مراد الأول» فجعل أدرنة عاصمة لدولة الإسلام القوية في أوروبا.

دعا البابا إلى حرب صليبية عامة ضمنها دول البلقان، فهاجمها «مراد» وفتح صوفيا ونيس ومقدونيا وسالونيك.

كون «لازار» ملك الصرب حلفاً من الصرب والبوشناق والبلغار والمجريين والألبان للقيام بحملة ضد الدولة المسلمة الناهضة، فجهز «مراد» جيشاً قاده بنفسه، واستشهد -رحمه الله- في عام ٧٩١هـ (١٣٨٩م) حيث اغتاله في معركة «قصوة» أحد جنود الصرب.

تولى «بايزيد» -أو الصاعقة- ابن «مراد» الحكم فأدار المعركة لصالح الإسلام، فانتصر العثمانيون وأسر ملك الصرب.

جمع «سجموند» ملك المجر جيشاً من الفرسان الذين تطوعوا من أوروبا الغربية والمورة بالإضافة إلى كل دول البلقان، لكن «بايزيد» هزم جمعهم وطاردهم حتى النمسا.

وتكون حلف مسيحي آخر من البلقان ودوقيات إيطاليا والإمبراطورية البيزنطية والبابوية لصد الفتح الإسلامي والتواطؤ ضده مع المغول، لكن «مراد الثاني» انتصر عليهم في معركتي «وارنة» و«قصوة» الثانية عام ٨٥٢هـ (١٤٤٨م) ولاذ المجريون بالفرار.

* * *

كان فتح القسطنطينية هدفاً رئيسياً للسياسة الإسلامية منذ القرن الأول الهجري.

إليها تتابعت حملات المسلمين، وبجوار سورها دفن «أبو أيوب الأنصاري»، - صاحب رسول الله ﷺ ومضيفه في دار الهجرة - شهيداً في أولى محاولات الفتح.

من القسطنطينية كانت تصدر قرارت الحرب لغزو ديار الإسلام والإغارة على الثغور.

وفيها لفق الإمبراطور «عمانويل الثاني» أول رسالة بذيئة كتبت للطعن في الإسلام فهو يعرف الإسلام بأنه: «ضلالة تسمى عقيدة» ويتحدث عن النبي ﷺ في لهجة ملؤها الحقد والانحطاط[١].

والدولة البيزنطية -كما عرضنا- هي عدو الإسلام التقليدي من هرقل وحتى قسطنطين الحادي عشر .. دراجاسيس.

ويعترف نورمان بينز بأن «عداوة بيزنطة للإسلام بقيت ما بقيت الامبراطورية»[٢]. ولئن كان المسلمون العرب قد تصدوا لهذه الدولة وحرروا من نيرها مستعمراتها السابقة وأضافوها إلى دولتهم «دار إسلام»، وحاولوا فتح

---

(١) فازلييف : بيزنطة والإسلام - ملحق «الامبراطورية البيزنطية» - ترجمة حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد ص٣٩١ - القاهرة ١٩٥٠.

(٢) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية - ترجمة حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد ص٥٦.

عاصمتها، ولم يوفقوا. فإن المسلمين الأتراك، حملة الراية من بعدهم قد حققوا الهدف الإسلامي الكبير.

ويعبر أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي عن طموح المسلمين وحرصهم على فتح القسطنطينية: «في جانب سورها قبر «أبي أيوب الأنصاري» صاحب رسول الله ﷺ ، وبها الجامع الذي بناه «مسلمة بن عبد الملك» والتابعون، وبها قبر رجل من ولد «الحسين» رضي الله عنه، وهذه المدينة أكبر من اسمها، نسأل الله أن يجعلها دار إسلام بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى»[١] .

ويعلق فازلييف على قول الهروي: «وقد أجيب دعاؤه في سنة ١٤٥٣م»[٢] .

نعم .. تحقق الهدف على يد السلطان الشاب، «محمد الثاني»، أو «محمد الفاتح» كما يسميه - بحق - تاريخ المسلمين.

والتزم «الفاتح» بالتسمية فسماها اسلامبول أي مدينة الإسلام.

ففي مارس ١٤٥٣م أقام السلطان «الفاتح» حصناً على بعد سبعة كيلومترات من الهدف سماه «روملي حصار». وفي التاسع من إبريل قاد من خلفه سبعين ألفاً من الجنود وحاصر المدينة من جانب البر، بينما حاصر البسفور أسطول يتكون من بضع مئات من السفن الحربية.

وكان - رحمه الله - في الرابعة والعشرين من عمره يوم قاد جيش الفتح العظيم .. كان في مقدمة جيشه يقرأ مع جنوده ذوي الروح الإسلامية العالية سورة الفتح، ويدعو مستبشراً بحديث رسول الله ﷺ : «لتفتحنَّ القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

وفي ٢٩ من مايو ١٤٥٣م فتح السلطان عدة ثغرات في السور ووجه الضغط الأساسي إلى الثغرة الكبرى بجانب بوابة «سانت رومانوس».

---

(١) الإشارات إلى معرفة الزيارات - رحلة الهروي - مخطوط دار الكتب - ص٤٨-٤٩.
(٢) فازلييف : بيزنطة والإسلام - ص٣٨٩.

ومع المدفعية العثمانية الثقيلة، والمنافسة من الجنود على الفوز بإحدى الحسنيين، يصعد مدوياً الهتاف باسم الله الأكبر، والتنادي أن «لبيك أبا أيوب».

وتسقط الحصون المنيعة لعاصمة الدولة البيزنطية، وتخر أسوار فخر اليونان -المدينة التي يحرسها الله!!- هاوية أمام الفاتحين غداة يوم الثلاثاء الرابع عشر من رمضان عام ٨٥٧ للهجرة (الموافق ٢٩ من مايو عام ١٤٥٣ للميلاد).

واخترقت فرقة من الإنكشارية الثغرة الرئيسية يقودها «حسن الألوبادي»، أحد أبطال الترك المجاهدين، واندفع الجيش المنتصر في شوارع المدينة التي استعصت من قبل على «كسرى» و«مسلمة بن عبد الملك» وغيرهما من القادة الكبار.

ودخل السلطان الفاتح مدينة «أم الرب» - روما الثانية - قبل ظهر يوم الجمعة، بعد ثلاثة أيام من الفتح، وأمن المغلوبين وأعلن حرية الفكر والاعتقاد.

وتكسر تمثال «رلفى» المثلث الرأس بثعابينه الثلاث والذي كان واقفاً حيث وضعه قسطنطين الأكبر، منذ أحد عشر قرناً مضت عند «سانت صوفيا» رمزاً لانتصار الرومان على الشرق القديم، وتذكاراً لصد الفرس في موقعة «بلاثايا». ضربه السلطان ضربة واحدة أطاحت بفكي ثالث الثعابين»[1] .

وأقيمت الصلاة الجامعة ليوم الجمعة المعظم في السابع عشر من رمضان حيث دوى الآذان من أعلى تحفة «جستنيان»، وكبَّر المسلمون في القبة التي أحيا فيها ثلاثون جيلاً من البطاركة العشاء الرباني المقدس.

وأزال الفاتح العظيم - من الوجود - امبراطورية الروم الشرقية التي دامت أحد عشر قرناً من الزمان.

وارتفع هناك علم الشرق المسلم الجديد بهلاله البديع.

---

(١) راجع: أومان - الامبراطورية البيزنطية - تعريب د. مصطفى طه بدر - دار الفكر العربي - ص٢٦٥.

وصارت العاصمة المقدسة للدولة الرومانية والحضارة الهيلينية والأرثوذكسية العالمية، حاضرة للدولة العثمانية، ومنارة لإشعاع الإسلام.

وعوضاً عن القيصر الكاهن الامبراطور حلّ السلطان المسلم أمير المؤمنين.

وأصبحت الآستانة بمآذنها السامقة موئلاً للثقافة الإسلامية، وداراً لطباعة المصحف العثماني الشريف، ومقراً لشيوخ الإسلام.

وأكد الأتراك أنهم لا ينتسبون إلا للإسلام وتراث الإسلام وحضارة المسلمين.

فعلى ضريح «أبي أيوب الأنصاري» بنى العثمانيون قبة أقاموا إلى جوارها مسجداً، يبايع فيه السلاطين العظام حيث يقلدون سيف «عثمان» من يد إمام مسجد «أبي أيوب».

البيعة في مسجد. والمسجد لأبي أيوب الأنصاري، وأبو أيوب عربي، والذي يتقلد السيف تركي، وإمام مسجد يقلده إياه.

شعيرة انتماء لدين .. لا لجنس أو قوم.

ووشائج مستمدة من آصرة العقيدة .. لا مصالح حيوانية يربطها سياج القطيع!!

نعم «أبو أيوب» .. وليس «جنكيز خان».

وعلى مسجد السلطان الفاتح تقرأ حديث رسول اللّٰه الذي يبشر بالفتح، ويبارك قائد النصر، ويثني على الفاتحين: «لتفتحنّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

لقد كان فتح القسطنطينية قمة التصاعد في قصة البطولة العثمانية .. كان الصورة المعراجية لفيلم الصراع بين الإسلام والصليبيين.

كان ذروة الإثارة في الضمير الغربي، ولا زال تاريخهم ينضح بالأسى الدفين على فقدها ويطفح بالحقد على الفاتحين.

فلقد بنيت القسطنطينية - كما قلنا في الفصل الأول - على أنقاض مدينة بيزنطة الإغريقية، لتكون مدينة مسيحية الصبغة ودشنها قسطنطين الأول في ١١ مايو ٣٣٠م وسميت باسمه لتكون عاصمة الدولة الرومانية الكبرى.

وكانت مدينة البوسفور بقرنها الذهبي أكثر أماناً ومنعة من مدينة التيبر بتلالها السبع.

ولئن كانت روما القديمة قد تميزت بكنائسها الضخمة فإن كنيسة القديسة صوفيا في روما الجديدة قد فاقت الكل أبهة وفناً ومعماراً، حتى قيل: إن الله والإنسان قد اشتركا في البناء!!

وترقت بطريركيتها فبذت بطريركيات هرقلية وإنطاكية والإسكندرية وغلبتها ثم نافست السدة الرسولية في كنيسة بطرس الأكبر، وانفصلت عنها، وأصبحت قلعة الأرثوذكسية العالمية.

فلما سقطت روما في أيدي القوط، وانتهى معها القسم الغربي من الإمبراطورية - غدت روما الثانية - أو القسطنطينية - رمز الاتحاد بين التقاليد الرومانية والديانة المسيحية فأصبحت المعتقدات الكنسية والجنسية الرومانية شيئين مترادفين، وفي أشعارهم أنها «المدينة التي جمعت أمنيات الدنيا».

فالمدينة إذن باسمها المنسوب إلى قسطنطين وبألقابها التاريخية «روما الثانية»، «مدينة أم الرب»، «ملكة المدن المسيحية»، «المدينة التي يحرسها الله»، «فخر اليونان» كانت تعني في الوجدان الغربي رمزاً للحضارة الهيلينية، وتراث الرومانية، وواسطة العقد للشعوب النصرانية وحصناً للمسيحية العالمية على مدى ألف ومائة عام.

ومن ثم كانت روعة الفتح ورعب السقوط.

فلئن كان الفتح عند المسلمين هدفاً وبشارة فإن سقوطها عند الغرب كان يعني الخراب والمأساة، ويعبر فازلييف عن ذلك بقوله: «وفي سنة ١٤٥٣م سقطت

القسطنطينية -روما الثانية- ودخلها السلطان محمد الثاني «المنذر بقدوم الدجال وشبيه سنحاريب» ..

وأقام الأتراك العثمانيون امبراطوريتهم العسكرية على أطلال الامبراطورية الشرقية المسيحية، وكان لهذا الانتصار الذي أحرزه الإسلام على المسيحية أصداء بعيدة في روسيا النائية، ووقع في روع كثير من الروس أنهم أصحاب التراث البيزنطي الثقافي فوجب عليهم -لهذا- الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ضد الإسلام»[1] .

وكذب فازلييف .. فلا كان السلطان «محمد الفاتح» شبيهاً بسنحاريب، ولا كان - رضي الله عنه - منذراً بقدوم الدجال، إنما كان شبيهاً بأسلافه المسلمين من الفاتحين الدعاة، وكان مبشراً بتحقيق وعد رسول الله ﷺ ، وكذب فازلييف، ووفى السلطان الفاتح فحقق البشارة، وسقط قيصر.

ويقول أومان آسفاً وحزيناً: «وأخيراً وصل السلطان إلى سانت صوفيا، وقد دخلها من الباب الشرقي. وأمر أحد العلماء بصعود المنبر وأن تُقرأ هناك صيغة التشهد، وهكذا دوى صوت بأن الله أكبر ومحمد رسوله، في القبة التي أحيا فيها ثلاثون جيلاً من البطاركة العشاء الرباني المقدس»[2] .

ويصف «نهرو» شعور العالم النصراني بعد سقوط مدينتهم المقدسة في أيدي المسلمين، أي فتحها بالإسلام وجنوده الأبرار المنتصرين: «إن سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين كان حدثاً تاريخياً خطيراً هز أوروبا هزاً عنيفاً. فسقوطها يعني القضاء النهائي على الامبراطورية الشرقية الإغريقية القديمة التي دامت ألف عام، كما يعني غزواً إسلامياً آخر لأوروبا. وقد حول الأتراك العثمانيون كنيسة القديسة صوفيا الكبرى، التي بناها الإمبراطور

---

(١) فازلييف : بيزنطة والإسلام .

(٢) أومان : الامبراطورية البيزنطية - ص٢٦٥.

جستنيان في القرن السادس الميلادي إلى مسجد أسموه أيا صوفيا. وقد أثار هذا الحادث مشاعر أوروبا، لكنها وقفت حياله عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئاً»[1].

ويتحسر «استيفان نيل» على ضياع الحصن: «وفي عام ١٤٥٣م سقطت القسطنطينية على يد الأتراك، وأنهيت الإمبراطورية الشرقية حصن المسيحيين على مدى ألف عام»[2].

وفي لوعة الثكالى يبين دور الامبراطورية المنهارة في التاريخ الأوروبي فيقول: «منذ تأسيس القسطنطينية بواسطة قسطنطين كمدينة مسيحية وحتى سقوطها النهائي بواسطة الأتراك عام ١٤٥٣م انقضى أحد عشر قرناً، وإذا ما عدنا إلى الوراء، فإن أحد عشر قرناً ستنقلنا إلى أبعد من الغزو النورماندي .. أبعد من أيام ألفريد الأكبر. فالتاريخ البيزنطي أطول من كل مجرى التاريخ الإنجليزي حتى أيامنا الحاضرة وعلى مدى ثمانية قرون من بين الأحد عشر كانت الامبراطورية البيزنطية حصناً لعالم المسيحية ضد انتهاكات القوة الإسلامية!! ومنذ بداية القرن الثامن بدأت الامبراطورية تحس بخطورة التهديد الإسلامي»[3].

* * *

واصل «السلطان الفاتح» جهاده فانتصر على الصرب وضمها لدولته. واستنجد أمير من أسرة باليو لوغوس في المورة بالفاتح العظيم فأنجده، ونتيجة لذلك تكون حلف ضده من البندقية وحلفائها الألبان، وانتصر عليهم وضم ألبانيا إلى الدولة العثمانية عام ١٤٦٨م. وتوغل في البلاد التابعة للبندقية على ساحل بحر الأدرياتيك واستولى على مدينة تارنتو الإيطالية عام ١٤٨٠م بعد أن سيطر على المضايق التي تفصل إيطاليا عن البلقان.

---

(١) جواهر لال نهرو : لمحات من تاريخ العالم - ترجمة د. عبد العزيز عتيق ص٦٠.
(٢) Stephen Neill "A. History of Christian Missions" - P.63.
(٣) المرجع السابق - ص٨٢.

ولما طلبت البندقية الصلح أجابها إليه في شرف المسلمين وعلى الشروط المعروفة عند المتحاربين، وألحقت جزر كانت تابعة للبندقية بالدولة العثمانية، وصار «محمد الفاتح» سيد البحر المتوسط ومضايقه بلا منازع.

ناصر خانات القرم المسلمة ضد مطامع جنوة والقبيلة الذهبية اليهودية. ومن عام ١٤٧٥م أصبحت القرم والتركستان ضمن التبعية العثمانية فتوفرت لها الحماية: وصار البحر الأسود بحيرة إسلامية.

وخلفه «بايزيد» فاستمر في رسالة أسلافه .. وواصل جهاده مع البولنديين فاستولى على كيلي وأكرمان وواجه تحالفاً صليبياً يقوده البابا للمرة الرابعة. وانتصر عليهم في معركة ليبانتو عام ٩٠٥هـ (١٤٩٩م). وأبرزت حروبه وسياسته أهمية الدولة العثمانية كعامل رئيسي في توازن القوى الأوروبية. وقد أرسل -رحمه الله- أسطوله في البحر المتوسط لمساعدة حاكم غرناطة المسلم المحتضر لكن شمس الأندلس كانت قد أذنت بالمغيب.

وخلف «بايزيد» ابنه «سليم الأول» فصد هجمات الأسبان على السواحل المسلمة لشمال إفريقيا وخلص الجزائر من الاحتلال الأسباني عام ٩٢٤هـ (١٥١٨م). وضم مصر والشام والحجاز (١٥١٧م) فوفر لها الحماية والأمان.

أما السلطان «سليمان القانوني» -خليفة سليم الأول- فقد بلغت الدولة في عهده أقصى اتساع لها. أخضع فرسان القديس يوحنا في رودس عام ١٥٢١م وانتصر على المجر نهائياً في موقعة موهاج ٩٣٥هـ (١٥٢٩م) وقتل ملك المجر وسقطت تحت رايته المظفرة قلعة كوسك واستولى على بودا عام ١٥٤٣م، وألحقت المجر نهائياً بالدولة، وأنقذ تونس من الاستعمار الأسباني وأعادها للحق المسلم في عام ٩٤١هـ (١٥٣٤م)، وحرر طرابلس من القراصنة المدعوين فرسان القديس يوحنا عام ٩٥٨هـ (١٥٥١م) وحطم الأسطول الذي بعث به الامبراطور شارل الخامس لاحتلال الجزائر.

وأبحرت أساطيله مرفوعة الراية في البحر الأبيض والبحر الأسود، ودقت جيوشه أبواب فيينا. ولاذت بحماه شمال إفريقيا المسلمة.

واستولى السلطان «سليم الثاني» على قبرص عام ٩٧٩هـ (١٥٧١م). واستولى السلطان «محمد الرابع» على جزيرة كريت عام ١٠٨٠هـ (١٦٦٩م) ولم تعد هناك جيوب في البحر المتوسط تهدد أمن آل عثمان حماة المسلمين.

واستمر جهاد الترك مع الروس لنصرة إخوانهم مسلمي آسيا الوسطى في بخارى، واستراخان، وإمارات القرم مدة ٦١ عاماً انتهت بمعاهدة قصر شيرين عام ١٠٤٩هـ (١٦٣٩م) والتي ثبتت الحدود بين آل عثمان والروس في القوقاز زمن السلطان «مراد الرابع».

أما في البحر الأحمر والبحر العربي والخليج والمحيط الهندي والمحيط الهادي، فقد استولى العثمانيون على ميناء سواكن وأحبطت محاولات البرتغال وطردوا من البحر الأحمر.

وساعدوا اليمن ضد الحبشة التي تواطأت مع البرتغال عام ١٥٤١م. وطلب راجا كاليكوت وسلطان كوجرات المسلمين الهنديين المساعدة من العثمانيين فأرسل السلطان «سليمان القانوني» حملة أبحرت إلى المحيط الهندي لمساعدتهما. كذلك فإنهم سيطروا على الخليج العربي وتمركزوا في البصرة والقطيف والبحرين بعد أن خلصوا المناطق الاستراتيجية في جنوب الجزيرة العربية من البرتغاليين. ومكنوا لنفوذ المسلمين في كثير من المواقع على الساحل الشرقي لإفريقيا فنشطت التجارة الإسلامية من جديد بعد أن دمرت البحرية العثمانية كل القواعد البرتغالية في البحار الإسلامية. بل واتخذوا قرار مساعدة جزر الفيلبين بإرادة سنية من السلطان نفسه.

* * *

وقبل أن ننتقل إلى فصل آخر، لا بد لنا هنا من توضيح قضية أثارها أصحاب كتاب «تركيا والسياسة العربية» .. وهي في الواقع ليست قضية تتوافر لها الأركان حتى مع عوج الحجة أو تفاهة الدليل!!.. بل إنها ليست حتى مجرد اتهام يمكن أن يدرج في «الجداول» أو «دفاتر الأحوال» .. إنها ليست إلا لغواً من القول ألقي في مجموعة سطور عابثة تدل على الجهل بالتاريخ وحساب السنين .. بل حتى حساب الأرقام في أبسط صور الجمع والطرح!!

وكان المفروض أن أضع هذه الفرية في موقعها من الكتاب في فصل «مزاعم وأباطيل»، لكنني رأيت أن أضعها هنا لاعتبارات، منها:

أولاً: أن واحداً من المشتركين في تأليف الكتاب، وهو الأستاذ سعيد العريان - رحمه اللّه - قد ربطتني به علاقة واشجة وود قديم، منذ أن كنت طفلاً في الثانية عشرة من عمري، وعلى بعد المسافة من القاهرة إلى أسيوط، وأنا أزعم أنني واحد من تلاميذه، قرأت أدبه، وقدمني إلى أدب الكاتب الكبير المغفور له مصطفى صادق الرافعي .. والرجل ذو غيرة إسلامية آزرتني وأنا أقاوم الهجمة النصرانية، طالباً في قسم اللغة الإنجليزية في كلية المعلمين بأسيوط، وقد فرضت في منهج النشر، رواية تطعن في الإسلام وتسب المسلمين!!

وفصل «مزاعم وأباطيل» قد خصص للرد على افتراءات تلاميذ الغزو الفكري، وصبية المبشرين!! والرجل على وجه اليقين قد تعرض لدسهم الخسيس .. بل إنه قد خرج من الوزارة بناء على طلب «طالب شبيب» وزير خارجية البعث العراقي أثناء محادثات الوحدة الثلاثية عام ١٩٦٣!!

ثانياً: أن الدولة العثمانية قد قامت بجهد مشكور فيما أثاره أصحاب الكتاب. وهذا الجهد يقع في دائرة مجد الدولة وقوتها .. وموقعه في هذا الفصل .. «البشارة».

يزعم أصحاب كتاب «تركيا والسياسة العربية» أن العثمانيين قد قصروا في

نصرة إخوانهم في الأندلس. ولم يسارعوا إلى نجدتهم، ودويلاتهم المهترئة تتساقط الواحدة تلو الأخرى!!

ونبين الأمر بحساب الأرقام!!

لقد سقطت طليطلة في عام ٤٨٧هـ (١٠٨٥م) على يد ألفونس ملك قشتالة. وسقطت لشبونة عام ١١٧٤م على يد جيش أسباني برتغالي بقيادة ألفونس هنريك يعاونه جيش صليبي من كل أوروبا كان ذاهباً للمشاركة في الحملة الصليبية الثالثة.

وتوحدت جبهة الأسبان في اتحاد أرغون وقشتالة في واقعة العقاب عام ٦٠٩هـ (١٢١٢م). حيث انتصر الأسبان انتصاراً وحشياً توالت بعده الانتصارات حتى سقطت بلنسية وقرطبة وأشبيلية وقادش، بحيث لم يبق للمسلمين في بداية القرن الرابع عشر إلا إمارة غرناطة!!

وهذا تاريخ ثابت يعلمه الغربيون قبل المسلمين، ويعلمه طلاب المدارس الصغار.

والإمارة العثمانية تكونت - كإمارة صغيرة في الأناضول - في عام ١٣٢٦م عند فتح مدينة «بورصة».

وبين سقوط طليطلة، وقيام التشكيل العثماني الأول -كإمارة صغيرة- ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان .. أي قبل ميلاد «الغازي عثمان» نفسه بما يزيد على مائتي عام..!! بل لم يكن جده السابع أو الثامن قد ولد بعد .. كان في عالم الذر!!

أما محاولة إنقاذ غرناطة التي سقطت في عام ٨٩٧هـ (١٤٩٢م)، وكانت تعاني النزع الأخير، وهي غارقة من قبل في بحر من الأسبان والبرتغال مدعومين من كل القوى الصليبية في الشمال، فأمر كان مستحيلاً!!

فالدولة العثمانية، وعقب فتح القسطنطينية، في عام ١٤٥٣م - كانت مشتبكة في حرب دائمة مع الألمان والنمساويين والمجريين والألبان والصرب والجبل الأسود واليونان وإمارتي جنوة ونابلي!!

فهل كان على آل عثمان أن يتركوا جبهة أوروبا كلها، وتترك معها الأناضول مكشوفة، ويذهبوا، وعلى اتساع المسافة الهائلة من أقصى شرق أوروبا إلى أقصى جنوبها الغربي -شبه جزيرة إيبريا - ليحاربوا حرباً خاسرة، ليستخلصوا مدينة من وسط إقليمين كبيرين هما أسبانيا والبرتغال!؟

وكيف كان سيتم نقل الجنود ؟!

هل كانت الجيوش العثمانية ستمر في سلام وأمان وترحيب!!، وإخلاء طريق!! عبر النمسا والصرب والجبل الأسود وألبانيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا، في خط مستقيم، ثم تنحرف لتهبط إلى الجنوب، فيخلي لها الأسبان الطريق إلى هدفها المنشود نحو غرناطة المحاصرة!؟

وكم من الوقت كان سيستغرقه الجيش العثماني، حتى لو وجد الطريق ممهداً، ودقّت كنائس أوروبا غرباً وشرقاً وجنوباً تبارك الزحف العثماني إلى غرناطة؟!

إنه حتى لو افترضنا نقل كل الناس الأتراك من الأناضول، وجيء بمثلهم مدداً .. فكيف كان يمكن أن يتم ذلك النقل؟ براً أم بحراً؟! .. سخف أقوال.

ومع ذلك تحرك الأسطول العثماني في البحر المتوسط لنجدة غرناطة، آخر المعاقل، لكن الأمر كان مستحيلاً، وهوت غرناطة، ومن حولها كل عوامل السقوط.

وبذل «السلطان أحمد» العثماني جهداً مكثفاً، واستغل نفوذه القوي وضغط على ملك فرنسا ليحمل في مراكبه المهاجرين الأندلسيين ويوجههم إليه، ضيوفاً ينعمون بأمن الأخوة الإسلامية في دار عثمان.

وقد أخاف نشاط السلطان أحمد -رحمه الله- فيليب ملك الأسبان فاضطر إلى التراجع عن قراره البشع باستعباد بقية المسلمين في الأندلس، يباعون أرقاء للخدمة في الكنائس والبيوت الأسبانية، ويقومون بدور الحيوانات في المزارع والجبال .. اضطر هذا الوحش الأسباني إلى ترحيل ستمائة ألف مسلم -الذين كان قد حولهم رقيقاً- واستقبلتهم الآستانة أحراراً مخلصين من رق أكيد.

وعلى ذلك فقد أنقذ العثمانيون ما أمكن إنقاذه .. استقبلوا المهاجرين وخلصوا الأرقاء .. أي ما يقرب من المليون!!

وغفر الله لأستاذنا سعيد العريان، الذي شارك في هذا العبث، وسامحه!!

ورحم الله آل عثمان ورضي عنهم وجزاهم عن أمتهم المسلمة خير الجزاء.

* * *

الفصل الرابع

والصبغة إسلامية

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ
اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (البقرة : ١٣٨)

تأسيساً على ما تقدم -يمكننا أن نقول في طمأنينة الحيدة- أن الدولة العثمانية قد نشأت نشأة إسلامية، خالصة، مشبوبة بإيمان عميق، متوجهة إلى أهداف عقائدية صريحة، تخوض حروبها بحمية دينية شديدة. وكانت أحلى عبارة على ألسن العثمانيين عند التنادي على الجهاد والزحف إلى الفتوحات عبارة: «إما غاز .. وإما شهيد».

فمنذ بداية تأسيسها أطلق على زعيمها لقب الغازي- أي المجاهد في سبيل الله - وظل هذا اللقب الغالي والعزيز يسبق كل الألقاب وينعت كل أسماء السلاطين العظام.

وكانت غايتها - كما حددها مؤسسوها المجاهدون الأوائل، وسار على نهجهم خلفاؤهم من بعدهم - «الدفاع عن الإسلام ورفع رايته على الآنام».

لذلك صبغت الدولة شعباً وسلطاناً أو خليفة، حكومة وجيشاً وتشريعاً وثقافة، نهجاً وضميراً، هدفاً ورسالة، بصبغة إسلامية خالصة منذ النشأة وعلى مدى سبعة قرون!!

والفكرة الإسلامية، كوطن وملة وجنسية وتاريخ، كانت هي الكيان الأساسي للأمة والفرد، حية في الذات، ملهمة لغالبية النشاطات، في حضور يقظ مقيم.

فالسلاطين العثمانيون أنفسهم لا يذكون نسباً إلا نسبهم الإسلامي الصريح. فلئن كان آل عثمان أتراكاً جنساً وأرومة إلا أنهم ما كانوا أبداً ينتسبون إلى التركية أو الأتراك بالمعنى العرقي أو الجنسي أو القومي.

«لأن كلمة التركية كانت أصبحت - في عرف رجال الدولة وكتابها - مرادفة للعامية والبدائية، حتى أن بعض المؤرخين عندما يضطرون إلى ذكر كلمة الأتراك كانوا يردفونها بتعبير «بي إدراك» بمعنى: المحرومين من الإدراك»[1] .

.. زيادة في التأكيد على خلاصهم بالإسلام من كل الوشائج القبلية أو العرقية أو الشعوبية .. إنهم مسلمون وكفى!!

وأكد الأتراك العثمانيون أنهم لا ينتسبون إلا للإسلام وتراث الإسلام وحضارة المسلمين.

فعلى ضريح «أبي أيوب الأنصاري» بنى العثمانيون قبة أقاموا إلى جوارها مسجداً يبايع فيه السلاطين حيث يقلدون سيف «عثمان» من يد إمام مسجد «أبي أيوب».. البيعة في مسجد، والمسجد لأبي أيوب الصحابي، وأبو أيوب عربي، والذي يتقلد السيف تركي، وإمام مسجد يقلده إياه.

شعيرة انتماء لدين .. لا لجنس أو قوم، ووشائج مستمدة من آصرة العقيدة لا مصالح حيوانية يربطها سياج القطيع.

نعم أبو أيوب .. وليس جنكيزخان!!

وعلى مسجد «السلطان الفاتح» تقرأ حديث رسول الله ﷺ الذي يبشر بالفتح ويبارك قائد النصر ويثني على المجاهدين: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

وكان الوطن عندهم هو كل أرض يسكنها المسلمون، وكلمة الملة» تعني الأمة والدين معاً، وذلك كان هدف العملية التربوية في جميع المدارس والجامعات والمعاهد، تصاغ به نفوس الناشئة منذ بداية تعليمهم في الكتاتيب.

---

(١) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية - دار العلم للملايين - بيروت ص١٣٤..

وجميع المسلمين كانوا يسجلون في دوائر النفوس - سجلات المواليد - وفي التذاكر العثمانية -بطاقات الهوية- كمسلمين فحسب، دون أن يذكر إلى جانب ذلك فيما إذا كانوا من الأتراك أو من العرب أو من الشراكسة أو الألبان أو الأكراد. إن ما يهم الدولة كان ينحصر في ملتهم، في ديانتهم .. إنهم مسلمون وكفى!! وما كانت الدولة تشعر بأي حاجة لأن تعرف عنهم شيئاً أكثر من ذلك[١].

واللغة نفسها عند الأتراك ما كانت تسمى أبداً بالتركية، بل تدعى العثمانية. أي اللغة التي أسهمت في تكوينها لغات المسلمين الرئيسية كالعربية والفارسية والأوردية والتركية. فروافد هذه اللغة الإسلامية المشتركة تنبع من مصادر فارسية أو عربية أو تركية في المفردات والقواعد والصرف والعروض والأوزان والتراكيب والصياغة.

وذات يوم شكلت اللغة العربية أكثر من ستين في المائة من اللغة العثمانية كما أن اللغة الفارسية الحديثة - والتي كانت ضمن روافد العثمانية - مكونة فيما يزيد على نصفها من كلمات عربية الأصل والصرف.

واعتبر العثمانيون أي مقاتل مسلم جاهد في سبيل الله ميراثهم البطولي وخلفيتهم التاريخية، وإن تباينت الأنساب، وتباعدت الأزمان.

من ذلك .. الجندي «عبد الله البطأل» الذي استشهد في معركة أكرنيون في آسيا الصغرى عام ١٢٢ للهجرة، زمن الدولة الأموية والذي يقول عنه الطبري وهو يعلق على حوادث سنة ١٢٢هـ : «وفيها قتل عبد الله البطال في جماعة من المسلمين بأرض الروم»[٢] فيعتبره الترك العثمانيون بطلهم القومي!!

---

(١) راجع : ساطع الحصري - محاضرات في نشوء الفكرة القومية - ص١٣٤- ١٣٥.
(٢) تاريخ الطبري - الجزء الثاني - حوادث سنة ١٢٢هـ.

ويتحدث «فازلييف» عن وشيجة القرابة المستمدة من آصرة العقيدة ورابطة الجهاد: «فأصبح هذا البطل الإسلامي فيما بعد النموذج الحي التاريخي للبطل التركي القومي الأسطوري: «سيد بطال غازي» الذي لا يزال قبره يشاهد في إحدى القرى صوب اسكي شهر»[1] .

وبين «عبد الله البطال» العربي وقيام الدولة العثمانية ما يقرب من سبعمائة عام، بل إنه عندما حدثت معركة أكرينون -أيام الدولة الأموية- لم يكن الأتراك قد دخلوا بعد في حوزة الإسلام!!

ولا شك أن للأتراك بطولات جاهلية أيام الوثنية وهم وسط آسيا فيما وراء النهر. لكن الإسلام قطع ما بينها وبين الترك المسلمين، ليصبح فخر الترك وتاريخ الترك وأبطال الترك، نسب الإسلام، وتاريخ الإسلام، ومجاهدي المسلمين.

تشبث وارتباط بشجرة الإيمان، لا نبش أو حفر في تراث الذئب الأغبر عند قبائل الطوران!!

مساكين الأتراك!! ضيعوا قوميتهم التركية المحددة المعالم، وربما كان ذلك يعود إلى «تخلفهم»!! العرقي، فلم يبتكروا حكاية «حضارة السبعة آلاف عام» على الموال إياه الذي يريد أن يبعث إلينا من أجداث القرون الوثنية الغابرة «بطلنا»!! رمسيس!!. وبالمناسبة وعلى الطريقة -إياها- يذكرنا البعثيون بخرافة معركتنا القومية الخالدة بشيء يقال له «ذي قار» كبديل عن بدر واليرموك والقادسية والفسطاط وملا ذكرد وحطين وعين جالوت ورومللي حصار!!

أما الأدبيات العثمانية شعراً ونثراً ورواية، فالجنسية العثمانية هي الإسلامية والوطن العثماني هو دار الإسلام، والأمة هي الأمة الإسلامية، والتباهي بأمجاد المسلمين. وكل أشواقها واهتماماتها ووحيها من هذا الدين .. يقول ساطع الحصري: «إذا استعرضنا هذه الآثار الأدبية الحماسية، وجدنا

---

(١) فازلييف : بيزنطة والإسلام - ص٣٨٢.

أنها تتكلم على الدوام عن الوطن العثماني، وعن الأمة الإسلامية، وتتباهى بأمجاد العثمانيين ومفاخر المسلمين .. ولكنها ما كانت تنسب ذلك إلى القومية التركية، حتى أنها ما كانت تذكر كلمة : الترك والأتراك على الإطلاق.

مثلاً .. كل ما كتبه الشاعر المشهور «نامق كمال» - الذي يعتبر أبا الوطنية في العالم العثماني - كان يهدف على الدوام إلى استثارة روح الوطنية العثمانية، المبنية على الحمية الإسلامية.

كانت جميع كتاباته الشعرية والنثرية مشبوبة بحماسة خارقة للعادة تصدر من أعماق قلبه كأنها «حمم تندفع من فوهة بركان» --حسب تعبير أحد النقاد-، ولكنها كانت «عثمانية - إسلامية» خالية من كلمات: «الترك» و«الأتراك» و«التركية» بوجه عام.

ولإظهار نوع الوطنية التي كانت تختلج في فؤاد هذا الشاعر العظيم، أرى أن أصف لكم إحدى قصائده الوطنية المشهورة :

يبدأ الشاعر في وصف غادة حسناء، وصفاً دقيقاً رائعاً. وبعد الانتهاء من وصف جمالها الفتان، يتعرف إليها بغتة، ويصيح بحرقة قلب ظاهرة: «هذه أنت؟ أنت؟ أيتها الوطن الجميلة؟...»

ثم يخاطبها مستعطفاً وملحاً في وقت واحد:

«اذهبي.. أيتها الوطن ... تدثري بالسواد في الكعبة. ثم ابسطي إحدى ذراعيك إلى روضة النبي ومدي الثانية إلى المشهد في كربلاء.. واظهري على الكائنات على هذه الهيئة.. ولا ريب في أن الخالق نفسه يعشق هذه الهيئة..

ثم افتحي صدرك، وأخرجي منه[1] شهدائك، وانشريهم على الملأ. فقولي:

---

(١) في النص المنقول عن الحصري «منها» والأصح «منه».

«يارب .. هؤلاء هم الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم في سبيلك.. بينهم من كان استشهد في بدر، ومن كان استشهد في حنين»..

وبعد ذلك يطلب إليها أن تعدد رزايا المسلمين، وأن تتضرع إلى الله تعالى، أن يحمي المسلمين من كيد الأعداء، بحرمة هؤلاء الشهداء.

كل ما جاء في هذه القصيدة يدل دلالة واضحة على أن عواطف الشاعر ما كانت تفرق بين شهداء صدر الإسلام وبين شهداء الحروب العثمانية أبداً. إن جميع كتابات «نامق كمال» كانت على هذا الطراز: تمزج الوطنية العثمانية مع الحمية الإسلامية.

هذا .. والشاعر العظيم، «عبد الحق حامد» -الذي نشأ معاصراً لنامق كمال- أيضاً كان مثله: لا يفرق بين التاريخ العثماني وتاريخ الإسلام. إنه ألف عدّة روايات مسرحية كلها وطنية ومعظمها مستنبطة من تاريخ الأندلس: طارق ابن زياد، موسى بن نصير، زينب .. ويقول هذا الشاعر، في مقدمة إحدى هذه المسرحيات: «إنه رأى أن ينتخب موضوعات[1] مسرحياته من التاريخ القومي، لتبيان أمجاد الأجداد مما يدل دلالة قاطعة على أنه كان -في ذلك العهد- يعتبر تاريخ الأندلس تاريخاً قومياً بالنسبة إلى العثمانيين.

ذكرت هذين الشاعرين نظراً لمكانتهما العظمى، ولكنني أؤكد أن جميع الكتابات الوطنية التي كانت تصدر عن أقلام الكتاب والشعراء، كانت على هذا النمط: تتكلم عن الوطن العثماني وعن الأمة الإسلامية بوجه عام، ولكنها لا تقول شيئاً عن الأتراك بوجه خاص[2] .

ولأن النموذج الفريد الذي أعطاه العثمانيون من خلال فكرة«الملة» و«الدين» قد حقق النهضة جديدة على طراز جديد يختلف عن سائر النماذج القومية

---

(١) ذكر الحصري كلمة «مواضيع» والأصح «موضوعات».
(٢) الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية.

أو الوطنية التي عاصرت نشأة الدولة العثمانية، فإن «كاهن» العروبية، وأستاذ «الفكرة القومية» قد فشل في صب الدولة العثمانية في قالبه القومي، فلم يملك إلا أن يقر ويعترف في كتابه «محاضرات في نشوء الفكرة القومية» بالهوية الإسلامية للدولة العلية في إعلان صريح :

«كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية بكل معنى الكلمة، كان الأوربيون يسمونها «تركيا» ولكنها هي نفسها ما كانت تتلقب بلقب التركية أبداً».

وكان سلاطينها يلقبون بكثير من الألقاب والنعوت الطنانة مثل: سلطان الغزاة، والمجاهدين، وخاقان البرين والبحرين، وخادم الحرمين الشريفين، وخليفة المسلمين. ولكن بين جميع هذه الألقاب والنعوت ما كانت تذكر كلمة «الترك» بصورة من الصور، وعن الجيش العثماني المكرس للفكرة الإسلامية يقول الحصري:

«إن أفراد هذا الجيش ما كانوا يعرفون شيئاً عن أصولهم، ولا يرتبطون بأسرة غير أسرة الجيش الذي ينتمون إليه، ولا يطمحون إلى شيء غير الحرب والجهاد في سبيل الله، وبتعبير أقصر: إنهم كانوا يعدون للحياة العسكرية العنيفة، منذ نعومة أظفارهم، إعداداً دقيقاً، كاملاً.

والفتوحات العثمانية التي امتدت في القارة الأوربية حتى فيينا تمت جميعها[١] على يد هذا الجيش الذي كان يتألف على هذه الصورة، ويتدرب على هذه الطريقة.

ومن المعلوم أن هذه الفتوحات أثارت -منذ البداية- مخاوف بعض الدول النصرانية في أوروبا، وحملتها على تأليف «جيوش صليبية» لمحاربة العثمانيين ولوقف[٢] انتشار الإسلام في تلك الديار.

---

(١) في النص المنقول عن الحصري «بأجمعها» والأدق «جميعها».
(٢) وكتب «لتوقيف» وصحة اللفظ «لوقف».

إن تغلب العثمانيين على أمثال هذه الجيوش الصليبية، كان يرفع مكانتهم في العالم الإسلامي بطبيعة الحال.

وكانت جيوش الدولة تخوض الحروب بحمية دينية شديدة وكانت عبارة: «إما غاز[1] وإما شهيد» من الكلمات التي تتكرر على الألسن في جميع الأوساط عند التكلم عن السفر إلى ميادين الحرب والقتال».

وعن فرحة العالم الإسلامي بنصر الدولة يقول:

«وكلما كانت تفتح مدينة من المدن البيزنطية كانت تتلقى من سائر أمراء المسلمين رسائل التهاني والتبريك، لأنهم كانوا يعتبرون هذه الفتوحات بمثابة «توسيع حوزة الإسلام ونشر رايته بين الآنام» وهذه الحالة أصبحت أكثر بروزاً للعيان، بعدما اجتازت الجيوش العثمانية الدردنيل ورسخت أقدامها في تلك الناحية من القارة الأوروبية.

لأنها عندئذ دخلت بلاداً تعتبر كلها «دار حرب وجهاد» حسب التعبير الذي اصطلح عليه فقهاء الإسلام».

وعن وحدة التاريخ الإسلامي يقول:

«وكان الكتاب والمؤرخون يعتبرون التاريخ العثماني جزءاً متمماً لتاريخ الإسلام، وكانوا ينظرون إلى السلاطين العثمانيين كأخلاف للخلفاء الأقدمين - من الراشدين الأمويين فالعباسيين - وحتى عندما دخلت الدولة فيما يسمى بعهد التنظيمات ظلت الدولة إسلامية تماماً».

يقول الحصري: «واستمرت الأحوال على هذا المنوال، حتى في العهد الذي عرف في التاريخ العثماني باسم «عهد التنظيمات».

---

(١) كتبت كلمة «غازي» هكذا دون حذف الياء.

ومن المعلـوم أن الدولة العثمانية، دخلت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر - ولا سيما في الثلث الأخير من ذلك القرن - في طور إصلاحات واسعة النطاق: قامت الدولة في هذا العهد - الذي عرف باسم عهد التنظيمات - بإصلاحات إدارية وقضائية ومالية وسياسية شاملة، على أساس الاقتداء بالغرب، واقتباس النظم والأساليب العصرية من الغرب.

وقد اقترنت هذه التنظيمات الحكومية، بتطورات هامة في ميادين العلم والأدب أيضاً.

إلا أن الدولة العثمانية لم تتخل عن صفتها الأساسية حتى في هذا العهد أيضاً، وبقيت دولة عثمانية إسلامية بكل معنى الكلمة».

ويخلص الحصري بعد حديث طويل عن الصبغة الإسلامية للدولة إلى قوله:

«ويظهر من كل ما تقدم، أن كل شيء في السلطنة العثمانية كان ينعت تارة بالعثمانية وطوراً بالإسلامية. ولكنه ما كان ينسب إلى التركية أبداً. وأما فكرة القومية التركية، بمعناها المتميز عن العثمانية وعن الإسلامية على حد سواء. فما كانت تجول لا في خواطر رجال الدولة ومنوري الأمة، ولا في أذهان سواد الشعب وعوام الناس».

وقوله: «يظهر من كل ما ذكرته آنفاً: أن الأتراك العثمانيين كانوا -حكومة وشعباً- مرتبطين بفكرة «الوطنية العثمانية الإسلامية» ارتباطاً شديداً وبعيدين عن الشعور بالقومية التركية بعداً كبيراً.

والأحوال استمرت على هذا المنوال، حتى أواخر القرن التاسع عشر، بل حتى أواخر العقد الأول من القرن العشرين»[1] .

أي حتى عهد الردة الطورانية منذ الانقلاب اليهودي الماسوني!!

---

(١) راجع : محاضرات في نشوء الفكرة القومية - ص١٢٩ - ١٤٠.

وعن الأهداف الإسلامية للدولة العثمانية يقول أمين شاكر وسعيد العريان ومحمد عطا في كتابهم «تركيا والسياسة العربية»[1] :

«ولقد حققت الامبراطورية العثمانية إلى عهد سليمان الكبير آمالاً عظيمة كان يستهدفها العرب والمسلمون منذ تسعة قرون برفع الراية المحمدية على قلاع كثيرة من العواصم الكبرى في أوروبا وإخضاع كثير من الممالك والإمارات للحكومة الإسلامية وأخذ ظل الإسلام يمتد حتى أوشكت جيوش المسلمين في شرق أوروبا وغربها أن تلتقي في الأرض الكبيرة».

ويسترجع البروفسور مهندس «نجم الدين أربكان» زعيم «حزب السلامة الوطني» في تركيا رجع صدى الماضي الإسلامي الغالي الذي مثلته الدولة العثمانية الإسلامية -الدولة الجامعة لوحدة المسلمين- التي جاهدت تحت رايتها الإسلامية ولا راية سواها- للدفاع عن عالمها الإسلامي في مساحة هائلة امتدت من أندونيسيا في أقصى الشرق وحتى جبال الشطوط على شاطئ المحيط الأطلسي في أقصى المغرب !!

وننقل عن مجلة المجتمع الكويتية الخطاب الذي ألقاه زعيم «حزب السلامة الوطني» بمناسبة انعقاد المؤتمر الإسلامي السابع لوزراء خارجية الدول الإسلامية في استانبول ليلة الجمعة ١٣ جمادي الأولى ١٣٩٦هـ (الموافق ١٣ مايو ١٩٧٦م):

يقول القائد المسلم الذي يجاهد في سبيل بعث إسلامي وسط غابة الماسون والكمالين وعملاء اليهود الذين يحكمون تركيا بالتناوب .. من حزب الشعب إلى حزب العدالة .. من «ديميريل» إلى «إيجيفيت» :

---

(١) تركيا والسياسة العربية دار المعارف ص٢٧.

«بسم الله الرحمن الرحيم ..

أرحب بكم جميعاً وأحييكم تحية المحبة والاحترام كممثلين عن العالم الإسلامي الكبير الذي يقطنه ما يقارب المليار من المسلمين، وأحمد الله عزّ وجلّ الذي جمعنا في هذه الليلة المباركة - ليلة الجمعة العظيمة - وفي هذا المكان التاريخي العريق .. إن هذا القصر الذي شاء الله أن يعقد فيه هذا المؤتمر الإسلامي الكبير .. وقد نقشت على بابه كلمة الإسلام الجامعة: «لا إله إلا الله» .. هو قصر السلطان محمد الفاتح الذي بناه عقب فتح استانبول .. كيف لا يكون هذا المكان تاريخياً وفيه كانت تدبر شئون العالم الإسلامي ردحاً من الزمن؟ وكيف لا يكون تاريخياً ومنه كانت تنطلق جيوش المسلمين إلى جميع أنحاء الدنيا. مجاهدة في سبيل الله، تنشر النور والهداية والعدل أينما حلت وحيثما ضربت .. كيف لا يكون تاريخياً وفوق هذا الحجر الذي يرتكز عليه الميكرفون كانت تنصب رايات الجيوش الإسلامية، المنطلقة للذب عن ديار المسلمين جميعاً .. وأذكر على سبيل المثال لا الحصر: أن قرار إرسال الأسطول الإسلامي للحيلولة دون وقوع كل من أندونيسيا والفلبين في براثن الاستعمار الهولندي اتخذ في هذا المكان، وفيه أيضاً اتخذت قرارات إرسال الجيوش والأساطيل الإسلامية لحماية شمال إفريقيا من الغزاة الطامعين..

وفوق هذا كله فإن هذا البناء التاريخي يضم بين جدرانه لواء الرسول الأعظم ﷺ وبردته المباركة وسيوفه وكثيراً من آثاره الشريفة.

أيها الأخوة الكرام ..

إن الآمال العريضة لتداعب نفسي، وأنا أخاطبكم معبراً عما يجيش في صدري .. أخاطبكم وقد اختلط الأمل بالاعتزاز والفخر .. كيف لا وقد اجتمع ممثلو خمسين دولة إسلامية في هذا المكان الذي كان مركزاً للدولة الإسلامية الكبرى يوم كانت تنتظم كل هذه الدول الخمسين في دولة إسلامية واحدة.

لذا .. فإننا بالتقائنا في هذا المكان التاريخي أكدنا تساندنا وتضامننا، وعليه فإنه من أوجب الواجبات أن نعمل جادين على توحيد كلمتنا واستعادة قوتنا لكي نتمكن من استلام راية القيادة من جديد .. عندها فقط نخلص العالم من المظالم والفساد وننشر نور الإسلام في كل أرجاء الدنيا.

أيها الأخوة الكرام ..

إن مدينة القدس الشريف إسلامية، وستعود إسلامية إن شاء الله بعد تخليصها من أيدي الصهاينة المعتدين -أعداء الله ورسوله- ومساهمة منا في قضية فلسطين الإسلامية أعلنت تركيا استعدادها التام لفتح مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في تركيا - كما أننا نستنكر المعاملة الوحشية التي يتعرض لها إخواننا مسلمو فلسطين، ونطالب بإعادة حقوقهم المغتصبة وإرجاعهم إلى ديارهم في أقرب وقت. ونستنكر أيضاً حرب الإبادة التي تشن ضد المسلمين في الفلبين وأرتيريا وكشمير وتراقيا الغربية وتركستان الشرقية وفي كل مكان في العالم يضطهد فيه المسلمون ..

أيها الأخوة الكرام..

إننا نطالب بأن نترجم أقوالنا هذه أفعالاً.. فنعمل على تطوير العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية بين سائر الدول الإسلامية كخطوة في طريق الوصول إلى وحدة العالم الإسلامي الكبير .. واعلموا أيها الأخوة الكرام أن الدول الإسلامية في غنى عن تقليد الدول الغربية الرأسمالية المستغلة وعن الشيوعية المضادة لطبيعة الإنسان وفطرته، ولذا لا بد من القيام بدراسات ثقافية واجتماعية وبحوث اقتصادية نابعة من صميم الشريعة الإسلامية لبناء مجتمعنا الإسلامي على أسس سليمة تحفظ له طابعه الإسلامي وشخصيته المتميزة.

وفي الختام .. أحمد الله سبحانه وتعالى الذي هيأ لنا أسباب هذا اللقاء المبارك لنتناول الحديث حول أمانينا المشتركة في ظل الأخوة في الله: ﴿ إِنَّمَا

الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وأحييكم جميعاً كممثلين عن الدول الإسلامية، راجياً لهذا المؤتمر الإسلامي وللدول الإسلامية كلها وللمسلمين جميعاً التوفيق والسداد ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ..

* * *

الباب الثاني

مزاعم وأباطيل ..

- الاستعمار التركي !؟
- قضية الوجود العربي .
- الأتراك متعصبون !!
- الفساد العثماني !!

الفصل الأول

الاستعمار التركي !!

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً
وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ..
(الأنبياء: ٩٢)

يقول القسيس «استيفان نيل Stephen Neill» في كتابه «تاريخ الإرساليات المسيحية A History of Christian Missions» نشر بنجوين ١٩٧١» :

"... and the Turks instead of Becoming allies of the Christian West, Became the Spreadhead of the new and most threateuing Islamic advance.." (p. 125)..

«.. والترك بدلاً من أن يصبحوا حلفاء الغرب المسيحي أصبحوا رأس الرمح للمد الإسلامي الجديد والأشد تهديداً» (ص١٢٥) .. ويقول:

"The First World war and The defeat of Turkey marked the end of the Muslim, dream of world domination. The Dar-ul-Islam, the world of Islam, had never fallen into such a low estate". (p. 478).

«إن الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا قد حددت نهاية الحلم الإسلامي بالسيادة على العالم. ولم تسقط دار الإسلام، عالم الإسلام، إلى مثل هذه المنزلة الوضيعة من قبل». (ص ٤٧٨).

أي أن الأتراك لم يخيبوا «عشم» الغرب المسيحي فيصبحوا حلفاءه فحسب -ربما لقرابة في الجنس والجوار- وإنما صاروا طلائع المد الإسلامي الجديد.. (بعد

أن رقد العرب إبان عصر الانحطاط). كذلك فإن ضياع تركيا في الحرب العالمية الأولى ضيع معه دار الإسلام .. هذه شهادة قسيس!!..

ومع ذلك يزعم تلاميذ الغزو الفكري أن الأتراك أضعفوا قوتنا وفتتوا وحدتنا وضيعوا استقلالنا يوم احتلونا وأخضعونا للتبعية العثمانية البغيضة، كأفظع أنواع الاستعمار الذي تعرضت له الأمة العربية! ... هكذا!!

وهذا زعم تافه رخيص تفاهة الببغاوات الدين رددوه مع أن ملقنيهم من حملة الحقد على الدولة العثمانية يعلمون باطله وزيفه فلا تجري به أقلامهم إنما يتركون للصبية دور زفر التزوير..

فلئن كانت عيون الصبية من رموز الهزيمة وبدائل الغزو تنكر ضوء الشمس من رمد العمالة والردة، فإن أساتذتهم من صليبيين ودونمة وماسون يستعلون أن يسقطوا في وهدة العمى، فينكرون حقائق التاريخ، مثل تلاميذهم الذين يمشون بيننا بأسماء إسلامية وشارات إسلامية، لكنهم مغربون عقلاً وضميراً ومشاعر وذوقاً، ويشكلون الطابور الخامس لإنجاز مهمات الردة ومن أبرزها تخريج المطايا والذيليين والأصفار.

فالصليبيون واليهود يعلمون أن الذي حفظ ديار العرب من الاحتلال وصد عنها الغزو الأوربي من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر هم العثمانيون وليس غيرهم. فهم الذين خلصوا موانئ العرب وشواطئ العرب من الاستعمار الأسباني والبرتغالي واستعادوها مرة أخرى عربية مسلمة. وهم الذين أوقفوا رايتهم الإسلامية على هذه البلاد فحسب كل الغزاة حساباً لخطر الاقتراب قرابة أربعة قرون.

فالعرب كانوا قد فقدوا صناعة الحرب منذ استنام خليفة بغداد في قصر «الدجلة» في أواخر العصر العباسي الثاني.

ويوم اجتاحت جحافل التتار ديار الإسلام من غزنة فيما وراء النهر وإلى البحر المتوسط لم تكن هناك دولة للعرب أو المسلمين.

والذي تبقى في بغداد لقب لا يتعدى سلطانه حدود «الأريكة» التي يجلس أو ينام عليها صاحب اللقب في قصر قد أفرغ من كل سلطة قادرة على صنع القرار .. أي قرار!!

الذي كان قائماً على امتداد الساحة الإسلامية كلها ليس دولة إنما أشباه دويلات هزيلة ومتكاثرة كخلايا السرطان، عديدة ومختلفة ومتناقضة، بل ومتصارعة، بقدر عدد البيوت الطامعة والمذاهب والشيع والنحل والأمراء والأفراد الأقوياء وشيوخ القبائل .. بل شراذم الأجناد!!

والذي حقق وحدة العرب أنفسهم، بعد انفراط عقدهم الجامع، في مرحلة أوشكوا فيها على التحلل الكامل - وجمعهم عرباً في إطار دولة مسلمة واحدة، كان الأتراك العثمانيون.

تاريخ أكيد وواضح يراه القسس والمبشرون الغربيون أنفسهم ولا تعمى عن رؤيته إلا عيون تلاميذهم وقد لطخها قذى التهجين والاغتراب.

ويشهد «مورد بيرجر» في كتابه "العالم العربي اليوم" ترجمة محيي الدين محمد - طبع في دار مجلة شعر - آب (أغسطس) ١٩٦٣:

«إن وحدة العالم العربي قد تحطمت في القرن التاسع .. والحكم العثماني فرض مقداراً عظيماً من الوحدة ابتداء من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر» (ص٣٤).

فالحكم العثماني إذن لم يفتت دولة عربية واحدة كانت قائمة تحكم في ديار العرب، ولم يمنع دولة أو وحدة عربية من المحيط إلى الخليج.. بل إنه هو الذي خلصها من غاصبي ثغورها، وأزاح عن جزئياتها ولاية الأجانب وأعاد تكوينها ودعمها وأسقط عنها التشرذم.

ويوم تركها - بعد أن أعياه الجهاد في سبيل بقائها - اغتصبها منه

صليبيو القرن العشرين، فسلموها لوكلائهم فيما بعد، عندما حان ميعاد تسليم مفاتيح القلعة للصبية من رموز الهزيمة وبدائل الغزو .. سلموها للفرعونية والحيادية والفينيقية والسريانية والبربرية والماسونية .. سلموها للإقامة والجوازات وتأشيرات الدخول .. سلموها لصراعات المحاور وتقاتل أعضاء الجامعة العربية بالدبابات والطائرات والصواريخ!!

وقد يتباهى رفاقنا القوميون بالفترة التي سبقت ظلام الغزو (!!) العثماني إبان عصر الدويلات..

لكنهم لا يستطيعون أن ينكروا أن الذين هزموا جحافل التتار والصليبيين يوم لم تكن للعرب دولة كانوا الأيوبيين والمماليك، وهم كما يعلم «عرقيونا» لم يكونوا عرباً من قحطان أو عدنان .. إنما كانوا من نفس العنصر التركي الذي ينتمي إليه العثمانيون الذين حملوا من بعدهم راية الجهاد .

فالسلاطين الذين استنفروا الأمة العربية وخططوا للحرب وقادوا جهاد المسلمين يومئذ، وقادة الجند وغالبية العسكر الفعال كانوا من جنس غير جنس العرب.

فصلاح الدين والصالح أيوب والكامل محمد وشجرة الدر والمظفر قطز والظاهر بيبرس والناصر قلاوون.. وغيرهم بالآلاف كانوا من العنصر الكردي أو من التركمان.

والمعارك الخالدة في حطين وعين جالوت والمنصورة ودمياط وحرض .. وغيرها كانت بالدرجة الأولى إسلامية .. الإسلام فيها الراية والغاية والباعث والطريق، والجنود مسلمون وإن جاءوا من وراء النهر وتباعدت بينهم الأنساب والديار.

أما أن العثمانيين قد ضيعوا استقلالنا فهي فرية بلقاء أخرى كفرية تفتيت الوحدة والضعف والاستعمار.

ترى هل كان العرب حقاً يحكمون أنفسهم بأنفسهم يوم جاءهم الغزو التركي الفظيع!!؟

مصر والشام والحجاز كان يحكمها المماليك قيادة وجيشاً وولاة، كشافاً وسناجق.

وفي العراق نفسها بقايا أمراء الأجناد من سلالة بني بوية أو الزنج أو القرامطة.

وأما المغرب العربي فلم يكن هناك شيء يقال له حكم عربي بعد انتهاء عصر الموحدين والمرابطين إلا إذا اعتبرنا حكومة أمير بني حفص في تونس تحت السيادة الأسبانية، حكومة عربية مستقلة ضرب العثمانيون استقلالها المهيب!!

ولنعد لدولة المماليك، وهي بالقطع، ليست عربية العرق أو الأرومة.

إنني أحد الذين يقدرون دور المماليك في الدفاع عن عالمنا الإسلامي وأنا فخور بجهادهم المجيد يوم ردوا عنا الغزوة التترية وأزاحوا بقايا الهجمة الصليبية.

وأنا - بالقطع - أكثر من «عرقيينا» حرصاً على تاريخ المماليك وآثارهم الباقية.

والقاهرة المسلمة -معي- شاهدة بأن رموزهم الخالدة فيها تعلن أن الإسلام كان في ضميرهم الحي وهم يبنون ويعلمون ويقاتلون من الموانئ حتى الأزقة والدروب، ولا زالت دماؤهم الزكية على البوابات الضخمة معلماً على أمانة الجهاد.

أنا جد فخور بجهادهم وهم يقاتلون بني جلدتهم من المغول والتتار.

لكن .. هل كان في وسعهم أن يواجهوا أوروبا الجديدة .. أوروبا القرن الخامس عشر أو السادس عشر، لا سيما أن الشيخوخة قد عملت عملها في أوصال الدولة والجند والمرافق، وضعف اقتصادها وتجارتها بعد تحويل الطريق إلى رأس الرجاء الصالح!؟

إن صليبيي عصر النهضة الآن في ثغور المغرب العربي وفي البحرين الأحمر والعربي والمحيط الهندي، بل في جدة ذاتها.

وأسطول المماليك حطمه البرتغاليون في معركة ديو -كما أسلفنا- قرب الشواطئ الهندية.

ما كانوا بالقطع على المواجهة قادرين!!

ثم ماذا كان موقف الدولة العثمانية منهم!!؟

لقد قدمت الدولة العثمانية لمصر زمن «السلطان الغوري» ثلاثين سفينة حربية بثلاثمائة مدفع محملة بالأخشاب، نجدة إسلامية لوجه الله، فيصادرها فرسان القديس يوحنا قراصنة البحر المتوسط فيرسل«السلطان سليم» العثماني مرة أخرى أربعمائة مدفع وطنين من البارود.

أكثر من هذا، أرسل قواداً عثمانيين، وخبراء عسكرين إلى الترسانة في مصر لبناء السفن الحربية .. بل وأرسل معهم القار والحديد.

ومع أن الحجاز كان ولاية مملوكية، والله سبحانه قد تكفّل بحمي الحرمين الشريفين، إلا أن العثمانيين قد أرسلوا أساطيلهم لتتاتل إلى جانب المماليك ضد أساطيل البرتغال لإنقاذ الديار المقدسة من دنس الاحتلال.

ثم إن «السلطان سليم» قد عرض بعد هزيمة «الغوري» في «مرج دابق»، على «طومان باي» أن يظل المماليك يحكمون مصر وتحقن دماء المسلمين، على أن يعترفوا له بالسيادة والعملة، وهي ليست إلا إعلاناً بأن تكون مصر في إطار وحدة إسلامية جامعة، لكن «طومان باي» رفض الموافقة بتحريض من مماليكه ذوي النظرة الضيقة.

وكان الخير كله أن أصبحت مصر ولاية عثمانية، أي: بدلاً من «طومان باي» المملوكي التركماني الضعيف، كان «سليم» العثماني التركماني الأعز والأقوى، سيد البحار وهازم الصليبيين وحامي ديار المسلمين.

فأي سيادة هنا قد ضاعت من بني «يعرب» من عدنان أو قحطان!؟ .. يالبرود صبية المبشرين!؟

* * *

لقد تغافل قاذفو الحقد - القائلون بالتبعية العثمانية - عن حقيقة أساسية هي حقيقة انتماء العرب للإسلام، فلقد كان الإسلام -ولازال- هوية الجماهير العربية وولاءها، فهو دين الأمة وضميرها وتاريخها، ولم يميز العرب المسلمون أبداً بين دينهم وقوميتهم، أي لم يقع في شعورهم -أبداً- ذلك الفصام اللئيم بين العروبة والإسلام.

فالإسلام عند العرب هو التاريخ والوطن والقوم، ومكوّن القيم بالإضافة إلى أنه دينهم ورسالتهم كذلك!!

إنه البناء الذي صيَّغ في داخله العرب أنفسهم من جديد. هو الذي «عرَّب» مصر والشام والعراق والسودان والصومال وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، وليس عامل آخر سواه.

ومن ثم كان الولاء للإسلام والانتماء إليه أقوى مليون مرة من أي نسب آخر مهما عزت الأنساب، لأنها كلها - وقد جب الإسلام ما قبله - روابط جاهلية سقطت تحت راية التوحيد.

ويعترف «مورو بيرجر» بهذه الحقيقة: في كتابه «العالم العربي اليوم»: «لم يميز العرب المسلمون بين ديانتهم وقوميتهم وظل هذا القران بين الدين والقومية قائماً حتى يومنا هذا. وقد قرر عميد سابق للجامعة الأمريكية ببيروت أن الطلبة اعتادوا أن يكتبوا في خانة الوطن عند تقدمهم بطلبات الالتحاق صفة «مسلم» أكثر مما اعتادوا أن يكتبوا: سوري أو فلسطيني، وهكذا..» (ص٢٢٠).

«وإن العربي مازال حساساً للغاية فيما يتصل بمشاعره بالنسبة للوحدة الدينية أكثر من إحساسه بالنسبة للأخوة العربية بشكلها العلماني، وإن الولاء للإسلام يبقى الحس السائد للهوية والوحدة بالنسبة للغالبية العظمى من عامة الناس في المدن أو القرى» (ص٢٧٧).

نعم الوحدة الإسلامية أقوى من حكاية القومية العربية.

نعم كان القران بين العروبة والإسلام قائماً قبل الترك ومع الترك وبعدهم وإلى يوم الناس هذا. وأما التعارض الوهمي بين العروبة والإسلام فهو تعارض مفترض في ذهنية القوميين ذوي الولاء العلماني!!

ويوم جاء العثمانيون لم يكن هناك كاهن كـ«الحصري» أو «الرزاز» أو «الريماوي» أو «جورج حبش» يجري الطلاق لهذا القران..

كانت أخوة إسلامية تلك التي جمعت بين العرب والترك في دولة واحدة ولم تكن استعماراً غاشماً خضع له العرب الأحرار!!

ذلك أن الرابطة في الإسلام هي آصرة الأخوة المستمدة من العقيدة وحدها لا على مثل ما تتجمع البهائم في الكلأ والمرعى والسياج والقطيع.

ودار الإسلام أو الوطن الإسلامي هي كل أرض يقطنها المسلمون وترفرف عليها راية الإسلام.

ومن هنا كانت فكرة «الأمة الإسلامية» عقيدة دينية وشهادة تاريخ من قبل أن يأتي الترك ويوم جاء الترك وستبقى حتى آخر لحظة في عمر المسلم، يوم يرث الله الأرض ومن عليها.

ويشهد على ذلك الخواجات أيضاً!!

ينقل الدكتور محمود كامل عن «فلوري ومانتران Flory et Mantran» من كتابهما: (Les Regimes Politiques des Pays Arabes) قولهما:

«إن مبدأ الأمة الإسلامية الشاملة لكل المسلمين لا يزال باقياً مستقراً بين الشعب - أي الشعب العربي في مصر وفي غيرها من البلاد العربية - وأنه ما دام الانتماء الحقيقي إلى الوطن لا يزال حتى اليوم -في الوضع الحالي- هو ذلك الانتماء الذي يضيفه الإسلام، فليس هناك ما يدعو إلى الدهشة إذا استمر الشعب -أي الشعب العربي الإسلامي- محتفظاً بالخصائص الأساسية لفكرة «الأمة الإسلامية» الشاملة ومبدياً - على الأخص تلاحماً عميقاً مع بقية المسلمين في البلاد الأخرى (أي غير العربية)، وهذا الشعب الذي لا يزال في حقيقته جزءاً من الأمة الإسلامية الشاملة، والذي ينتمي إليها المسلمون الآخرون (أي غير العرب) ليس لديه ما يدعوه إلى أن ينفصل عن هذه الأسرة أو يفترق عن بقية المنتمين إلى هذه الأمة، والخلافات في الرأي بين الشعوب الإسلامية -وبينها العربية- ليست إلا خلافات عارضة مؤقتة وثانوية..»[١] .

وإذا كان جمال عبد الناصر قد قال في الميثاق: «إن الشعب المصري كان ضد عوامل الضعف والتفتت التي فرضتها الخلافة العثمانية استعماراً ورجعية» و«أن الشعب المصري يرفض الاستعمار العثماني المقنع باسم الخلافة»[٢] .

فإنه هو نفسه -جمال عبد الناصر- الذي قال في مقدمته لكتاب «تركيا والسياسة العربية»: «مهما يكن الأمر بيننا وبين تركيا، في الماضي أو في الحاضر، فهي مِنا ونحن منها، كان أبونا وأبوها أخوين في التاريخ، تشاركا في سراء الحياة وضرائها، وتقلبا معاً في نعماها وفي بؤسها، وحاربا جنباً إلى جنب في ميدان واحد قروناً عدة لنصرة المثل العليا، وحين تألبت قوى البغي والعدوان لتزحزحنا عن مكاننا في التاريخ، كانت تركيا هي «الهدف الأول» لكل رام من أهل البغي والعدوان وكنا نحن من ورائها..

---

(١) الإسلام والعروبة - د. محمود كامل - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ص١٧٨.
(٢) الميثاق - الباب الثالث ص١٨.

وطننا ووطنها قطعتان من هذا الشرق العربي، فهي دولة من آسيا، وإن كان وجهها لأوروبا!

ولغتنا ولغتها لفظان في «قاموس» مشترك فهي كلام من كلامنا وإن كتبت باللاتينية!

وقرآننا وقرآنها واحد، نزل به الوحي الأمين على محمد في مكة والمدينة، وفسره مفسره في بغداد والشام ومصر، وكتبه كاتبه بقلم النسخ في استنبول وما يزال يتلوه بلساننا، أو بلسان غير لساننا، قراء مسلمون في أطنة، وفي أنقرة، وفي ديار بكر، وفي أزمير..

وماضينا وماضيها فصلان من كتاب واحد في تاريخ العرب والإسلام بدأ وبدأنا معه في بخارى وتبريز، وسار وسايرناه إلى بغداد والموصل، وأوى وأوينا إلى جواره في سهول الأناضول، وتفيأ ظل أسوار القسطنطينية، وتفيأنا معه ظلها ضيوفاً على أبي أيوب، ويوم وطئت أقدام الترك أرض أوروبا لتقيم إمبراطورية عثمانية على أنقاض إمبراطورية قسطنطين، كان شعار المحاربين من العرب والترك يومئذ واحداً على كل لسان، هو «اللّه أكبر» يهتف به المصلون في «أيا صوفيا» فيتردد صداه على مآذن المسجد الأموي بدمشق، والجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع الزيتونة في القيروان، ومساجد أخرى في بغداد والكوفة وصنعاء، وفي غرناطة، وفاس وعلى شاطئ المحيط الأطلسي..

ثم كانت محنتنا القريبة ومحنة تركيا على يد عدو واحد مشترك، نظر إلينا جميعاً نظرة العدو فلم يفرق بين عربي وتركي، فإذا جيوشه تطأ بلادنا وبلاد الترك، وإذا احتلاله يجثم على صدورنا وصدور الترك، وإذا المستعمر في أزمير، والمستعمر في دمشق، والمستعمر في القاهرة، يتداعون جميعاً إلى مائدة مشتركة من طعامنا وشرابنا، والعرب والترك واقفون جميعاً وراء الأبواب لا يؤذن لهم في الدخول!

ونحن إلى كل ذلك أنسباء وأقرباء وأصهار، ففي كل دار من دور العرب على اتساع بلادهم عربي يمت إلى الترك بخئولة، وفي كل دار من دور الترك برغم اعتزالهم في ديارهم تركي يمت إلى العرب بعمومة، فقد اختلطنا نسباً وصهراً ومواريث ثابتة ومنقولة، وإن قامت بيننا الحدود والسدود والأسلاك الشائكة!

ونحن اليوم من تركيا كما كنا في الماضي، أخوة مخلصون لأخت خالصة العرق والنسب، فرقت بينها وبينهم الأيام التي لا تبقي على شمل مجتمع، ولكن في قلبها –على البعد– حنين الأخت البرة، وفي قلوب إخوتها إليها مثل ذلك الحنين...

وطننا ووطنها قطعتان من «منطقة الشرق الأوسط» التي تُرسم لها الخطط وتدبر التدابير..

وبحرنا وبحرها هو هذا البحر المتوسط الذي تنعقد على شواطئه أسواق المساومات الدولية ويتربص الأصدقاء والخصوم..

ومضايقنا ومضايقها على البحرين الأسود والأبيض هي مفتاح الأمان والسلام للبشرية، أو معبر لقوات الهدم والخراب والتدمير..

ومواردنا ومواردها هي الكنز الذي يتقاتل على الظفر به الأقوياء المتنافسون في الشرق الداني وفي الغرب البعيد..

والشر الذي يتربص بتركيا اليوم على حدودها القريبة، هو الشر الذي يتربص بنا، وإن تودد المتربصون إلينا وإليها تودد الجار والصديق!

وإذا سلمت تركيا سلمنا، وإذا نحن كنا من القوة بحيث يحسب العدو حسابنا فقد سلمت تركيا، فنحن لها الدرع الواقية وهي في موقفها بإزاء العدو درع لنا، فقد اتحدت مصايرنا إذن على الحالين وارتبطت أواصرنا، وهي الأخوة في البأساء والنعمة، في الحاضر كما كانت في الماضي. وكما لا بد أن تظل أبداً..

الشعب التركي يؤمن بهذه الحقائق منذ كان، فلم يكفر بها يوماً وهي بعض إيمان الشعوب العربية..

ليت شعري ماذا يأمل الأعداء من حكوماتنا ومن ورائها مثل إيمان هذه الشعوب»؟[١] .

ولقد نقلت هذه المقدمة -على طولها- لأنها لرجل ظل طوال حياته حتى هلك، عدواً لدوداً للفكرة الإسلامية، يرميها بكل النعوت المنحطة، التي عشعشت في قاموس كلماته الظالمة الفاجرة العاهرة .. لرجل كان أداة التحالف الصهيوني الصليبي الاستعماري لضرب طلائع البعث الإسلامي في كل مكان وصلت إليه يداه الملوثتان!!

ترى هل كان الرئيس الأسبق لمصر -أو وكيل الغزاة في إدارتها- مصاباً بانفصام الشخصية، وهو يردد هاتين المقولتين المتناقضتين: «تفتت = وحدة، ضعف = حماية وقوة، واستعمار = أخوة».

أم أن كلاً من المقولتين كانتا للمناورة السياسية في حينها!! أو خضعتا لحالة نفسية بعينها!!؟

وهل يصبح تاريخ الأمم خاضعاً للمزاج النفسي أو المناورة السياسية أو حسب حالة الطقس العالمي!!؟

* * *

من منطلق «الأخوة الإسلامية» عقيدة، ومنهاجاً ومن صلب الإيمان وضروراته، ومن مبدأ الأمة الإسلامية الواحدة ديناً وتاريخاً، استقبلت الجماهير المسلمة على اتساع الساحة العربية كلها الحكم العثماني استقبالاً رائعاً يتفق مع أخوة العقيدة، في ظلال دولة قوية مرهوبة الجانب محررة لا غازية، موحدة لا محتلة، أصيلة لا دخيلة.

---

(١) مقدمة كتاب «تركيا والسياسة العربية» بقلم: جمال عبد الناصر - اخترنا لك ١٠ - دار المعارف - ١٩٥٥.

● ولم يعتبر العرب الدولة العثمانية دولة أجنبية بحال من الأحوال وتجلى ذلك في قبولهم الدولة الجديدة قبول طواعية، واندماجهم فيها اندماج مواطنة فاعلة لكونها دولة إسلامية، تدافع عن بيضة الإسلام تحت زعامة خليفة المسلمين حسب تعبيرهم المأثور.

● فالمسلمون العرب يدعون إلى الخدمة العسكرية أو الجهاد، فيشتركون في حروب الدولة ويساهمون في انتصاراتها، لأن حروبها مشروعة، وانتصاراتها نصر للإسلام والمسلمين.

● ويحترمون «السلطان العثماني» احتراماً دينياً خالصاً، ويرتبطون به بأقدس الروابط وأقدمها، ويدينون له بالولاء، والطاعة، ويضعونه في أعلى مكانة وأرفعها باعتباره خليفة المسلمين ورمز وحدتهم، يدعون له على المنابر، ويلبون دعوته للجهاد، راضين محتسبين، ويلوذون بحماه عندما يداهمهم الخطر، ويلتفون بأفئدتهم حول بابهم العالي المنيع.

● ويعترف العلماني «ساطع الحصري»، رغم كرهه الشديد للفكرة الإسلامية فيقول في كتابه «محاضرات في نشوء الفكرة القومية»: «كان العرب المسلمون ينظرون إلى التاريخ الإسلامي نظرة إسلامية خالصة .. فتاريخهم ليس تاريخ القوم العرب، وإنما تنحصر المفاخر والأمجاد فيما دوّنه تاريخ الإسلام، وعلى ذلك اعتبروا العثمانيين امتداداً طبيعياً للخلافة الإسلامية التي تسلسلت من الراشدين إلى الأمويين، والعباسيين فالعثمانيين، ولهذا السبب ما كان يرسم في أذهان هؤلاء صورة تاريخ يستحق التسمية باسم تاريخ الأمة العربية كما أن التاريخ العثماني ما كان يظهر لهم إلا بمظهر تتمة للتاريخ الإسلامي العام»، (صفحة ١٧٩).

أما ما قيل -وضخمه صبية المبشرين- من تجاوزات لبعض الملتزمين والعسكر، وأغلبهم كانوا من عناصر محلية، ربما تشترك مع الأتراك في لون

البشرة، فإن الجماهير العربية كانت تضعه في موضعه الصحيح، حس الجموع المرهف وغريزة البقاء فيها كانا يفرقان بين الظلم -على فرض حدوثه- في داخل الدولة المسلمة وبين الفناء في ذات الدخيل. ذلك أنه يمكنها أن تقوِّم المعوج وتقاوم الظلم وتبقى هي في النهاية مسلمة في ديار الإسلام. أما إذا أتاها الدخيل فسيفقدها كل كيانها فلا تكون.

وعلى أية حال: إن كل ما ردده تلاميذ الغزو الفكري من مقولات عن تجاوزات حدثت -وهي باعترافهم كانت محددودة، ومع بعض العناصر بعينها- فإنها لا ترقى إلى أي نسبة مئوية مما فعله حكامنا وثوارنا!! من بطش وقتل وهتك أعراض وسجون وسرقات، بعد ما يقارب القرن على رحيل أشقائنا الأتراك عن البلاد العربية!!

هذا باختصار شديد صورة مجملة عن موقف العرب تجاه الدولة العثمانية، وولائهم لها، وارتباطهم بها.. موقف مؤسس على الإيمان بوحدة التاريخ الإسلامي المشترك، وولاء مستمد من آصرة العقيدة وحدها، وارتباط نابع من ضمير الأخوة الإسلامية، ومشاعرها الغلابة.

واستمر الحال على هذا المنوال طوال أربعة قرون.

استمر الحال حتى في عهد حكومة الانقلاب اليهودي المسماة حكومة «الاتحاد والترقي»، رغم علمهم أن الحاكمين في استنبول ليسوا إلا اليهود والدونمة والماسون والمرتدين وإفرازات مراكز التبشير، ودعاة الطورانية وجواسيس الألمان والإنجليز وعصابات منظمة النهيلست اليهودية الدولية التي مهدت للانقلاب وأرضعت الانقلابيين سمها الزعاف.

فالرابطة الإسلامية التي جمعت الترك والعرب في أخوة إسلامية جامعة وضمن دولة واحدة دامت أربعة قرون لا يمكن وضعها في كفة ميزان، يقابلها سلوك أعضاء تركيا الفتاة المهزومين.

ولم يدم حكم هؤلاء المشبوهين سوى بضع سنوات.. منذ خروج السلطان عبد الحميد -رحمه الله- من سدة الحكم في ١٩٠٩م وحتى تحطمهم وضياعهم -وقد أضاعوا الدولة معهم- بقيام الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤.

ويشهد على تلك الفترة الماسوني «محمد رفعت» في كتابه «التوجه السياسي للفكرة العربية الحديثة» (دار المعارف) فيقول:

«وكان العرب قد أفادوا من تمرسهم بالسياسة ووقفوا على كثير مما كمن من أسرارها، فقرروا بصفة عامة ألا يواجهوا الرأي العام العربي بإعلان خروجهم على دولة الخلافة الإسلامية .. وعلى ذلك حددوا مطالبهم بالاستقلال الذاتي أو الداخلي، مكتفين بمساواتهم بالأتراك في الحقوق العامة وبقائهم تحت راية الخلافة الإسلامية. فقد كانوا يعلمون حق العلم أن العالم العربي لم يكن ليرضى أن يخرج مسلم على دولة الخلافة، وأن الذين يحاولون ذلك، لا بد أن يبوؤا بالخسران، وقد يدمغهم الناس بمسمى الزيغ والكفران» (صفحة ٩٨).

هذه شهادة واحد من ألد أعداء الفكرة الإسلامية القائلين بالطغيان التركي وظلام الغزو العثماني!! الخ.. واحد ظل فترة طويلة رئيساً للمحفل الماسوني اليهودي في شارع عدلي، وبغض النظر عن عدم توفيقه في اختيار الألفاظ وتعهيره للكلمات، كقوله : «وكان العرب قد أفادوا من تمرسهم بالسياسة .. فقرروا ألا يواجهوا الرأي العام العربي!!. فقد كانوا -أي العرب- يعلمون أن الرأي العام العربي ...»!!

فإنه قد حدد بصراحة تامة من هم العرب الذين قرروا ألا يواجهوا الرأي العام العربي.. بديهي أنه يقصد العرب الأولين تلك الشرذمة أو بضعة الأنفار ممن تزعموا النبتة الخبيثة المسماة بالعروبية. التي رضعت من الماسونية وتتلمذ سدنتها على أيدي المبشرين في الكلية اليسوعية في بيروت وأوكار الجزويت في زحلة ودمشق، وإخوان الصداقة وسان جوزيف وكلية القديس يوسف وكلية يسوع

والجمعية الماسونية السرية وفروعها في دمشق وطرابلس وصيدا.. ووجدت أسماؤهم في قنصليات بريطانيا وفرنسا في دمشق والقاهرة كطابور خامس مكلف بإنجاز مهمات الردة .. وسطاء الهزيمة الذين مهدوا للغزو العسكري. أما الرأي العام العربي فهو كل الجماهير العربية المسلمة على امتداد الساحة العربية كلها التي ارتبطت بدولة الخلافة العثمانية الإسلامية وتمسكت بها في أحلك الظروف..

ويتحدث البعثي القومي العلماني الملحد «عبد الله الريماي» في كتابه المسمى «المنطق الثوري للحركة العربية الحديثة» - دار المعرفة ١٩٦١- صفحة (٢١٥) فيقول بالنص : «.. كان للخليفة العثماني ولاء في بعض أجزاء الوطن العربي وعلى الأخص في مصر وأقطار المغرب العربي التي كانت تتطلع نحو الخلافة العثمانية لمساعدتها في نضالها ضد الإنكليز والفرنسيين»..

هذه كلمات واحد من القائلين بالاستعمار التركي المزعوم!! لكن ماذا عن بقية أجزاء الوطن العربي.. أي المشرق العربي؟..

لقد كان المشرق العربي -وكما ينبغي أن يكون- يدين بالولاء لدولة الخلافة الإسلامية مثله تماماً مثل أقطار المغرب العربي. وظلت الرابطة الوثقى باقية على مدى أربعة قرون ولم يستطع صبية المبشرين أو جواسيس اليهود المسمون بالماسون، على كثرة جمعياتهم أو أوكارهم وقوة مخدوميهم الذين يحركونهم من وراء الحدود، أن يفصموا هذه العلاقة العقائدية التي ربطت بين الترك والعرب بالنسب الإسلامي الوشيج.

حتى عندما تحرك «حسين بن علي» المسمى شريف مكة!! مع العميل الإنجليزي المزدوج «لورانس» وشرذمة المجندين في الطابور الخامس الذي تمرد على الدولة الإسلامية أثناء الحرب الأولى فيما سمي بالثورة العربية الكبرى!! كانت الجماهير العربية المسلمة تضع هذا التمرد المؤامرة في موضعه الصحيح من

دفتر الخيانة الوبئ .. ذلك الدفتر الأسود الذي ضم بين دفتيه الكالحتين - ضمن من ضم- عملاء الحروب الصليبية المسمون بالنصيرين!!

فلقد كان ما يسمى بالثورة العربية على دولة الخلافة الإسلامية عنواناً سياسياً لا يعبر إلا عن حقيقة العملاء ودورهم المشبوه .. لقد كانت قلوب العرب وجهودهم مع تركيا .. مع خلافتها الإسلامية في تلك الحرب وعلى جميع الجبهات..

يقول «أمين شاكر وسعيد العريان ومحمد عطا في كتابهم «تركيا والسياسة العربية» (سلسلة اخترنا لك - دار المعارف) :

«على أن هذه الثورة العربية وإن اتخذت عنواناً ضخماً في تاريخ الحرب العالمية الأولى لم تكن تعبر عن الشعور العام للعرب في شتى ديارهم. فلقد كانت هناك مثلاً -مصر- وهي أكبر الدول العربية ولكنها لم تكن بين العرب الثائرين على تركيا ولم تنضم إلى أعدائها. بل لعلها بعواطفها وصلواتها وبكل ما تملك من إمكانيات مادية محدودة في ذلك الوقت (كانت مصر تحت الاحتلال والحماية الإنجليزية أثناء تلك الثورة والحرب العالمية الأولى) مع تركيا المسلمة شعوراً بالرابطة الدينية. بل إن عرب الشام والعراق والجزيرة كان بينهم كثيرون يميلون بقلوبهم إلى تركيا ويتطوعون للحرب معها ضد الحلفاء تغليباً لأخوة الإسلام على عدواة الجنس (عداوة الجنس هذه مبالغ فيها أو مجاراة للموضة من أصحاب الكتاب). فبقوة العشائر العراقية المتطوعة انتصر العثمانيون على الإنجليز في معركة «كوت العمارة» التي أسر فيها القائد البريطاني العام «الجنرال لوتشند» وأركان حربه وأسر نحو ثلاثين ألف جندي بريطاني، وبالكتائب العربية استطاع مصطفى كمال إفساد الهجوم البريطاني على الدردنيل وانتصاره في معركة «أنافورطة» وبالجنود الفلسطينيين والسوريين قاتل الجيش العثماني الإنجليز على ضفاف قناة السويس وأرغمهم على الاحتفاظ بقوات كبيرة في هذه المنطقة .

ولما ارتد الجيش العثماني منهزماً أمام جيوش الحلفاء في الشام كان العرب يضعون الطعام في أوعيته على أبواب بيوتهم ليتيحوا لإخوانهم المنهزمين وجبة ترد عليهم العافية وهم ينظرون إليهم من خصاص النوافذ آسفين محزونين» (صفحة ٩٠-٩١)

بل لقد تطوع كثيرون من العرب -مصريين وشوام ومغاربة وعراقيين ومن شبه الجزيرة العربية- للدفاع عن الأناضول التركي عشية انتهاء الحرب ووقوع تركيا فريسة الاحتلال ..

أليست بلاد الإسلام واحدة، والدفاع عن «دار الإسلام» فرض عين لا تجوز فيه التعلة بعورة البيوت وصغر البذور!! على الرغم من أنوف العملاء!!؟

حتى رجال الجيش الرسميون في البلاد الخاضعة للسيطرة البريطانية قاتلوا إلى جانب إخوانهم في الدين ولم يضعوا في حسابهم أن ينفذ فيهم حكم الإعدام رمياً بالرصاص ساعة القبض عليهم واتهامهم بالخيانة. لقد انضم رجال خفر السواحل المصريين إلى قوات الجيش الرابع التركي مع غيرهم من المتطوعين من باقي الأسلحة وإلى قوات السنوسيين في هجومهم على الجيش البريطاني من الغرب. حدث ذلك وهناك «سردار» إنجليزي للجيش المصري -أي قائد عام- والضباط الإنجليز يسيطرون على جميع القوات المسلحة و«قصر الدوبارة» يحكم مصر، والأحكام العرفية معلنة وكل شيء على أرض مصر. مواصلات وأموال وغلال وغيرها مسخر للحرب، سخره البريطانيون المحتلون ضد تركيا.

ويعترف «د. جلال يحيى» وهو أحد القائلين بالاستعمار التركي، والطغيان الحميدي!! في كتابه «الثورة العربية» (دار المعرفة) .. بالموقف الطبيعي للعالم الإسلامي تجاه دولة الخلافة وإزاء ما سمي «بالثورة العربية» فيقول :

«كانت آراء الجامعة الإسلامية تلقى قبولاً وتأييداً قلبياً من كل المسلمين .. كانت أكبر دليل على تقارب التفكير والشعور والوجدان بين شعوبها رغم اختلاف لغاتهم» (ص١٢٥-١٢٦).

«وكان السنوسي على صلات وثيقة مع تركيا وكان السنوسي على صلات أخرى مع سلطان دارفور في غرب السودان. ولم يكن في استطاعة السنوسي إلا أن ينضم للأتراك الذين ساعدوا بلاده في حربها ضد المحتل الأجنبي» (ص١٢٨).

«صدر بيان من هيئة العلماء يقضي بضرورة الجهاد والالتفاف حول الخلافة والدفاع عن البلاد الإسلامية. وصلت هذه المطبوعات إلى مصر والسودان والهند وإيران وأفغانستان وشارك في كتابتها كثير من المسلمين بل ومن العرب والمصريين أنفسهم مثل محمد فريد (عجيب!! كأن العرب والمصريين ليسوا مسلمين!!) وتلا ذلك حركة من الرجال الوطنيين الذين آمنوا بضرورة اتحاد العالم الإسلامي لمواجهة الخطر الأجنبي فانتشروا في كل الأقاليم الإسلامية..» (ص١٣٣-١٣٤)..

«كان معظم الهنود المسلمين يدينون بالطاعة والولاء للخلافة الإسلامية وأصبح المسلمون الهنود من المعادين لفكرة الثورة العربية واعتبروها ثورة على سلطة الإسلام وخطراً يهدد وحدته .. كان كل من السلطان «دينار» سلطان دارفور في غرب السودان «والسنوسي» من أنصار الفكرة الإسلامية» (ص١٧٥).

لقد كان ذلك موقف كل المسلمين عرباً وعجماً شيعة وسنّة تجاه ما سمي بالثورة العربية. ولقد أبلى الشيعة البلاء الحسن وكانت ثورتهم الإسلامية في مواجهة جيش الاحتلال الإنجليزي الذي جاء ليحل محل الأشقاء الأتراك المسلمين (السنّة) أكبر دليل على وحدة الهوية الإسلامية. ونحي الجدال حول من أحق بالخلافة: أبو بكر أم علي؟.. عن الفاضل والمفضول .. عن الإمامة إن كانت من صلب العقيدة تورث في اثنى عشر إماماً من بيت النبوة أم عن طريق الاختيار في اجتماع أهل العقد والحل .. نحيت جانباً ليحل محلها القاسم المشترك الأعظم في مواجهة من يكرهون علياً وأبا بكر معاً .. من أتوا لحرب المسلمين كمسلمين في ديار الإسلام الواحدة.

ويصف «أمين الريحاني» في كتابه «ملوك العرب» ثورة إخوتنا الشيعة في العراق ضد الإنجليز الذين جاءوا ليحلوا محل الدولة العثمانية فيقول :

«جاءت الكلمة من العلماء، وفي مقدمتهم كبير المجتهدين في النجف، فقامت العشائر ترددها وتعمل بها، فأرسلت روح التمرد في البلاد سمومها، فالتهمت الأخضر واليابس في المضارب وفي المدن، وعملاء الوكلاء السياسيون لبريطانيا إلى البرق والمسرة يطلبون النجدات من البصرة ومن العاصمة، إنه لأعجب ما حدث في العراق بعد الاحتلال الإنكليزي. ها هو ذا بلد لا صحافة فيه تذكر، ولا طرق مواصلات حديثة صالحة، ولا زعامة ظاهرة ولا قيادة، تعمه الثورة فتربط أطرافه بعضها ببعض في أقل من شهر، ثم تستمر أشهراً وهي تزداد قوة وهولاً، حتى إن العاصمة بغداد كادت تسقط في حوزة الثائرين .. قد أنفقت الحكومة البريطانية ملايين من «الليرات» وجاءت بألوف من الجنود لإخمادها، وكانت خسارة العراق كذلك كثيرة فادحة. هي ثورة شبيهة بزلزال هائل، لا بحادث اجتماعي شاذ، يدبره مع ذلك العقل والحكمة.. وعلى الرغم من الطائرات قد حاصر الثائرون كثيرين من الضباط والوكلاء السياسيين وهم في مراكزهم يدافعون عنها إلى أن تجيئهم النجدة أو يقتلوا .. استمرت الثورة سبعة أشهر، والعرب فيها فائزون على الرغم من المعاقل المشيدة و«المفاتيل» المهدومة.

إن من يعايش المسألة الشرقية بأبعادها الإسلامية قراءة مستنيرة ولو من باب الترف الفكري، وعياً بما كان، سيرفض -وبالفكر أيضاً- أن يشايع أباطيل الحصاد الأثيم التي أثمرتها نتيجة التصفية بفعل الغرس اللئيم.

وكما سيرفض أباطيل الأوضاع التي رتبت بعد إنهاء الدولة العثمانية، فإنه سيرفض كذلك أقاويل عاهرة يقذفها تلاميذ الغزو الفكري وصبية المبشرين والماسون عن علاقة الشعب العربي بالاستعمار التركي المزعوم!!

فليس صحيحاً أن الجماهير المسلمة في الحجاز ومصر والشام والعراق كانت

تفضل الملك جورج على الخليفة عبد الحميد!!

أيعقل -حتى ولو كان القول لـ«جلال يحيى أو محمد رفعت أو ساطع الحصري أو حازم زكي نسيبة أو الريماوي أو الرذاذ أو قسطنطين زريق» وغيرهم- أن يكون ملك النصارى بديلاً لخليفة المسلمين!!؟

إن عرب الحجاز لم يكونوا على دراية بما كان يجري بين حسين بن علي ومكماهون. ولا كانوا يعلمون أن ممثلهم في المبعوثان العثماني عبد الله بن الحسين يعرج إلى لندن للمؤامرة قبل الدخول إلى دار عثمان!!

لو علموا ذلك لأخلوا قصر شبرا في الطائف من ساكنيه ولألقوهم من فوق جبل الهدى إلى الهوة السحيقة في وادي فاطمة ليبتلعهم النسيان.

إن عربان الحسين بن علي ومن غرر بهم ليكونوا بطانة للخليفة العربي المزمع إنشاؤه ولصوص طريق «الحجاز - الشام» لا يمكن بحال أن يكونوا وجه الحجاز المسلم الأبي الأصيل..

لقد كان القران بين الدين والقومية .. بين الإسلام والعروبة قائماً -وكما هو الآن- ولم يكن بينهم كاهن مثل الحصري أو الريماوي أو شفيق المؤيد يفلسف وجودهم العلماني ويجري الطلاق.

إن اللصوص والمتزعمين والموارنة وعملاء القنصلية الفرنسية في دمشق وبيروت وجواسيس الإنجليز وراء الخطوط الحربية يقودهم لورانس أو فيصل بن حسين يقلبون قطار سكة حديد أو يغتالون جنوداً في الليل أو يسرقون طعاماً وذخيرة من معسكرات الجيش التركي.. ولا حتى الطلقة الوحيدة التي أطلقها شريف مكة من بندقيته الميزر من فوق سطح قصر الإمارة .. لا يمكن أن يقبلهم الضمير المسلم ولا حتى المؤرخ المنصف ثواراً كثورة عربية قيل إنها مثلت العرب في مواجهة الأتراك!!

أيصح -ولو من باب الكرامة القومية العربية العقلانية العلمية- إلى آخر هذه المعزوفة العصرية- أن تتهم الجماهير العربية المسلمة بأنها كانت ثائرة!! مع الإنجليز في فلسطين، تحارب معركة الصهيونية ونيابة عنها في أُولى القبلتين، تصفق للورد اللنبي وهو يمثل ضمير عالمه المسيحي غداة دخوله القدس معلناً في صراحة تامة انتهاء الحروب الصليبية!!؟

أيعقل أن الجماهير العربية المسلمة كانت تبارك فرسان القديس يوحنا -في زي جديد- وهم يعربدون في دمشق ويركلون بأقدامهم مثوى صلاح الدين يذكرونه بأنهم قد عادوا بعد ثمانية قرون على الرغم من حطين!!

كثير!! كثير!! .. بل فظيع!!..

* * *

الفصل الثاني

قضية الوجود العربي

«أكِلتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الأبْيَضُ»..

(مثل واقعي)

لقد تنافس صبية الاستعمار وبدائله في بلادنا قضية الوجود العربي ذاته..

إن الذي حفظ لديار العرب عروبتها وأرومتها هم العثمانيون وليس أحد غيرهم .. أعني في الأربعة قرون الماضية. فالبلاد التي فتحها الأتراك هي التي بقيت عربية العرق واللسان .. عربية الهوية والثقافة . ولولا الأتراك «المستعمرون»!! لانمحى هذا الوجود نفسه أو على أحسن الفروض دُنِّسَ وهُجِّنَ وسُرِقَ لسانه وفقد ذاته..

لقد اقترن الفتح العثماني لبلاد العرب بحركة الكشوف الأوربية والسيادة البرتغالية والأسبانية في البحار، والاستعمار المتحفز للانقضاض لما وراء البحار .. اقترن بالبعث العرقي الغربي والنعرة القومية المتنمرة للاستعلاء وإذابة غيرها والقضاء على الأجناس والشعوب.. فترة يعرفها أبسط دارس للتاريخ بأنها فترة القهر القومي والاستعلاء الجنسي وسرقة القارات والمحيطات.

ولولا الأتراك الأقوياء لكنا أثراً بعد عين كما فعل الأسبان بالفردوس المفقود أو على أحسن الفروض لكنا كبقايا الهنود الحمر في الأمريكتين، نستخدم للتسلية واللهو، نرقص وعلى رءوسنا ريش التعريف نزين حفلات الفلكلور!!

فالذين اكتشفوا الأمريكتين وكانوا طلائع غزوها، ويشكلون الآن كل سكان أمريكا اللاتينية هم أنفسهم الذين جاءوا لاكتشاف بلادنا وهم أنفسهم الذين صفّوا الوجود العربي في الأندلس.

والجنود العثمانيون وجهادهم الإسلامي بمدافعهم القوية وأساطيلهم الفتية هم

الذين أبقونا في ديارنا عرباً يوم طاردوا «مكتشفينا»!!، وصدوا عنا الغزاة وكانوا خط الدفاع الأول حين تألبت علينا قوى البغي والعدوان لتزحزحنا عن مكاننا في التاريخ .. كانت تركيا هي الهدف الأول وكنا نحن من ورائها.

والقول بأن ذلك ما كان ليحدث لأن الأوربيين تركونا عرباً كما كنا بعد أن سلموا مفاتيح القلعة لعملائهم في بلادنا، قول مردود.

ذلك أن الفتح العثماني - نعم الفتح العثماني - قد عطل الغزو الأوربي أربعة قرون.. وأساليب الاستعمار الأوربي القومي الاستيطاني في القرون الخوالي غيرها في منتصف القرن التاسع عشر أو القرن العشرين.. أساليب الاستعمار في منتصف القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر غيرها بالقطع في منتصف القرن التاسع عشر أو القرن العشرين القريب.

خذ الجزائر مثلاً..

فرنسها الاستعمار لساناً وثقافة وإدارة، وفرنس قياداتها المحلية، مضافاً إلى ذلك، ذوقاً ومشاعر وانتماء، حتى أن «عباس فرحات» كان يقول في الثلاثينات «أنا فرنسا»!!، ولا يستطيع «كاتب ياسين» أن يعبر بلسان كان لأهله يوماً ما عربياً مبيناً .. بل لا زال -وللأسف الشديد- الدكتور «أحمد طالب الإبراهيمي» يكتب بالفرنسية .

والذين ضموا الجزائر بحق السطو جزءاً من الوطن الفرنسي!! لم يستحوا، فيفرقوا بين فرنسا اللاتينية الأوربية المسيحية وبين الجزائر العربية الإفريقية المسلمة !!

تجربة الجزائر تقول: إن ضرب الإسلام يعني سقوط كل شيء.. فلا وطن ولا عروبة ولا أرومة .. لا شيء على الإطلاق إلا غربة الوجود الإنساني ذاته، وتؤكد أن راية الإسلام وحدها هي القادرة على استعادة كل شيء، وبعثه من جديد.

فعندما استولت فرنسا على الجزائر في غزوة همجية، صليبية الغاية والراية والحصاد، قوامها الدمج والفرنسة وتغريب الهوية .. دخلت قوات «روفيجو» مساجد الجزائر وحولت الجوامع الكبرى إلى كنائس دقت من فوق مآذنها السامقة أجراس الهوس المتعصب الأعمى وخنق صوت الأذان الحلو وهو ينادي على الجهاد، والجنود الصليبيون في داخل المساجد يقيمون القداس ويرتلون «نشيد الغفران» ويمجدون إله إسرائيل .. «يهوه رب الجنود»!!

يقول «كوليت وفرنسيس جانسون في كتابهما «الجزائر الثائرة» ترجمة محمد علي الشريف وزميليه» (دار الهلال ١٩٥٧) شاهدين على بني قومهما:

«ولعل العبث بالدين الإسلامي كان هو المجال المفضل لدى القائد روفيجو ليعيث فيه فساداً واستهتاراً فقد وقف هذا القائد الفاجر ونادى بين بني قومه بأنه يلزمه أجمل مسجد في المدينة ليجعل منه معبداً لإله المسيحيين وطلب من أعوانه إعداد ذلك في أقصر وقت ممكن وأشار لهم إلى جامع القشاوة لأنه كما قال «أجمل جوامع الجزائر طرزاً» وهو في وسط المدينة .. وبالفعل تحدد ظهر يوم ١٨ من ديسمبر ١٨٣٢ لإنجاز هذا العمل وتحقيق هذه الرغبة، ففي الميعاد المحدد تقدمت إحدى بطاريات الجيش وأخذت أهبتها للعمل .. وخرجت من بينها فرقة من سلاح المهندسين فهاجمت أبواب المسجد بالبلط والفئوس .. وإذا بداخل المسجد أربعة آلاف مسلم اعتصموا كلهم خلف المتاريس، فاندفعت نحوهم القوة العسكرية ودحرتهم بالسناكي فخروا صرعى وجرحى تحت أرجل الجنود واستمرت العملية طوال الليل حتى إذا كان الصباح كانت النظم قد تمت والقرارات قد صدرت وصار الجامع «كاتدرائية الجزائر» وما إن انتهى الجنود من هذا حتى داروا على أعقابهم صوب مسجد القصبة الغني بذكريات الإسلام وأيامه المجيدة فدخله القوات والضباط والجنود وأقاموا فيه شعائرهم الدينية حتى إذا انتهى القداس شرع القساوسة في تمجيد إله الجيوش وترتيل «نشيد الغفران»، وتزعم القسيس سوشيه طابوراً صليبياً آخر استولى على مسجد القصبة وعلى منبر

مسجد يقال له «المقدس» ينسب إلى النبي ﷺ لتلقى عليه عظاته .. وعلى هذا المنبر النفيس وقف سكرتير الحاكم «بوجو» ليقول: إن آخر أيام الإسلام قد ولت وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك على أي حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد. أما العرب فلن يكونوا ملكاً لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً» (صفحة ٤٠-٤١).

حقائق بسيطة يعرفها عامة الصليبيين وجماهير النصارى لكن الصبية عندنا غافلون عنها في عمى العميل!! حتى أن «أحمد مدغري» وزير داخلية الجزائر الهالك كان ينادي .. على طريقة «امسك حرامي» المكشوفة بالخلاص «من سرطان اسمه العروبة»!! قبل أن تعالجه رصاصة في أحد شوارع الجزائر العاصمة أخرسته للأبد.

لا إسلام .. فلا عروبة ولا يحزنون!!

نعم حافظ الترك على عروبتنا يوم حموا لنا إسلامنا..

ترى ماذا كان سيصبح عليه الحال لو احتلت فرنسا الجزائر في عام ١٥١٧ بدلاً من عام ١٨٣٠؟!.. أكان قد بقي شيء!؟

إن صورة احتلال قرن وثلث قرن في الجزائر ونتيجة الغرس الذنيم -وأثره لا زال حياً في عالم الشهود- توضح كيف ستكون عليه الصورة لو بدأ الاحتلال من قبل ذلك بقرنين ونصف من الزمان .. أي لو لم يكن هناك «آل عثمان» فحموا البلاد لثلاثة قرون سبقت الغزو الفرنسي الرهيب..

ولعل الشاب اليقظ «مولود قاسم» وزير التعليم الأصلي في الجزائر (للأسف أقيل عند كتابة هذه السطور) كان يجسد ضمير أمته المسلمة وهو يرد في طمأنينة الواثق بالنفس على متآمر من كتبة الكتيبة العميلة المرتدة عن الإسلام التي تمشي بيننا بأسماء إسلامية وذات المهمة المحدودة - تحويل الأجيال الناشئة عن دينها وتجنيدها في جيوش الردة.

قال «مولود قاسم» في مؤتمر «الملتقى الإسلامي» الأول في الجزائر :

«كان الأتراك ضيوفاً أعزاء علينا في الجزائر ولم يكونوا محتلين أو غزاة .. كنا وهم إخوة العقيدة الواحدة وتحت رايتهم الغالية كان الاستقلال والمنعة .. وكان الإسلام في ضميرهم وهم يدافعون عنا .. قاتلوا معنا وسقط منهم شهداء أبرار .. ولما ضعفوا ضاعت الجزائر».

صدق الرجل: أكلنا يوم أكلت دار الخلافة .. إسلامبول.

قالها «مولود قاسم» في لسان عربي مبين لم تلحقه عجمة الفرنسة في الحي اللاتيني في باريس، وبضمير مسلم لم يلوثه -كغيره- التسكع في شارع «مسيو» أمام دار البروفيسور المستشرق «مسينيون» على قرع جرس كنيسة سان سوبليس.

* * *

وخذ إيطاليا مثالاً آخر وقد أخذها مكتشفونا وممدينونا عام ١٩١١ !!

ويشهد لينين – نعم لينين – في مقال له في البرافدا تحت عنوان «نهاية الحرب بين إيطاليا وتركيا»:

«وكيف كانت هذه الحرب؟ كانت مجزرة بشرية متمدنة متقنة، كانت تقتيلاً للعرب بواسطة أحدث العتاد.

لقد قاوم العرب مقاومة المستميت. فحينما أنزل الأميرالات الطليان في بدء الحرب، بدون حذر، ١٢٠٠ بحار هاجمهم العرب وقتلوا منهم حوالي ٦٠٠ شخص، وعقاباً قتلوا من العرب حوالي ٣٠٠٠ ونهبوا وذبحوا عائلات بأكملها وقتلوا النساء والأطفال. «الطليان» أمة دستورية متمدنة!! لقد علقوا على المشانق حوالي ١٠٠٠ عربي – وخسر الطليان أكثر من ٢٠٫٠٠٠ شخص منهم ١٧٫٤٢٩ مريضاً و٦٠٠ مفقود و١٤٠٥ قتلى.

وهذه الحرب قد كلفت الطليان أكثر من ٨٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ليرة أي أكثر من ٣٢٠ مليون روبل. وأسفرت الحرب عن انتشار البطالة لحد مخيف وعن ركود الصناعة.

وقد قتل من العرب حوالي ١٤٫٨٠٠ وستستمر الحرب في الواقع، بالرغم من «الصلح» لأن القبائل العربية الموجودة بعيداً عن الساحل في داخل القارة الإفريقية لن ترضخ وسيستمرون زمناً طويلاً في تمدينها بالحراب والرصاص وحبال المشانق والنار واغتصاب النساء..» (البرافدا - العدد ١٢٩، ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩١٢، التوقيع : ت - المجلد ٢٢، ص١١٣-١١٤).

ماذا يقول صبية المبشرين ونتانات عهود العهر القائلين بالاستعمار التركي وظلام الغزو العثماني!!؟

أتراهم يعرفون كيف ضاعت برقة وطرابلس؟!

لقد ضاعت ليبيا يوم ضعف الوجود العثماني هناك .. أثناء حكم صبية اليهود والدونمة والماسون في دار الخلافة الإسلامية .. وهم ليسوا أتراكاً ولا مسلمين - أقصد أنهم ليسوا أتراك العرق والنخوة وليسوا مسلمي الغيرة أو الانتماء!!.

وقد استدرج الجيش العثماني لمواجهة دول البلقان المسيحية التي اتحدت كلها لأول مرة في تاريخها ضد تركيا وأعلنت الحرب عليها ولعب قادة «الاتحاد والترقي» الحاكمون في استانبول دورهم القذر في بيع ليبيا لإيطاليا وساق الماسون قطعان الجيش التركي إلى اليمن ووضعوا ستاراً حديدياً ماسونياً يهودياً أمام النواب الطرابلسيين في مجلس المبعوثان العثماني الذي سيطر عليه الانقلاب اليهودي الذي حكم إسلامبول !!

وسنقرأ في فصل «الييني توران وانقلاب الدونمة والماسون» قصة الضياع !!

* * *

أما فلسطين التي كانت في حماية الدولة القائمة بأمر الإسلام وفي حراسة السلطان العثماني خليفة المسلمين على مدى أربعة قرون منذ فتح السلطان سليم الأول فلسطين لتصبح جزءاً من الدولة الإسلامية الواحدة في عام ١٥١٦، مثلها مثل أنقرة، أو بورصة، أو سيواس .. وكان لها وضع خاص، فكانت كإنسان العين، عند أشقائنا الأتراك .. فقد ضاعت يوم ضاعت الخلافة الإسلامية وانهزمت الدولة العثمانية وصفيت المسألة الشرقية وحطت كل قوى عالم العدو حقد القرون الطوال في بلاد الأسد الجريح. وسلمها الإنجليز غداة الهزيمة وطناً قومياً لليهود!!

كانت فلسطين بيت القصيد وركن الزاوية وحجر الأساس في حركة الدائرة اليهودية، وفي سبيلها حطمت الدائرة اليهودية – وبمساعدة الدائرتين الصليبية والاستعمارية – آخر دول المسلمين !!

ذلك أن وصول رأس الأفعى إلى أورشليم كان لا بد أن يمر عبر الآستانة التي كانت عقبة أمام صهيون على الطريق كئود!!

ضاعت فلسطين يوم واجه الأتراك كل قوى عالم العدو بدوائره الثلاث، وهزموا بعد أن أعياهم الجهاد في سبيل الدفاع عنها، ومن خلف خطوطهم كان الثوار العرب بقيادة لورانس!! يمثلون دور الطابور الخامس. خسة وغدراً وخيانة – والذي مهد الطريق إلى القدس أمام اللنبي الذي أعلن نهاية الحروب الصليبية يوم تسلم فلسطين !!

وقد وضحنا ذلك في فصلي «العقبة إلى صهيون» و«الينى توران وانقلاب الدونمة والماسون».

* * *

وبعد ..

فهل ضيع الأتراك استقلالنا!! وفتتوا وحدتنا!! وقضوا على وجودنا!!؟

أم أننا أكلنا يوم أكلت دار الخلافة وتوقفت الآستانة عن أداء دورها في حماية المسلمين!!؟

* * *

الفصل الثالث

الأتراك متعصبون

«إن أمثلة الفلاحين في بلاد البلقان لا تزال تعبر عن رحمة التركي وعدله، ومنها ما يشير إلى أن العدل ينزع مع الأتراك من الأرض»..

(عبد الرحمن عزام)

أما أن الأتراك «متعصبون» فهذا زعم حاقد وضيع!! لقد خلط قاذفو المقولات الباطلة بين حمية الأتراك وغيرتهم الإسلامية، وبين التعصب الديني بمعنى اضطهاد الآخرين المعتنقين غير العقيدة الإسلامية..

نعم كان الأتراك غيورين على دينهم وهذا أكبر رصيد في تاريخهم المجيد!!..

نعم أقام الأتراك دولتهم للدفاع عن بيضة الإسلام ونشر رايته على الآنام .. ويوم رفعوا هذه الراية الغالية والعزيزة على الربوع الإسلامية حسب كل الغزاة من القراصنة والسفاحين الصليبيين حساب الاقتراب من ديارنا على مدى سبعة قرون .. من القرن الثالث عشر وحتى مطلع القرن العشرين..

وهذا في التاريخ الإيماني لأمتنا المسلمة، أروع إنجاز للدولة العثمانية منذ أسسها المجاهد الغازي «عثمان» رحمه الله وإلى أن سلم «هرقل» الجديد - ممثلاً في بريطانيا وفرنسا وأمريكا واليونان والطليان - مفاتيح القلعة في أنقرة لمسيلمة الكذاب الجديد .. مسيلمة المسخ المسمى «أتاتورك»!!

وليس هناك خيط رفيع بين الإسلامية العثمانية، وبين ما نسب إليها من تعصب ديني مزعوم..

ليس هناك خيط رفيع يفصل بين الحالتين فيختلط الأمر فتخطئ العين تقدير الأبعاد!!..

إنما هناك بون شاسع وعميق بين الحمية التركية، وحماسها الديني وغيرتها

على أمانة الرسالة التي طبعت رايتها وغايتها وحياتها، وبين اضطهاد البشر وفرض العقائد والمذاهب واستئصال الشعوب ومحاكم التفتيش والتنصير!!

إن بين «القمة السامقة» التي تسنم الأتراك سدتها العالية في معاملة رعاياهم من الأجناس والأمم غير الإسلامية وغير التركية، وبين «الهوة السحيقة» التي ارتكس فيها غيرهم من كل الدول التي عاصرتهم أو كانت قبلهم أو جاءت بعدهم حتى يوم الناس هذا - وخضعت لسلطانها أمم مقهورة وعقائد مضطهدة أو محظورة - فراغاً بعيد المدى بعيد الغور!!

بين «قمة» الأتراك و«هوة» غيرهم فراغ تتراقص فيه الأشباح المرعبة. تخيف الناس والحيوان والبنيان بالصور المأساوية وتنذرهم برجس الخراب .. فراغ الموت .. فراغ العدم!!

فالأتراك المسلمون لم يجبروا أحداً على اعتناق الإسلام فحسب، بل إنهم حموا ديانات ومذاهب وثقافة وتراث الشعوب غير الإسلامية التي تمتعت بالعدل الإسلامي الشهير في ظلال الحكم العثماني الأمين .. وليس هذا فحسب -أيضاً- بل إنهم تحرجوا أن يكون قضاة في أمور غيرهم الشخصية!!

وتلك ميزة لا نظير لها في التاريخ البشري كله .. ميزة دولة كبرى في حجم الإمبراطورية العثمانية مساحة وأجناساً وديانات وطوائف.

وكان اتساع رقعة الدولة العثمانية وأوج مجدها في زمن النعرة القومية عند الجرمان والطليان والإنجليز والفرنجة الفرنسيين والأسبان والسلاف وغيرهم .. كان الوجود القوي للأتراك في أوروبا أيام ظهور الدول والقوميات وذوبان الدول والقوميات .. فترة القهر القومي والاستعلاء الجنسي.

ومع ذلك بقيت القوميات والشعوب التي ارتفعت عليها الراية العثمانية بهلالها البديع، بكل خصائصها ودياناتها ومذاهبها ولغاتها وتراثها، لأن الأتراك - بميزان العدل الإسلامي - كانوا واعين بدرس دينهم الخالد:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣).

وأنه: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وصدق الله .. ربنا العظيم .. ووفى الأتراك بأمانة حمل الرسالة. ويعترف «مورو بيرجر» - أحد مبشري الجامعة الأمريكية في بيروت - في كتابه «العالم العربي اليوم» بهذه الحقيقة رغم كرهه الطافح للإسلام والمسلمين، فيقول:

«وقد اتخذ حكم الأقليات الدينية تحت سلطان الإمبراطورية العثمانية شكل الملل تختص كل منها بشئونها الاجتماعية وتنظم الأوضاع الفردية لكل أعضائها .. وكم كان شعور المسلمين بالتساهل شاملاً إلى درجة أن العثمانيين منحوا حتى الأوربيين الحقوق الشخصية والتجارية والدينية وقدراً من الحكم الذاتي على الأرض العثمانية» (ص٢٢٣).

حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا الناهضة!! تحرم على الدانمراكيين، يوم ضمت بلادهم إليها، أن يؤدوا الصلاة في الكنائس الدانمركية باللغة الدانمركية !!

ويصف الزعيم الراحل المغفور له «مصطفى كامل» سماحة الأتراك الدينية والقومية فيقول:

«وإذا دققنا النظر في سبب العداوة المشهور، وهو مسألة الدين وجدنا أن الدولة العلية هي الدولة الوحيدة في دول الأرض التي عاملت رعاياها الذين يدينون بغير دينها بالتسامح والتساهل والاعتدال، فقد اتبعت أوامر الشرع الشريف وتركت للمسيحيين حرية دياناتهم وعوائدهم وتقاليدهم، واحترمت عقائدهم كل الاحترام، فعاشوا طويلاً ممتعين بهاته الحرية، على حين أن مسيحيي أسبانيا قتلوا المسلمين لأنهم مسلمون وهتكوا حرمة بيوتهم وما رحموا إنساناً..

ولم تكتف الدولة العلية بحسن معاملة المسيحيين واحترام أديانهم وعقائدهم، بل عاملتهم كأعز أبنائها المسلمين، ولم تميز بين هؤلاء وبينهم، وسلكت مع الكل طريق المساواة، وعينت الكثيرين من المسيحيين في المناصب السامية والوظائف العليا، وائتمنتهم على أمورها، وجعلتهم محل ثقتها، وبقاء المسيحيين إلى اليوم في الدولة العلية أكبر شاهد على اعتدالها الديني في الماضي وفي الحاضر، بل بقاء الجنسيات المختلفة كالبلغار والعرب واليونان وغيرها، دليل ساطع وبرهان قاطع على أن الدولة العلية احترمت من نفسها وبمحض إرادتها دين الذين وقعوا تحت سلطتها، ولم تقهر أحداً على اعتناق الدين الإسلامي..

ولو أنصفت الدول الأوروبية قليلاً لاعترفت بهذه الحقيقة الواضحة، وهي أن المسيحيين في الدولة العلية لا ينقصون عن المسلمين في حسن المعاملة إن لم يكونوا من الراجحين»..

(من مقال للزعيم مصطفى كامل بعنوان - المسألة الشرقية - فصول مختارة من كتب التاريخ - ص.١٥٠-١٥١)..

وقد لا تعجب شهادة «مصطفى كامل» كثيرين من مرددي الفرية البلقاء لأنه مسلم ولأنه يكره الاستعمار البريطاني، وقد حارب الاحتلال، فإلى شهادات الآخرين من غير المسلمين، أوربيين وهنود، نصارى وهندوس.

يتحدث «فازلييف» في بحثه «بيزنطة والإسلام» عن كره «رومان» الدولة الرومانية الشرقية الأرثوذكس لرومان بقايا الدولة الرومانية الغربية الكاثوليك، وتفضيلهم الأتراك العثمانيين على أشقائهم في الدين والماضي والتراث .. رغم أن الكل مسيحيون وشعوب الفريقين ينتمون إلى مذهبين شقيقين ويضع رأسا المذهبين على رأسيهما تاج المسيح ويكرزان بالرسولين «مرقص» و«بطرس» ويكاد المذهبان يتفقان في كل التفاصيل: أسرار الكنيسة والرهبنة ودرجة الأقانيم الثلاثة ولغة الكتاب وخمر وقرابين جسد المسيح ودمه والجنس والعرق، بل حتى يشتركون في تفاصيل رداء الكهان.

وظل هذا التفضيل -تفضيل الأتراك المسلمين عن النصارى اللاتين- حتى ليلة سقوط العاصمة في يد الفاتحين !!

يقول «فازلييف»: «ولا زال الناس يرددون تلك المقالة المأثورة التي صدرت عن رئيس ديني بيزنطي يدعى «لوكاس فاتوراس» في ذلك الحين وهي: «إنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية في مدينتنا من أن نرى تاج البابوية» (ص٣٩٢)..

ويتحدث «نهرو» في كتابه «لمحات من تاريخ العالم» - ترجمة عبد العزيز عتيق (دار المعارف) في نفس المعنى موضحاً عدالة الأتراك وتسامحهم وأفضليتهم عن كل الناس في رعاية مصالح مخالفيهم في الدين.

يقول «نهرو»: «ومهما يكن من أمر فالواقع أن سلاطين الأتراك العثمانيين كانوا متسامحين جداً مع الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية حتى أن السلطان «محمد الثاني» نصب نفسه بعد سقوط القسطنطينية راعياً للكنيسة الإغريقية..».

ويستطرد «نهرو» قائلاً: «إن نبيلاً بيزنطياً قال أثناء حصار القسطنطينية الأخير عام ١٤٥٣: «إن عمامة النبي أفضل من تاج البابا المرصع باللآلئ» (ص٦٠)..

والأرجح أن «نهرو» قد نقل عبارة «فازلييف» خطأ فيما يتعلق بالعمامة، فعبارة «فازلييف» تنص: «إنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية في مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية المرصع باللآلئ».

وعلى أية حال فالمعنى المقصود واضح في العبارتين: كان الرومان الشرقيون يفضلون رعوية الإسلام عن وحشية النصرانية الكاثوليكية.

ذلك أن «البيزنطيين» كانت لهم مع أشقائهم النصارى الغربيين تجربة وحشية فظيعة يتحدث عنها «أومان» في كتابه «الإمبراطورية البيزنطية» تعريب د. مصطفى طه بدر (دار الفكر)..

يقول أومان في شهادته على بني دينه وجلدته :

«... قتلوا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من أهالي المدينة المجردين من السلاح وأظهر الجيش انقياداً للشهوة والشراسة. ولا يقل جميع الكتاب الغربيين تحمساً عن الكتاب الإغريق في إظهار فظائع كرنڤال الخطف والنهب الذي قام في هذا الوقت - إذ كان كل فارس أو جندي يستولي على المنزل الذي يريده ويتصرف في سكانه كما يشاء، ولم يكن مصير الكنائس والأديرة أحسن من مصير المساكن الخاصة. وقد وضع الجنود السكارى إحدى العاهرات في الكرسي البطريركي في كنيسة سانت صوفيا وأمروها أن تتلو أغاني بذيئة وترقص رقصات خليعة أمام المذبح السامي. وكان يوجد كثيرون من رجال الدين مع الجيش الصليبي ولكنهم بدلاً من أن يحاولوا وضع حد لهذه الأعمال التي صدرت من مواطنيهم، وكانت تقوم على انتهاك الحرمات، كرّسوا أنفسهم لنهب خزائن الكنائس من جميع العظام المقدسة التي كانت مخزونة فيها..»!! (ص٢٤٤).

.. ويستطرد «أومان» فيصف الصورة المقابلة التي تعطيها الكاميرا النظيفة عن شرف المسلمين عندما يدخلون برسالتهم الخالدة بلداً فاتحين:

«.. وقد لاحظ كاتب إغريقي كان شاهد عيان لنهب القسطنطينية أن المسلمين عندما كانت تسلم لهم إحدى المدن بأي شكل من الأشكال كانوا يحترمون الكنائس والنساء» (ص٢٢٤).

والمعجب هنا أن حادثة سطو نصارى الغرب على مدينة «أم الرب»، والمذبحة العامة التي حدثت في روما الثانية وهتك عرض «ملكة المدن المسيحية» واستباحة ونهب «المدينة التي يحرسها الله»، قد حدثت والإخوان الصليبيون الذين قتلوا إخوانهم الصليبيين من غير إعلان حرب وهتكوا أعراض نسائهم وسرقوا كنائس «فخر اليونان»، وخطفوا عظام القديسين ونبشوا قبور أبطال المسيحية وعربدوا فوق مذبح الرب السامي!! - قد حدثت والإخوان الصليبيون في طريقهم - في الحملة الصليبية الرابعة -إلى حرب مقدسة- ليخلصوا بيت المقدس والقبر المقدس من المسلمين المتوحشين!!

وهكذا يكون الخلاص، وتكون القداسة، وتكون وحشية المسلمين!!

وما حدث بعد ذلك يرويه «أومان» في عرى صريح :

«فالبطريرك» خليفة المسيح وحامل تاجه وعصاه قد فقع إخوانه في الدين عينيه ولفوا به القسطنطينية (سبع لفات) .: وفي النهاية قطعوا رأسه وألقوه في البسفور!!

أما «محمد الفاتح» الذي دخل القسطنطينية فاتحاً فكان وهو يحارب دولة الروم التي ظلت أحد عشر قرناً من الزمان عدو المسلمين الرئيسي والتقليدي .. كان يحارب حرب الإسلام «التي لا تهتك فيها حرمة، ولا يقتل فيها صبي ولا شيخ ولا امرأة، ولا يحرق فيها زرع، ولا يتلف فيها ضرع، ولا يمثل فيها بإنسان، ولا تصيب إلا المقاتلين الذين يحملون السلاح في وجه المسلمين».

كان «محمد الفاتح» وهو يمثل عالمه الإسلامي يتمثل منهاج الإسلام في الحرب ممثلاً في وصية أبي بكر لجيش أسامة وهو ذاهب لمقاتلة الروم:

«لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له .. اندفعوا باسم اللّه»..

لقد بحث السلطان الفاتح بعد المعركة عن جثة آخر قياصرة الروم وأمر بالصلاة عليه وتشييع جنازته ودفنه حسب طقوس النصارى الشرقيين!!

ومع أننا لسنا في هذا المجال مشغولين بالتاريخ الأوروبي فلعله من المفيد أن نذكر أنه يوم دخل الأتراك أوروبا ليعلموهم أن الإسلام -الذي دخلوا تحت رايته- هو منهج حياة وضمان استقرار وحياة أمن ونظافة سلوك ورسالة ذمة وخلق، كان الأوربيون يأكلون بعضهم أكل الوحوش في تطاحن المذاهب واختلافات الفرق الدينية..

ولقد كان العامل الرئيسي في نشأة أمريكا نفسها هو التعصب الديني الأوروبي بين الطوائف المسيحية .. يوم هرب المسيحيون المنتمون إلى مذهب قليل العدد من همجية وبربرية إخوانهم المسيحيين الذين تصادف أنهم ينتمون إلى مذهب متفوق في حساب الأرقام .. هرب المضطهدون بجلدهم إلى قارة جديدة بكر .. كملجأ أو ملاذ !!

لقد دخل الأتراك أوروبا في أعقاب الحرب الصليبية التي صنعت بالمسلمين في القدس تحت راية «الرب أمير السلام»!! ما تحدثنا عن بعضه في «درس الشرخ» من هذا الكتاب !!

دخل الأتراك أوروبا بعد أن صفى الوجود الإسلامي في شبه جزيرة إيبريا، وذبح واسترق وشرد ما يزيد عن ثلاثة ملايين من المسلمين !!

ومع ذلك دخل الأتراك أوروبا ليعطوا عالم الغرب النصراني درس الإسلام.. درس الحماية والرحمة والأمان، لأن دينهم الخالد قد ملأ نفوسهم فلم يكن هناك طريق إلى قلوبهم يعرف شهوة الانتقام.

أي قالة – بعد ذلك – تتطاول فتزعم أن الأتراك كانوا متعصبين!؟

وأنا لا أقول هذا دفاعاً عن الأتراك فهم ليسوا متهمين من قبل من يحسن الكلام والبحث والمنهج ويحترم قلمه، حتى ولو كانوا قسساً أو مبشرين أو حاخامات!!

ولا أقول ذلك -أيضاً- لأن قيء تلاميذ المبشرين والقسس والحاخامات يشغلنا، فهم بوزنهم وحجمهم أصفار لا ينبغي أن يغيب عنا دورهم الساقط السفيه!!

وأنا أعلم أن التلاميذ لم ينقلوا عن الأساتذة من كلام مسطور!!

فـ«الأسطى» قد نزّه نفسه -على غله ومغالطاته- أن يرتكس قلمه في تزوير صريح، وترك لـ«الصبي» زفر البهتان وقول الزور!!

لقد أبت كبرياء الغزاة أن يكتبوا الزيف العاري في بحوث الاستشراق أو التبشير أو حتى مجرد أن يخطوا بأيديهم سطوراً لتلاميذ الغزو وبدائله .. لكنهم لقنوهم إياه بليل، وفي همس، بأسلوب النفاثات في العقد!! في أقبية المحافل الماسونية، وفي سراديب الإرساليات، وفي بيوت الأساتذة الذين منحوهم ألقاباً جامعية من وراء الحدود، أو في أوكار تدريب العملاء الملحقة بالسفارات!!

وعن رحمة الأتراك العثمانيين وعدلهم -كمسلمين- بالشعوب الأوروبية التي حكموها وأثرهم في زوال عهد الإقطاع البغيض من أرض المداف والبولونيين، يتحدث عبد الرحمن عزام -أول أمين عام للجامعة العربية- في بحثه القيم «الرسالة الخالدة» فيقول:

«وقد يظن بعض الناس بما يتناقلون من أحاديث أو فكاهات عن بعض العهود للدولة العثمانية أنها كانت دولة عظيمة، ولكن لم تكن صفة الرحمة من مميزاتها، وهو خطأ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق..

ولقد سمعت بنفسي حديث هذه الرحمة في «بسرابيا» من رومانيا على نهر «الدنيستر» وقيل لي: إن أمثلة الفلاحين في هذه الأطراف النائية للملك العثماني لا تزال تعبر عن رحمة التركي وعدله. ومنها ما يشير إلى أن العدل ينزع مع الأتراك من الأرض. وقد لفت نظري في بولونيا ورومانيا وفي بلاد البلقان في رحلاتي المتعددة أمثلة وأساطير لا تزال تشير إلى ما استقر في نفوس هذه الأمم المسيحية من احترام التركي المسلم كرحيم عادل.

وفي سنة ١٩١٧ كنت في فيينا فروي لي أن البوليونيين مستبشرون بوصول العساكر العثمانية إلى جاليسيا مدداً للنماسويين وقتئذ، فسألت عن السبب فقيل لي: إن عندهم نبوءة يعتقدونها عن بعض قديسيهم بأن علامة عزهم وظهور دولتهم مرة أخرى هي أن تعود العساكر الإسلامية إلى الظهور شمال الدانوب.

ومن العجيب أن هذه العساكر ولو أنها جاءت مدداً لغاصبي بولينا ومقتسميها فإنه لم يمض سنة على عبورها «الدانوب» حتى استقلت بولندا حقيقة مرة أخرى وعادت دولة موحدة ..

هذه السطور وغيرها من الأمثال في لغات الأمم البلقانية جعلتني أتوسع في قراءة التاريخ الإسلامي في البلقان، وقد خرجت من قراءتي ومشاهداتي بأن العدل والرحمة الإسلامية هما اللذان مكنا للعثمانيين في أوروبا.

وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من غيبوبتها وهمجيتها وقسوتها وعرفت المساواة والإنصاف، ويكفي أن تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظاماً دولياً متعاهداً عليه في أوروبا الوسطى والجنوبية إلى أن قضى عليه العثمانيون.

وكانت هناك عهود دولية بين الملداف والبلونيين والمجر لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيده من «البويار» إلى أحد هذه الأوطان، وكانت المزارع تباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين.

جاء العثمانيون إلى أوروبا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة ﷺ ، ولم يكن الأتراك أكثر عدة ولا عدداً من أية أمة من الأمم التي سادوها، فوصلوا على رءوسهم جميعاً إلى فيينا، تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد، كما مهدت للعرب قبلهم إفريقية وآسيا»[1] .

* * *

وعن همجية المسيحيين الأوربيين في الغرب ووحشيتهم الدموية الاستئصالية مع المسلمين في أسبانيا (الأندلس) في مقابل التسامح التركي الإسلامي الشهير في الشرق في معاملة نصارى الدولة البيزنطية المبادة بالفتح الإسلامي، يقدم لنا المغفور له عبد الرحمن عزام صورة قلمية رائعة مستشهداً بالمؤرخين المسيحيين أنفسهم، فيقول:

(١) عبد الرحمن عزام «الرسالة الخالدة» مطبعة لجنة التأليف والترجمه والنشر ١٩٤٦ ص٢٢ - ٢٤.

«فازت جيوش الهمج من الأوربيين على العرب في القرن الثامن فأخرت الحضارة، وفاز الغلاة المتعصبون من الفرنج مرة أخرى فوزاً ساحقاً في القرن الخامس عشر فقضوا على العرفان والحضارة. وفي الوقت الذي كانت محاكم التفتيش وسيوف الدولة تسوق إلى المذبحة أو إلى البحر رسل الحضارة في الغرب، وتخلي أوطاناً بأكملها من أهلها، وفي الوقت الذي تسقط فيه غرناطة ويمحى أثر مائتي ألف مسلم بها، وجلهم من أهل أسبانيا نفسها ومن عنصرها الأصلي ذبحاً وطرداً وتشريداً، كانت جيوش الإسلام الظافرة تحت راية أخرى تفتح الممالك الأوروبية الشرقية، فيستظل المسيحيون بظل العدالة الجديدة، وينعم الناس بحرية الضمير وحرمة الأديان..

سقطت بيزنطة مركز العداوة للمسلمين، ومبعث العواصف على الأوطان الإسلامية مدة ثمان قرون، فما استبيحت الحرمات الدينية، ولا تسلط الفاتحون على العقائد والأديان، ولا طرد الناس من أوطانهم وحوسبوا على نياتهم وضمائرهم..

ولندع الكلام للمؤرخين المسيحيين: فرنتز، وفنلي، وبتزيبوس، ودهسون، كما لخصه أرنولد: «وكانت أولى الخطوات التي اتخذها «محمد الثاني» بعد الاستيلاء على القسطنطينية أن طمأن المسيحيين بالتعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسية، ومنع منعاً باتاً اضطهاد النصارى، وصدرت الإرادة السنية بأن للبطريق والأساقفة في النظام الجديد جميع الحقوق والامتيازات التي كانت لهم في النظام السابق للفتح، واستلم البطريق «جناديوس» من يد السلطان الأداة التي كانت شارة ولايته، ومعها ألف قطعة من الذهب وحصان مطهم بعدة فاخرة ليركبه في موكبه في المدينة، ولم يهب السلطان لرأس الكنيسة المسيحية الامتيازات التي كانت له في عهد الإمبراطور المسيحي فحسب، بل مكنه من سلطة مدنية واسعة على الرعايا المسيحيين، فكان مجلس قضاء البطريرقية هو الذي يفصل في منازعات المسيحيين ويقضي بالغرامة والحبس والقتل، وكانت

حكومة السلطان تنفذ ما يقضي به مجلس البطريرقية. فكان للبطريرق السلطة المطلقة في الشئون الروحية، ولم تتدخل قط في هذه الشئون السلطات المدنية الإسلامية، كما كانت تفعل المسيحية قبل الفتح، ولما كان البطريرق معتبراً من كبار رجال الدولة في نظر السلطان، ومعترفاً به، فقد كان له أن يتدخل لرفع الظلم الذي يقع من بعض الولاة على النصارى باتصاله مباشرة بالسلطات، وكان للأساقفة في الولايات من الحرمة والسلطة مثل ما للبطريرق في العاصمة، حتى انتهى الأمر إلى أن صاروا في مناطق سلطانهم الديني كأنهم مأمورو الدولة وولاتها، فحلوا محل الأرستقراطية البيزنطية التي انقرضت بسقوط دولتها..

ذلك ما فعل المسلمون في المشرق، وقد سقطت غرناطة للأسبان بعد سقوط القسطنطينية للترك بأربعين سنة، فهل كان للفرنجة فيما فعل المسلمون أسوة»؟[1] .

* * *

(١) عبد الرحمن عزام «الرسالة الخالدة» ص٢٢٥ . ٢٢٦ . ٢٢٧..

الفصل الرابع

الفســاد العثمــاني

«قد مزجوا بالنفاق فامتزجوا
والتبسوا في العيان واشتبهوا
وما لأقـوالهم إذا كشـفت
حقـائق بـل جميعـها شـبه»
(أبو العلاء المعري)

ونأتي إلى زعم آخر عن انحراف المجتمع التركي وفساد قصور السلاطين!!

إن القصص الوهمية عن قصور السلاطين التي رواها كتاب الغرب ونقلتها عنهم أدوات التخريب الثقافي في بلادنا لا تصلح إلا زاداً عفناً لأحلاس الحانات. ولا أعرف كيف سوّلت لمدعي العلمية في دراساتهم المنهجية أن يلفقوا حكايات خرافية أرقى منها ألف مرة حكايات ألف ليلة وليلة !!

الغرابة ليست في ورى أكبادهم. لكنها في خيالهم المريض. وهنا محط اللوم. فأنا لا ألومهم والحقد يأكل قلوبهم على السلاطين العظام .. خلفاء المسلمين. لأنهم تركوا جذوة الإيمان مشتعلة في قلوب المسلمين على مدى سبعة قرون، كانت كل قوى عالم العدو تتربص بهم في صليبية ثانية أشد عنفاً من الأولى تؤازرها وتحركها يهودية ماكرة.

كتاب الغرب معذورون أن يبغضوا أسود الحمى آل عثمان. لكنهم ملومون وهم يجنحون بخيالهم الساذج فيفترضون سفه عقولنا فيما يتقيأونه من خرافات.

فالسلاطين الذين جعلهم كتاب الغرب الحاقدون وصبيتهم من النقلة في بلادنا لا يعلمون عن أحوال الأمة شيئاً، غارقين في الملذات وسط الحريم، هم الذين كانت المجر تتساقط في أيديهم وتحت ركابهم في ساعات لا تتعدى نصف نهار .. وهم يهتفون من الأعماق: «الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد» وهم الذين طبقوا القرآن وطبعوه وقاموا على تعليمه

وحفظه وإشاعة علومه بين الناس وأنشأوا له الدور والمعاهد وكوّنوا من خلاله أمة مسلمة لا تدين إلا به عقيدة وشريعة، تراثاً وفكراً، سلوكاً وضميراً، ولا تعمل إلا له غاية واحتساباً. هم الذين كانوا يلقبون باللقب المهيب «الغازي» أي المجاهد في سبيل الله .. أشرف الألقاب عندهم وأغلاها على الإطلاق.

هم الذين كانت قوتهم الخلقية والروحية مضرب الأمثال. وكان تفكيرهم سديداً مجرداً عن الهوى والغرض.

أو يجدر بنا نحن المسلمين أن نصدق أن قصة جهاد آل عثمان هي قصة الجواري والحريم!؟

ألا يعلم كتاب الغرب أن قبور الشهداء من السلاطين العظام كانت أضعاف عدد القصور؟ ونود أن نسألهم -ولا زال الأثر باقياً في الآستانة- كم يا ترى عدد القصور في مقابل القبور؟

هل ينقم الحاقدون على خلفاء المسلمين من آل عثمان أنهم فور سماع صوت المؤذن عند الفجر يلبون النداء، فيقومون للوضوء ثم يؤدون الصلاة جامعة في مسجد القصر مع كل من فيه، يؤمهم السلطان خليفة المسلمين!؟

أم أن النقمة الأشد كانت شفقة ودفاعاً عن «صاحب الوضوء» .. ذلك الموظف في قصر الحكم الذي كان يستيقظ مع السلطان ليوضأه ويصلي معه !؟

مسكين صاحب الوضوء!! ضيع شبابه وهو يمسك إبريق الوضوء عند الصلوات الخمس، ويسهر حتى العشاء!!، وكان التحرر والتقدم وعدم الاستبداد والحرية الشخصية أن يكون الرجل صاحب كأس يسقي به الندماء في ليل يطول حتى الشروق!! أليست المساواة أن يكون قصر «يلدز» مثل قصر «فرساي» أو «بكنجهام»!؟

الحريـم!!...

إن سلاطين آل عثمان كانت عندهم عبارة أصيلة وأثيرة .. يرددونها أمام رجال الحكم عندما تنقل إليهم مطالبة بعض المنحرفين من العائدين من الغرب أو أدوات المحافل الماسونية بنوع من «البحبحة»! في الحجاب أو الخمور أو القمار أو التصريح بمسحوق «الكوكايين» تقليداً للغرب المجاور. كانوا -رحمهم الله- يقولون: «إن أيدي الأجانب تسير متنزهة فوق كبدي .. علينا إرسال الرسل إلى الخارج ولنعمل سريعاً على تعلم ما وصلوا إليه».

ويرسل المجاهدون من سلاطين آل عثمان البعثات العلمية ويعود المسملون الأتراك الحقيقيون ليساهموا في تطوير الدولة فتقوم المصانع للإنتاج المدني والعسكري وتنشأ المدارس والمعاهد والجامعات وتمد الطرق والجسور وسكك الحديد وشبكات البرق والهاتف ..

ويعاود أفراد الطابور الخامس العائدون الفاشلون وقد جندوا في بلاد ابتعاثهم يطالبون بالمشروطية وحرية الممارسة الجنسية، عادوا بمرض الزهري، وسمن العدو على خبزهم. ويجيب السلطان - الحارس اليقظ - على أمانة الأمة في يديه:

«ليتهم عادوا لنا بطريقة صناعة آلة جديدة أو فن جديد .. إن للشرق حضارته الإسلامية المتكاملة المتفوقة على حضارة الغرب .. نريد من الغرب العلوم الحديثة وأن نطورها وننميها ونتفوق بها بجانب تفوقنا الاعتقادي السليم .. ليس الإسلام ضد التقدم لكن الأمور القيمة يجب أن تكون طبيعية، وأن تأتي من الداخل ولا يمكن أن يكتب لها النجاح إذا كانت على شكل تطعيم من الخارج، إنهم يحسبون المسلمين قد مرقوا عن دينهم كما فعلوا هم. إن شعبي المؤمن شديد الغيرة على الإسلام .. هؤلاء الأغرار يقلدون النصارى في كل أمورهم .. يعاقرون الخمر ويغازلون النساء ويرتكبون كل محرم .. إن هذه المطالب تؤدي إلي خروج نساء المسلمين حاسرات الوجوه كنساء الإفرنج الكفار أنا أعلم تمسك عامة المسلمين بالحجاب».

قالها السلاطين العظام من «الغازي عثمان» المؤسس، والسلطان «محمد الفاتح» و«سليم الأول» وآخر خلفاء المسلمين« السلطان عبد الحميد»..

مساكين حريم السلطان!!

لقد بقين حرائر في خدورهن لا يقابلن إلا المحارم.

وكانت الحرية تتطلب أن يترك السلطان زوجته وكريماته وأخواته وقريباته عاريات على شاطئ البسفور!!

ماذا أقول؟!

أما المجتمع التركي فقد ظل -والحمد لله- منذ إسلامه وإعلان الجهاد وإلى بداية عهد تقدمية «أتاتورك» على أعلى درجة من السمو الخلقي والتمسك بالدين. فلم يخالط الأتراك السلالات المريضة التي كانت تتكون منها الإمبراطورية الرومانية الشرقية. واستعلوا أن يدنسوا شرف جهادهم الإسلامي، وتعففوا أن يترددوا في الحمأة الوبيئة فيسكرون ويعربدون ويكتبون بوحي من «أبوللو» أو يعشقون على هدى من «كيوبيد»!!

أما عبارة سير مارك سايكس التي قالها معلقاً على فتح القسطنطينية:

«كان فتح القسطنطينية تاجاً يزين مفرق الترك، ولكنه إلى جانب ذلك كان لهم ضربة قاصمة. إن القسطنطينية كانت معلم الترك وفيلسوفهم. فلقد ورث الترك فيما ورثوا مفاسد بيزنطة ومساوئ أبنائها من الخصيان وحراس القصر والجواسيس والمرتشين والوسطاء إذ ظل هؤلاء جميعاً كما كانوا. لقد أضاع العثمانيون كنزاً وأخذوا وباء».

فيجب أن تؤخذ بحذر وما كان لأصحاب كتاب «تركيا والسياسة العربية» أن يمسكوا بها -على طريقة: إمسك حرامي!- دليل دمغ يدينون به حماة الإسلام.

أما «الكنز» الذي أضاعه الأتراك فهو «بيزنطة المسيحية الرومانية

الهيلينية» بكل تراث الغرب الوثني والصليبي، وتحويلها إلى «إسلامبول» أي دار الإسلام. وهو ما أسف عليه (الخواجة) سايكس!!

وأما «الوباء» الذي أخذوه ففيه نظر. ولابد من التوضيح. إننا ما دمنا نحتكم إلى الإسلام بداية وغاية، فإننا لن نعتذر عن ذلك المحظور الذي وقع فيه بعض من رجالات الدولة وعدد من المشتغلين بالشعر والأدب. ومع ذلك فإن هذا الفساد كان محصوراً في بعض البيوتات المتغربة وجواسيس الماسونية أمثال «مدحت» أحد الصدور العظام وذي الصلة أو العمالة بالإنجليز و«رشيد باشا» الذي وجد في الغرب مثله وفي الماسونية فلسفته و«اهارونيان وجوبانيان والدكتور إسحاق شكوتي وأحمد رضا - مدير معارف بورصة - وعبد الله جودت وبهاء الدين شاكر وناظم حكمت وإبراهيم تيمو والسر عسكر حسين عوني ونيازي» .. وغيرهم من الدونمة والماسون وعملاء كل عالم العدو .. وهم بالقطع لا يحسبون على جماهير الشعب التركي المسلم النظيف.

وربما -أو هي كذلك- كانت غلطة السلاطين الكبرى أنهم لم يضربوا بشدة على أيدي العابثين.

ولا شك أن الغرس الأثيم قد كبر وطفحت ثمرته وفعلت العدوى فعلها مع بعض الرجال المدسوسين في حاشية السلطان. لكن بقي سلاطين آل عثمان على غيرتهم الشديدة يمثلون شعبهم المسلم وضمير أمتهم المؤمنة في كل أمر يصدر عنهم في أمور الدنيا وأمور الدين. وإذا استثنينا المعتوه السلطان «مراد الخامس» الماسوني ولم يدم حكمه أكثر من بضع وتسعين يوماً وعصر التنظيمات الذي بدأه السلطان «عبد المجيد» ونحيت فيه الشريعة عن كونها مصدر كل القوانين لا نكون قد جانبنا الصواب في إرجاع الفساد إلى أصله الغريب وفي حدود الأفراد.

كان الفساد في بيوت أولئك الذين حاربوا الدولة وخربوها من داخلها وكانوا جواسيس أعدائها وعملاءهم بالأجر أو الفكر. استجاب للفساد أولئك الذين هلل

الغرب والماسونية لهم وسخرهم. وفي خزائن السفارات البريطانية والروسية أسماؤهم وملفاتهم. ويمجدهم الأقزام من مؤرخي وسياسي ومفكري عالمنا الإسلامي المغلوب !!

لكن المجتمع التركي وعلى رأسه سلاطينه كان -وبخاصة- في الأناضول من أنقى مجتمعات الدنيا طهراً وإيماناً ونظافة، وعاش الأتراك جنوداً بررة للإسلام. وسقطت أسوار «الكنز» الذي استعصت على أقوى الجيوش تحت لوائهم الأعز والأمنع.

إن سر الكره الحاقد على الأتراك عند كتاب الغرب أنهم لا يستطيعون أن يفصلوا بين ما هو مسلم وما هو تركي، وتركيا تعني عندهم الإسلام، والأتراك عندهم المسلمون .. وكأن اللفظين مترادفان، وهذا صحيح من تجربة أوروبا مع الدولة العثمانية المسلمة.

ولا زالت كتاباتهم حتى يوم الناس هذا تعني ذلك الترادف في وعي حراس تركة تصفية المسألة الشرقية. المسكين بخيوط الدمى صداً لبعث إسلامي يؤكد هذا الوصال.

وعندما ابتلينا في قسم اللغة الإنجليزية في كلية المعلمين بأسيوط ونحن في الفرقة الثالثة عام ١٩٥٩-١٩٦٠ برواية تسمى (Eothan) تسب الإسلام والمسلمين وتبث في أدمغة الناشئة وقاحة الطعن في دينهم، منذ أن مر كاتبها بالآستانة -قسطنطينية آبائه سابقاً- وشاهد آيا صوفيا. المسجد وليست كنيسة جيستنيان، وحتى دخوله مصر.. قررها علينا «أمير كامل أرمنيوس» بلا حياء ولا خوف .. تصديت لذلك واضطهدت وتقرر فصلي من الكلية ثم تدخلت الوزارة المركزية بجهود المرحوم سعيد العريان وألغى الفصل وألغيت الرواية وحظر تدريسها في مصر. وكان جواب «أرمنيوس» عندما استجوب أن الكاتب لا يقصد الإسلام الدين، وإنما يقصد تركيا والأتراك .. هكذا!!

بل إنه في عام ١٩٧٤ يوم تدخل الجيش التركي -والحكومة علمانية- لإنقاذ القبارصة الأتراك من التصفية الجسدية اليومية التي كان يقوم بها أصدقاؤنا القبارصة اليونانيون طلعت علينا صحف الغرب وإذاعاته تنقل عن كتابه ومراكز التوجيه فيه، وخرجت المظاهرات يقودها كبار أصدقائنا المتحررين من فلاسفة وساسة ورياضيين، يصرخون: «انقذوا قبرص من المسلمين»!!

الإسلام مرة أخرى!!

* * *

الباب الثالث

الدوائـر الثـلاث ..

- الثالوث .
- الالتفاف حول الأسد .
- العقبة إلى صهيون .
- اليني توران .. وانقلاب الدونمة والماسون .
- أتاتـورك .. خيـوط تحرك الدمية ، وخيوط تحدد الدور .
- النبتة الخبيثة .. والتمرد المؤامرة

الفصل الأول

الثالـــوث

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُه وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ ..

(الأحزاب : ٢٢)

قلنا في «الفصل الأول» من «الباب الأول» من هذا البحث إن جذور المسألة الشرقية قد انغرست في الوجدان الأوروبي منذ أول احتكاك بين الدولة المسلمة الوليدة في يثرب المطهرة وبين الدولة البيزنطية - ممثلة عالمها النصراني على مدى أحد عشر قرناً من الزمان.

وكنت أعني أن «فيروس الحقد» على الإسلام قد بدأ منذ ذلك التاريخ وجاءت الهجمة الصليبية الرسمية ثم اندحرت وباءت بالخسران المبين.

وكان في يقين الصليبيين أنهم قد يعودون يوماً ما إلى ديارنا بعد أن صفوا كل أثر للإسلام في شبه جزيرة إيبريا.

ونهضت أوروبا من ظلام قرونها الوسطى مزودة بالعلم والكشوف الجغرافية والأساطيل التي عبرت المحيطات واكتشفت قارتين جديدتين وجاءت لاكتشافنا من جديد !!

لكنها فوجئت بالدولة الإسلامية العظيمة القائمة بأمر الإسلام في ذلك التاريخ تصد عن عالمها الإسلامي كله تلك الهجمة الجديدة المزودة بالعلم والحقد معاً..

بل لا يكتفي آل عثمان -طيب اللّه تاريخهم وعطر ذكراهم- بهذا فحسب، بل ينقلون المعركة داخل أوروبا ذاتها ويضمون نصفها الشرقي إلى دار الإسلام فتصل جيوشهم إلى أسوار فيينا حتى لقد قيل في أمثالهم: «إنه عندما كان

الدجاج يصيح وهو يعاني من وضع بيضة كانت البيوت الأوروبية في النمسا تهلع صارخة : جاء المسلمون .. جاء الأتراك»!!..

وكانت الدولة العثمانية -أعزها الله- هي التي أنهت للأبد الدولة البيزنطية عدو الإسلام التقليدي والتي ظلت كما يقول مؤرخو الغرب وقساوسته حصناً للمسيحية على مدى أحد عشر قرناً من الزمان.

وكان سقوط القسطنطينية ودخول الأتراك «مدينة أم الرب - روما الثانية - فخر اليونان - المدينة التي يحرسها الله»..!! قمة التصاعد في الصراع بين الشرق والغرب .. الشرق المسلم والغرب المسيحي بالطبع.

وعلى هذا فإذا كانت الجذور قد بدأت منذ «مؤتة» فإن الثمرة قد نضجت بنشأة الدولة العثمانية ذاتها وبدأت المسألة الشرقية مصطلحاً وقضية تتخذ اسمها يوم وطأت أقدام الترك الأرض الأوربية.

وقد أخذت الدول الأوروبية - منذ ظهرت صولة الترك في أوروبا - على عاتقها معاداة الدولة العثمانية والتنادي على إخراج الترك من القارة. لكن هذه الدول ظلت عاجزة حيال هذا الهدف وحبط عملها وخاب أملها. فقد رفعت الدولة المسلمة رايتها الهلالية الجليلة في الأجواء الأوربية، وأرهبت بقوتها وعظمتها كل قوى عالم العدو وحمت عالمها الإسلامي من طوفان التعصب الأوروبي اللعين. وحسب كل الغزاة حساب الاقتراب من دار عثمان.

وكأن الله سبحانه قد أراد أن يكون بقاء آل عثمان - وعلى حد تعبير الزعيم مصطفى كامل - «من أول الأمور الضرورية اللازمة لسلامة بني الإنسان».

وظل الغرب المسيحي لأكثر من قرنين ونصف في موقف الدفاع.

ثم تقدمت أوروبا في البحوث والعلوم والأساطيل والفنون والجيوش، ثم فجرت ثورتها الصناعية وتقدمت معها حركة نشيطة للسيطرة والاستعمار.

وتطور التكتيك اليهودي ليسيطر على قيادات الغرب الأوروبي من خلال الماسونية استكمالاً لمصيدته التي كان قد أوقعهم فيها منذ الحروب الصليبية الأولى كما يقرر ذلك أحبار الماسون.

وطورت أجهزة التنصير مفاهيمها الصليبية لتكتفي بالإفساد العقلي والسيطرة الوجدانية بعد أن تأكدت أنه يستحيل على المسلم المراد تبشيره(!!) أن يستبدل القرآن الكريم بصليب الإله المذبوح!!

وتحركت الدوائر الثلاث خارج الدولة العثمانية ومن داخلها من خلال الدخلاء الأجانب الذين دخلوا في جسم الدولة نساء ورجالاً وقد غيروا أسماءهم بأسماء إسلامية وشارات إسلامية، وتغلغلوا في البنية الاقتصادية والعسكرية والثقافية والتربوية للدولة. وعاقوا عن قصد مبيت كل تقدم ونمو. وارتقوا في المناصب حتى وصل بعضهم إلى قادة الجيوش والصدارة العظمى .. أي رئاسة الوزراء.

«دوائر ثلاث» تعمل في اتساق لا تناقض فيه على الإطلاق وكأنها لوازم تشغيل جهاز التخريب الذي يعطي الصورة المطلوبة منضبطة في كفاءة فائقة من خلال قدرتها المنظمة على البث المقتدر.

تحالفت القوى الصليبية مع القوى الاستعمارية مع القوى اليهودية .. ولكل دورها وغايتها في إنجاز الوضع المطلوب.

«القوي الصليبية» في صورة مبشرين ومستشرقين في مدارس ومستشفيات ومؤسسات ثقافية ومؤتمرات وبحوث.

و«القوى الاستعمارية» بخلفيتها المقهورة وميراثها الحاقد وهويتها الصليبية في صورة الجيوش والأساطيل والحروب والمعاهدات والجواسيس والعملاء في السفارات والمراكز صانعة القرار.

و«القوى اليهودية» التلمودية في صورة الدونمة والماسون والكتاب والصحيفة والمحفل والتنظيم والنساء وبيوت المال وربما في رجال دين كعالم السوء الباطني «موسى أفندى كاظم» الذي أفتى بخلع المغفور له السلطان عبد الحميد.

وتحركت «القوى الثلاث» في مثابرة وتنظيم نحو الهدف المنشود.

شركة عالمية يتبادل فيها المؤسسون الأوربيون النظرات الشذراء - وقد يختلفون معاً لكنهم متفقون على آل عثمان، وكل منهم متحفز للنهش والقضم والابتلاع.

وسماسرة من اليهود والدونمة والماسون وإفرازات الغزو التنصيري وجواسيس مناستر وأبناء عاهرات سالونيك. وحملة أسهم بالقبض والعمالة أو قصر النظر من الحاقدين والمطايا والذيليين والسذج والأغرار.

وتحركت «القوى الثلاث» في مثابرة وتنظيم نحو الهدف المنشود. وكان لابد لإنجاز الدور من التعامل مع ثلاث جبهات في ذات الوقت :

جبهة الشعوب المسيحية في الولايات التابعة .. الشعوب الناطقة بالعربية. الأتراك أنفسهم.

وكان لا بد أن يتم التعامل مع العقيدة والتكوين ابتداء.

وزرعت الفيروسات الغريبة في الجسم العملاق لإحداث خلخلة في بنية الشخصية الإسلامية المتميزة، أي إحداث عملية «لخبطة» في ترتيب الذرات كيفاً لإنجاز «المسخ» حتى يتم تغيير طبيعة «الظاهرة».

وعندما تتغير الطبيعة من حالة إلى أخرى، نصبح أمام حالة فقدان الهوية.

وعندما أقول «فقدان الهوية» فإنني أعني ضياع الذات الشاعرة بوجود كيفي، وهو غير فقدان اللحم والعظم والدم، أي الكتلة الآدمية أو الوجود الجسمي، أي الانعدام المادي، أي قتل الكتلة وهو أمر عسير لا تقدر عليه كل القوى .. هي لا تستطيع بالقطع أن تبيد كل بشر الدولة العثمانية أو إيجاد مادة بشرية جديدة.

أما في الحالة الأولى فيتم الضياع بالتغيير الكيفي، أي التحويل من هوية

ما إلى هوية أخرى .. وهذا لا يتطلب سوى إعادة ترتيب الذرات في العقول والمشاعر والضمير، أي في الذات المسلمة فيصبح ذهناً ووجداناً مسخاً تحركه قوى معنوية داخلية مسيطرة. غير تلك التي اجتثت من قبل مع احتفاظه في نفس الوقت بخصائصه الجنسية والعرقية كتركي أو عربي.

وإذا كان الإسلام هو هوية الجماهير المسلمة من ترك وبربر وعرب وأكراد وألبان..

والرابطة الغلابة والوحيدة هي هذه الآصرة المستمدة من العقيدة الإسلامية وحدها وسقطت بفعلها كل فروق اللون والجنس والعصبية القبلية والإقليمية وكل مؤثرات المكان والزمان..

وصبغة الدولة هي الإسلامية .. جنسية ، وديناً، وتاريخاً، وثقافة ، ونظاماً، وتشريعاً، وغاية..

صبغت الدولة من السلطان خليفة المسلمين وإلى الجندي الغازي في سبيل الله .. صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة..

راحت القوى الثلاث تضاد الفكرة الإسلامية بنبتة خبيثة، هي «العروبية» وردة جاهلية هي «الطورانية».

كم هو تجلى!! .. دوائر ثلاث لقوى ثلاث!! .. وشركة ثلاثية!! .. والتعامل على ثلاث جبهات!!

وكان لكل من القوى الثلاث مصلحة في إعدام الوجود الكيفي لآخر دول الإسلام.

فالمستعمرون يريدون الأرض والمستعمرة والسوق والمواد الخام والطريق والإمبراطورية .. سواء أكانت إنجليزية أو نمساوية أو روسية أو ألمانية أو فرنسية .. والدولة العثمانية تحت سلطانها أغنى بلاد العالم وأجملها .. وهي في قلب الدنيا عقبة على الطريق كئود!!

والصليبيون يريدون هزيمة دين بعينه وأناس بذواتهم، ثأراً وحقداً على ما كان وتخوفاً مما قد يكون، ونشراً لدين يكرزون لأن يرتفع صليبه على الآفاق. والدولة العثمانية قائمة بأمر الإسلام، وهي في القلب من العالم في مركز الدنيا. عائق مانع لأن يلتقي طموح التنصير في الشرق الأقصى الوثني مع نصارى الغرب المسيحي المهتدي بالمخلص: يسوع المسيح!!

وأما طريق اليهود إلى القدس فلا بد أن يبدأ من الآستانة، لأن علم الخلافة على إسلام بول (إسلامبول) عقبة كئود أمام بني صهيون كي يمروا على جسر بنات يعقوب، فكيف الوصول إلى مملكة داوود وفلسطين في حمى أمير المؤمنين .. وواليها من قبل خليفة المسلمين يرصد كل وافد أجنبي إلى بيت المقدس فيطلب منه بعد حجه الرحيل!!

وعبر مسار دامٍ، دامَ ما يقرب من ثلاثة قرون توصلت القوى الثلاث إلى غايتها المشؤومة خلال سلسلة من العمليات على المستويات العسكرية والعقائدية والانقلابية. وكان دور كل من القوى المتحالفة ظاهراً بارزاً في كل عملية على حدة.

خذ مثلاً: تركيا الفتاة، أو الاتحاد والترقي - أي الفكرة الطورانية - وإفرازها الانقلابي.

فالفكرة تقليد ببغاوي للفكرة القومية الأوروبية وأساتذتها يهود صرحاء، وسدنتها طلائع الصهاينة المسمون بالماسون، والهدف الانسلاخ عن الإسلام وإلغاء الرابطة المستمدة من آصرة العقيدة الإسلامية واستبدالها بوشائج العرق أو الدم التركي وبعث ماضي بائد في شيء يقال له «يني توران» أي التورانية الجديدة.

والانقلابيون ماسون أعضاء في منظمة النيهلست اليهودية الدولية تزكيهم الجمعيات والمعابد الإسرائيلية منهم اليهودي الأصل أو الدونمة أو مجهولو النسب أو مغفلون مغرورون.

والاجتماعات تعقد في بيوت اليهود المنتمين إلى الجنسية الإيطالية في حماية المحاكم القنصلية الأجنبية متمتعين بما يسمى بحصانة الأجانب، أو تعقد في الأوكار التلمودية المسماة بالمحافل الماسونية أو في حانة القبو الداخلي لمقهى «جنوجنو» في سالونيك.

وأوراق عمالتهم مثبتة في السفارات الأوروبية أو وزارات الخارجية أو بيوت سرية أو دار المندوب السامي في مصر .. اللورد كرومر.

وسيطر الألمان على تشكيل تركيا الفتاة في سالونيك، بينما سيطر الإنجليز على اتحادي مناستر، ودخل الإنقلابيون الماسون الموالون للألمان الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، وبعد الحرب والهزيمة وتحطم الدولة وفرار العملاء صنعت الماسونية الموالية لإنجلترا بالاتفاق مع كل قوى عالم العدو (الصنم)!! الذي سيصبح أنموذجاً فيما بعد للأبطال المصنوعين عندما يحين ميعاد تسليم مفاتيح القلعة، بعد تصفية تركة الأسد الجريح الذي أطلقوا عليه اسم «الرجل المريض»!!

وخذ الفكرة العربية أو القومية العربية: فهي أوربية الصياغة، علمانية الهدف، ملحدة النهج، نصرانية المنبت - فقد كان ميلادها الوبيء في فتنة الموارنة في جبل لبنان عام ١٨٦٠ صليبية الرواد والأساتذة، ماسونية الغرس، يهودية التوجيه.

وكانت حضانتها في الكلية اليسوعية وجماعة سان لازار، وإخوان الصداقة، والجزويت، وكلية القديس يوسف، وكلية يسوع، وسان جوزيف في بيروت ودمشق وصيدا وزحلة.

وروج الماسون وطبعـوا منشـورات العروبية المضادة للفكرة الإسلامية التي صبغت الدولة العثمانية ملة وجنسية، ثقافة وانتماء، غاية وراية، توجهات وجهاد!!

ووجدت وثائق عمالة أعضائها في قنصليات إنجلترا وفرنسا في القاهرة ودمشق وبيروت.

وكان إفرازها القذر التمرد المؤامرة فيما سمي بالثورة العربية الكبرى!! طابوراً خامساً استخدمه الإنجليز من وراء خطوط المجاهدين الأتراك وهم يدافعون عن الحجاز والشام وفلسطين. - وقبضوا - حسب ما نشرته وثائق الخارجية البريطانية - أجرتهم دراهم معدودات.

وأدانت محكمة عالية - باعتراف أساتذة العروبية - قادتهم، بحق، بالخيانة العظمى حيث فضحتهم صور المخابرات بين السفارة الفرنسية، في الآستانة وبلاغات وزارة الخارجية الفرنسية والتقارير المقدمة إليها والتي جرت في السفارة أو القنصلية عن صور المحادثات والتعليمات والخطط التي يجب أن ينفذها قادة الثورة العربية عند مقابلة المواطنين العرب.

وكانت تلك الوثائق الفاضحة هي التي استند إليها ديوان الحرب العرفي يوم أدان العملاء.

وكان عبد الله بن الحسين يعرج على القاهرة، وهو نائب «مكة المكرمة» في مجلس النواب العثماني، ليتلقى تعليمات الإنجليز من دار المندوب السامي البريطاني، قبل ذهابه ليمثل الحجاز المسلم نائباً عنه في استانبول!!

وكان أولاد الحسين بن علي يقبضون الأموال من الإنجليز ويخفونها، عن والدهم، ووالدهم قائد الثورة العربية، يشكو للإنجليز أن أولاده لم يعطوه نصيبه في أجرة الخيانة، فيطيب الإنجليز خاطره ببضعة دنانير!!

ودخل أبناء الحسين بن علي برفقة اللنبي الصليبي الصهيوني إلى بيت المقدس، ورافقوا القائد الفرنسي إلى دمشق وصفقوا له وهو يركل بقدمه مثوى صلاح الدين!!

هذه هي العروبية .. نتانة المولد، وعفونة النهاية!!

* * *

الفصل الثاني

الالتفاف حول الأسد

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ..

(آل عمران : ١٧٣)

يقول «فازلييف»: «وفي سنة ١٤٥٣م سقطت القسطنطينية، روما الثانية، ودخلها السلطان محمد الثاني المنذر بقدوم الدجال وشبيه «سنحاريب»، وأقام الأتراك العثمانيون امبراطوريتهم العسكرية على أطلال الإمبراطورية الشرقية المسيحية، وكان لهذا الانتصار الذي أحرزه الإسلام على المسيحية أصداء بعيدة في روسيا النائية ووقع في روع كثير من الروس أنهم أصحاب التراث البيزنطي الثقافي فوجب عليهم لهذا الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ضد الإسلام» (فازلييف - بيزنطة والإسلام) ..

ومن يومها والروس في حالة استنفار عام ضد الدولة العثمانية القائمة بأمر الإسلام، واعتبر البابا في روما قيصر روسيا شريكاً في كل حرب صليبية ضد المسلمين.

أمسكت روسيا من البداية راية الحرب النصرانية المقدسة ضد المسلمين..

يقول «استيفان نيل Stephen Neill»: «إن المواقف الحادة من قِبَلِ الروس تجاه الإسلام قد قويت بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م ، إن موسكو الآن هي الوريث والبطل(!!) للعالم البيزنطي .. فمن الآن فصاعداً يشير حكام روسيا إلى موسكو على أنها روما الثالثة، ذلك أن روما الثانية -القسطنطينية- قد وقعت تحت سيطرة الترك. ولقد بقيت موسكو بمفردها ودعيت من الرب لتكون مركزاً للعالم النصراني في هذه الأزمان المتأخرة». (استيفان نيل - تاريخ الإرساليات المسيحية - صفحة ٢١٢)..

تزوج إيفان الثالث (١٤٦٢-١٥٠٥م) زوجته الثانية ابنة أخ آخر الأباطرة ولقب نفسه بالقيصر الإمبراطور واعتبر نفسه الخلف الشرعي للسلسلة البيرنطية (The legitimate Successor of the Byzantine line) وأنه «قسطنطين الثاني» ظل الله على الأرض!!

وعندما أخضع «إيفان الرابع» الملقب بالمرعب إقليم قازان للسيطرة الروسية ودخل مدينة قازان المسلمة كان أول عمل قام به تأسيس كنيسة مسيحية، وأما سكان المدينة فقد لاقوا أحد أمرين إما تعميدهم نصارى (Baptized)، أو طردهم ليحل محلهم الروس!!

وبعد أن رفع بطريرك القسطنطينية مرتبة موسكو إلى درجة البطريركية أصبحت الدولة الروسية والكنيسة الروسية شيئاً واحداً تحت قيادة الامبراطور الكاهن في خدمة الرب!!

وبدأ التوسع النشيط في خانات القرم المسلمة والتركستان المسلمة وسيبريا المسلمة!!

يقول استيفان نيل: «وتمكنت العصابات الروسية المسلحة بالأسلحة النارية من مد الحكم الروسي إلى سيبريا عام ١٥٨١م .. إن عملية التنصير (Christionization Process) استمرت طيلة ثلاثة قرون ومع ذلك فهي ليست كاملة حتى اليوم»!! (المرجع السابق ص٢١٣).

وشملت حرب استئصال المسلمين: الطرد والتهجير ومحاولة التنصير بالقوة. لكن تنصير المسلمين لم يكن كاملاً فحسب كما زعم «نيل» بل إنه لم ينجح إطلاقاً إلا ظاهرياً في قلة ضئيلة من بين ملايين المسلمين هناك اضطرت لإعلان الكفر باللسان فقط من جراء عمليات الإبادة الوحشية.

ودليلنا على ذلك ما قاله المبشر «جايردنر Gairdner» في مؤتمر التبشير الدولي:

«وفي روسيا، فإن إعلان الحرية الدينية في ١٧ إبريل ١٩٠٥ قد نتج عنه -كما أخبرتني سيدة روسية قامت بدراسة في هذا الموضوع- عودة خمسين ألف إلى الإسلام من «المهتدين» المتنصرين بالجبر والإكراه (Forced Comfro-mists) وكانوا قد اضطروا لاتباع الكنيسة اليونانية، وقد صحبهم عدد غير قليل اعتنقوا الإسلام لأول مرة .. ولا شك أن حوادث كهذه تحرك المسلمين في روسيا الأوربية ومناطق الفولجا وآسيا الوسطى الروسية وربما سيبريا نفسها».

[The World Missionary Conference - Missions and governments Volume 10 - Changes in the Character of the Missionary Problem - In the Mohammedan Lands] (Edinburgh June 1910, page 251)

(مؤتمر التبشير (التنصير) الدولي - الإرساليات والحكومات - تحولات في طبيعة المسألة التبشيرية (التنصيرية)!! في البلاد الإسلامية - المجلد العاشر - أدنبرة ١٩١٠ - صفحة ٢٥١).

أي أن الخمسين ألف مسلم الذين اضطروا للتنصير لم يعودوا إلى دينهم الغالي فحسب بل حوّلوا آخرين معهم إلى الإسلام لأول مرة!!

ويحذر جايردنر: «إن الأفكار كالكهرباء تنتقل بسرعة، خاصة إذا ما نقلتها خطوط السكك الحديدية .. لذا فإن خط السكة الحديدية الذي سيمر من التركستان الروسية إلى التركستان الصينية سينقل معه الأفكار. وعلى هذا فإن الطرق التجارية التي ستعبر قلب آسيا إلى الصين ستصبح في الحال أعصاباً تنظم وسط آسيا المسلم إلى نظام محكم لم يكن من قبل» !!

وسبحان الله !!

ما أروع شهادة المختصين بالتنصير!! فهل يفهم الأصفار!؟

أو ليس يعني ذلك أن المسيحية لا تنتشر حتى بين الوثنيين إلا بالقهر والذبح؟ وأن مجرد التخفيف من قبضة السلطة يعني طلاقها؟!

ثم -أيضاً- أليس ذلك يعني أن المسيحية لا تنتشر إلا في حارات مغلقة معتمة، موصدة عليها الأبواب، مسدودة إليها الطرقات!!؟ وإلا لماذا يحذر القسيس «جايردنر» من الطرق والسكك الحديدية التي تسهل نقل الأفكار!!؟

المهم باءت محاولات التنصير بالفشل الذريع !!

لكن المسلمين لم يتركوا الروس دون مقاومة رغم كل الظروف.

يقول القسيس المبشر «نيل»: «إن المسلمين التتار قد قاوموا المداهنات والتهديدات فقامت ثورة عارمة بين التتار في عام ١٦٥٠. ووجدت الحكومة أنه من الوقاحة نقل هؤلاء الغيورين الزائدي الحماس (Over-Zealous) إلى مناطق روسية صرفة»!! (ص٢١٦-٢١٧).

مع أن التتار عندما دخلوا روسيا لم يكونوا مسلمين .. لكنهم عندما اعتنقوا الإسلام افتدوه فداء الرجال!!

ويلوم المؤلف القسيس حكومة «بطرس الأكبر» أنها لم تنقل شعباً كاملاً كالتتار إلى مناطق روسية بحتة أو تجتثهم فلا تبقي لهم على أثر.

وواصل «بطرس الأكبر» مهمة أسلافه وزاد عليها فقدم ميزات خاصة لمن يتنصر بإعفائهم من النظام العسكري الكريه وقدم رشاوي وداهن الوثنيين.

وقد بدأ الاحتكاك الفعلي بين الروس والدولة العثمانية عند صدام الروس بالقرم المسلمة من أجل الاستيلاء على «استراخان»، و«قازان» اللتين تكونتا على أنقاض القبيلة الذهبية اليهودية في بلاد الخزر .. القبيلة الثالثة عشرة.

وساعد العثمانيون خانات القرم وبذلوا جهداً رائعاً لصد الروس إلا أن إيفان كما تقدم ظل يزحف جنوباً حتى القوقاز. وساعد الأتراك خان بخاري لمواجهة الغزو الروسي.

واستمرت الحروب بين العثمانيين والروس حوالي الستين عاماً متصلة منذ بداية الاحتكاك حتى انتهت بمعاهده «قصر شيرين» عام ١٦٣٩.

وعاود الروس بعد سنوات قلائل هجومهم على آسيا الوسطى المسلمة حتى استولوا على «كييف» في عام ١٦٨١.

وعلى طول جبهة البحر الأسود جاهد العثمانيون في مواجهة التحالف الأوربي المكون من روسيا والنمسا وبولندة والبندقية. ووقف الروس للمرة الأولى على شواطئ المحيط منذ عام ١٦٤٨ وانفتح الطريق إلى البحر الأسود أمامهم منذ استيلائهم على «آزوف» عام ١٦٩٦.

وهكذا انتهت حماية الأتراك لوسط آسيا المسلمة بعد أن تنازلت الدولة العثمانية نهائياً عن شبه جزيرة القرم وأصبح «نهر الدنيستر» حداً فاصلاً بين الدولتين.

أما الجبهة الغربية – جبهة الشعوب الأوروبية المتحالفة ضد الوجود الإسلامي هناك، فإن الثعبان الصليبي التف حول الجسم العملاق بعد نكسة ارتداد العثمانيين عن فيينا عام ١٦٨٣. وكانت تلك هي بداية انحسار الوجود العثماني في أوروبا وإن ظل باقياً هناك لمدة ثلاثة قرون.

دعا البابا «بيوس الخامس» إلى حلف كان هو أحد أطرافه وضم النمسا والمجر والألمان والصرب والروس وأسبانيا وبولندة وجمهورية البندقية، وأعلنت حرب مقدسة(!!) لاسترداد جميع الأقطار ومن بينها تونس والجزائر وطرابلس (هكذا!!). وهزم العثمانيون في خليج «ليبانتو» وكانت معركة من أخطر المعارك الصليبية التي واجهها الأتراك، وفي أعقابها سقطت مدينة «بودا» عام ١٦٨٦ بعد مائة وخمسة وأربعين عاماً من الحكم العثماني. وتلتها هزيمة «مهاج» في المجر واستيلاء النمسا على «بلجراد» عام ١٦٨٨.

وانتهت المعارك بمعاهدة كارلوفتش عام ١٦٩٩.

ومنذ تلك المعاهدة المشئومة تكالبت القوى الأوروبية للقضاء على الدولة العثمانية التي حملت راية الجهاد الإسلامي منذ أسسها «الغازي عثمان».

ومع ذلك استطاع الأتراك أن يصدوا هجوم روسيا والإمبراطورية النمساوية عام ١٧٣٧، ومعهما تحالفت أوروبا الصليبية، في بسالة رائعة منعت روسيا من الوصول إلى البحر الأسود.

واستمرت حركة الثعبان الصليبي حول الأسد الجريح!! وتوالت الأحلاف والهجمات والغزوات الأوروبية على جميع الجبهات.

وكان العدوان الفرنسي المسلح على مصر بقيادة «نابليون» ١٧٩٨ إشارة الضوء الأخضر لغزو الأقاليم الإسلامية من الدولة العثمانية والوصول إلى قلب العالم الإسلامي تحقيقاً لحلم قديم حاوله الملك الصليبي المهزوم «لويس» .. أسير دار ابن لقمان!!.

وإذا كانت بريطانيا قد ساعدت تركيا في إخراج فرنسا من مصر حماية لطرق مواصلاتها الإمبراطورية إلى الهند، فإنها هي - بريطانيا - قد أرسلت حملة بقيادة «فريزر» في سنة ١٨٠٧ لتجرب هي الأخرى حظها في الاستيلاء على مصر، وفشلت الحملة أمام المقاومة العنيدة، حيث لقيت في رشيد هزيمة منكرة.

وفي عام ١٨٠٦ اجتمع نابليون امبراطور فرنسا واسكندر الأول قيصر روسيا في تيلست (Tilist) قرب ساحل البلطيق لتقسيم تركة الدولة العثمانية التي أطلقوا عليها لفظ «الرجل المريض».

ولما حاول نابليون التقرب من تركيا، ورأت السياسة التركية أنها فرصة حيث يقع الأعداء التقليديون جميعاً في خلاف مع بعضهم بعضاً، طلبت انجلترا من تركيا أن تنضم إلى روسيا - عدوها التقليدي الرئيسي والأشد صليبية - وأن تعلن الحرب على نابليون، وتضع الأسطول التركي وحصون الدردنيل تحت إشرافها. ورفضت تركيا بالطبع، فأعلنت عليها بريطانيا الحرب، وبعثت بمظاهرة

بحرية يقودها الأدميرال «دكورث Duckworth» في مارس عام ١٨٠٧، اقتحم بها المضايق. لكن الجيش العثماني، في حصون البسفور، رده على أعقابه منهزماً، تطارده البحرية التركية، وحبطت المظاهرة، كما باءت بالفشل حملة «فريزر» من قبل.

وبعد هزيمة نابليون في واترلو عقدت القوى الأوروبية مؤتمر فيينا وقد حضرته تركيا والنمسا وألمانيا وإنجلترا وروسيا وغيرها .. لتسوية مشكلات ما بعد الحرب.

لكن المؤتمرين أضافوا مشكلة سموها بعينها .. وهي «المسألة الشرقية» وتعني تصفية الوجود الإسلامي في أوروبا.

واختلفت القوى الصليبية على النصيب الأكبر من الأراضي العثمانية .. وآثرت تركيا ألا تطلب ضمان استقلالها من الذئاب لما رأته من روح العداء التي سادت المؤتمر في مواجهة الأسد الجريح .. وتخوفت روسيا من إثارة المسألة لأنها كانت تريد لنفسها السيطرة غرباً وجنوباً على حساب الدولة العثمانية في المناطق السلافية وأرمينيا..

وهكذا خرجت تركيا من المؤتمر بممتلكاتها .. أما المضايق فقد ظلت الحالة كما هي حيث كانت تحكمها معاهدة «كجوك قيناردجي» المبرمة عام ١٧٧٤ والتي تسمح بحرية المرور لروسيا في البحار والمضايق التركية مع سيطرة الدولة العثمانية عليها .. وتأجل حل المسألة الشرقية ليوم مرصود.

وثارت اليونان بتأييد من كل الدول الأوروبية وحدثت المذابح الإغريقية التركية. وانتشر الصحفيون والكتاب والشعراء من كل أصقاع أوروبا يحرِّضون الرأي العام الصليبي شعراً ونثراً لأن يقف وقفة أمة نصرانية موحدة لإنقاذ الأمة الهيلينية صاحبة الفضل القديم والباعث لحركة الإحياء والنهضة. وتكون حلف من دول أوروبا الكبرى مثل إنجلترا وفرنسا وروسيا.

واستعان السلطان العثماني «محمود» بمحمد علي والي مصر الذي جهز حملة بقيادة ابنه إبراهيم. واستولت الحملة على جزيرة كريت وأسقطت حصون المتمردين في المورة.

وطلبت الدول النصرانية من السلطان منح اليونان استقلالاً ذاتياً ومن محمد علي وقف القتال .. ورفض السلطان فتقدمت القوات الصليبية المتحالفة بقيادة «كدرنجتون» ودارت معركة نافارين البحرية التي دُمِّرَ فيها الأسطول المصري.

وأوعزت فرنسا إلى محمد علي أن يسحب قواته ويلزم الحياد!! وأعلن السلطان الجهاد المقدس ضد الروسيا فاشتعلت الحرب بينهما في عام ١٨٢٩ وانتهت بمعاهدة لندن التي أدت إلى منح اليونان الاستقلال التام عام ١٨٣٠.

وغزت فرنسا الجزائر في سنة ١٨٣٠ واستولت عليها وضمتها جزءاً من الوطن الفرنسي!! في وقت لم يلتقط فيه الجيش العثماني نفسه من حرب المورة وبداية مواجهته تمرد محمد علي والي مصر!!

وانتهى الصراع بين الدولة العثمانية ومحمد علي بمعاهدة لندن ١٨٤٠ التي نَظَّمت العلاقة بين الباب العالي والوالي وقد حضرتها كل الدول الأوروبية الكبرى التي تعهدت بالاعتراف بحدود الدولة العثمانية وسيادتها على أرضها. لكن روسيا لم تتقيد بهذه المعاهدة ونصبت نفسها حامية لرعايا الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية في ولايات الروملي وفلسطين!!

وأوعزت روسيا إلى الأرثوذكس في بيت المقدس لافتعال فتنة طائفية. وحدثت الفتنة رغم ضبط النفس من جهة الوالي التركي والمسلمين.

وأعلنت روسيا في ضرام الفتنة حرب القرم، وطالبت بما يسمى «حل مشكلة الأماكن المقدسة» وأن يكون لها الولاية على «القبر المقدس» - الذي ما أبقاه وجوداً وقداسة!! إلا تسامح المسلمين!!

واشتعلت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا في عام ١٨٤٥ ودامت حوالي عشر سنوات.

وخلال تلك الحرب أعلن القسيس «دانلو» الرئيس الديني للجبل الأسود استقلال الإقليم في عام ١٨٥٥ ونادى بنفسه ملكاً ترثه أسرته، وأرسلت تركيا حملة لإخضاع الولاية المنفصلة فطلبت روسيا عقد معاهدة منفصلة لتسوية مسألة الأماكن المقدسة في فلسطين والاعتراف بالبطريرك الأرثوذكسي رئيساً دينياً مستقلاً لكل عموم الأرثوذكس في الدولة العثمانية، ورفض السلطان هذه المعاهدة المناقضة لمعاهدة لندن فأرسلت روسيا قواتها إلى الدانوب.

وأعلن السلطان - بصفته خليفة المسلمين - الجهاد المقدس وثارت الحمية الدينية في جميع أنحاء البلاد وهُزمت روسيا عند نهر «ألما» وعقدت معاهدة باريس في عام ١٨٥٦ التي حَيَّدت البحر الأسود ومنعت تواجد الأساطيل الحربية فيه وحَرَّمت تحصين ثغوره على أن تضمن الدول -الذئاب- استقلال الدولة العثمانية!!

وأثمرت الإرساليات التبشيرية، وحسن معاملة الدولة العثمانية رعاياها من غير المسلمين أحداث لبنان - أو الفتنة الطائفية بين الموارنة والدروز - عام ١٨٦٠. ووصلت أساطيل الدول الأوروبية إلى الشاطئ السوري لحماية نصارى لبنان من خطر موهوم!!

وأرسلت الدولة أحد رجالها للتهدئة وصدر مرسوم سلطاني - خط همايون - يقضي بتقسيم سوريا إلى ولايتين: ولاية دمشق، وولاية جبل لبنان يحكمها متصرف مسيحي يعاونه مجلس. ثم أُعيدت سوريا فيما بعد إلى نظام الولايات الأربع: دمشق وحلب وبيروت وبيت المقدس.

والعجيب أن يثني الدكتور جلال يحيى على فتنة نصارى لبنان، ويعتبرها نقطة البداية وخميرة النبتة القومية والوطنية، فهو يقول في كتابه «الثورة العربية - دار المعرفة» (ص٣٩ - ٤٠) :

«كانت ثورة عام ١٨٦٠ وتسوياتها سبباً في تقليل سلطة رجال الدين ورجال الإقطاع على الشعب السوري، ولكنها سمحت للدول الأوروبية بالتدخل في شئون سوريا وخلقت بذلك سابقة خطيرة لهذا الإقليم.

وبدأت بذور الوطنية الأولى في الإنبات واتخذت شكل الأماني القومية التي ستزداد صلابة وتبلوراً مع الزمن»!!

بذرتنا!! القومية - إذن - نبتت في فتنة لبنان!!

ولادة قذرة .. ومخاض وبيء!!

وفي ٣٠ مايو ١٨٧٦ عزل الماسون وجواسيس الدول الأجنبية السلطان عبد العزيز - فيما سيأتي بيانه في الفصل التالي - وفي الفوضى الضاربة ثار السلاف في البوسنة والهرسك والصرب وبلغاريا بتحريض من روسيا..

وتولى السلطان عبد الحميد الحكم في سبتمبر ١٨٧٦ بعد فراغ في السلطنة، والدولة لم تكد تفرغ من حرب الصرب والجبل والأسود، والقلاقل والفتن منتشرة في الأقاليم المسيحية، والعاصمة تموج بالاضطرابات، وبعض كبار رجال الدولة متورطون - بالإضافة إلى ماسونيتهم - في علاقة عمالة مع الدول الأجنبية .. وبريطانيا بالذات.

وأعلنت الدول الأوروبية في هذا الجو الفاسد أنها مضطرة!! إلى التدخل العسكري لمؤازرة المتمردين في الولايات المسيحية. واجتمع ممثلوها في الآستانة فيما عرف بمؤتمر «الترسانة»!! وأعلن «جلادستون» من لندن أن على الأتراك أن يرحلوا من أوروبا بقضهم وقضيضهم!!

وأطلقت المدفعية العثمانية طلقات إعلان الدستور العثماني غداة اجتماع ممثلي الدول الأوروبية في استانبول!! وانتفى بذلك الغرض من المؤتمر الصليبي في العاصمة العثمانية طالما أن الدستور سيضمن للرعايا المسيحيين نفس حقوق المسلمين في التمثيل السياسي لدى المبعوثان (مجلس النواب)!!

لكن روسيا رفضت السكوت! وأعلنت الحرب. وتحركت عبر رومانيا واجتازت نهر الدانوب إلى البلقان واحتلت أدرنة ووصلت إلى مسافة عشرة أميال من الآستانة!! وخسرت الدولة العثمانية هذه الحرب، رغم الدفاع البطولي الرائع للجنود العثمانيين ولبعض القادة، مثل الغازي عثمان الذي استعاد حصن «بلڤنا» أو «بلاونة» من الأعداء. وخسر الروس عشرة آلاف قتيل!! في مقابل ألف شهيد تركي.

ووقعت الحكومة التركية معاهدة «سان استيفانو» فقد الأتراك بموجبها كل الولايات الأوروبية ووافقوا على إنشاء دولة بلغارية تكون تابعة للروس مع احتلال قارص وباطوم في أرمينية .. لكن السلطان عبد الحميد رفض التوقيع على هذه المعاهدة وأعلن عدم الاعتراف بها.

وكانت السياسة البريطانية وعلى رأسها اليهودي دزرائيلي -رئيس الوزراء- تخشى من وصول الروس إلى المياه الدافئة .. وتدخلت ألمانيا الناهضة والتي اجتهد السلطان عبد الحميد في تحييدها في الصراع وتأييده. وهكذا رفض كل من دزرائيلي وبسمارك المعاهدة!!

وانعقد مؤتمر في« برلين» في عام ١٨٧٨ برياسة بسمارك. وتمكنت بريطانيا من الحيلولة دون إنشاء دولة بلغارية كبرى ودولة أرمينية خاضعة للروس. وكان نتيجة هذا المؤتمر معاهدة «برلين» التي قررت منح البوسنة والهرسك للنمسا والاستقلال النهائي لرومانيا والجبل الأسود والصرب وتظل السيادة التركية على بلغاريا الجنوبية أما الشمالية فتستقل استقلالاً تاماً.

واحتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١، واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢.

ويتحدث «استيفان نيل» في كتابه «تاريخ الإرساليات المسيحية» عن مؤتمر عقد في برلين عام ١٨٨٤ بشأن المسائل الاستعمارية، حضرته كل القوى الرئيسية، وقد لفت فيه بسمارك نظر القوى المجتمعة إلى مسئولياتها في تشجيع الإرساليات التنصيرية وبعض المشروعات التي تخدم نشر المعرفة المفيدة!!

وكان في المؤتمر تيار يأمل أن يصدر إعلان خاص عن الهدف المسيحي من جانب القوى، لكن نظراً لاشتراك تركيا في المؤتمر فقد كانت قراراته بشأن العقيدة تورية وتلميحاً، لا تصريحاً. ومع ذلك فإن ما كسبته المسيحية كان ذا مغزى رائع .. لقد صدر ميثاق يتيح حرية العمل للإرساليات المسيحية في إفريقيا الاستوائية (ص٤٢٦).

وتكونت ميليشيا المسيح (Militia of Christ) المسلحة لتسافرْ مع القوافل لنشر المسيحية في الصحراء الكبرى التي تسيطر عليها القوى الأوروبية .. وكان على «ميليشيا المسيح» أن تؤسس المملكة المسيحية .. فلقد مضت سنوات طويلة منذ الحروب الصليبية!! (ص٤٢٧).

وباستقرار السلطان عبد الحميد في السلطة وتبنيه سياسة عالمية بعيدة النظر - سنشير إليها في الفصل التالي - ظلت الدولة العثمانية محافظة على ما تبقى تحت لوائها من الأرض في آسيا وإفريقيا وأوروبا .. منذ آخر اقتطاع استعماري بالاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢.

واستمر عمل القوى الأوروبية، مجتمعة لإثارة الاضطرابات من داخل الدولة .. ولكل قوة مجال عملها :

تولت النمسا إثارة الشعوب البلقانية باسم «مبدأ القوميات» لأنها كدولة كاثوليكية لا تستطيع أن تهيج شعوب البلقان الأرثوذكس باسم الدين.

وتولت روسيا العمل في جبهة البلقان باسم الدين فالمنطقة بصفة عامة أرثوذكسية .. والروس هم ورثة الكرسي الأرثوذكسي في روما الثالثة .. موسكو!!

وفي باطن الأناضول تعاملت القوى الصليبية مع الأرمن لإثارة ما سمي بالمسألة الأرمينية !!

كان الروس يرسلون جواسيسهم في صحبة قساوستهم ومعلميهم إلى الأرمن الأرثوذكس، ويتصل الفرنسيون بالأرمن الكاثوليك، وشكل الفرنسيون والإنجليز أول جمعية أرمينية إرهابية في باريس، وعمل الهاربون من عصابة «تركيا الفتاة» مع الجمعيات الأرمينية في الخارج وقبضوا منهم. واشترك الوطنيون الأتراك (هكذا!!) مع الأرمن ليس في تخريب الدولة العثمانية بصفتها الجامعة فحسب، ولكن في تخريب الوطن الأم« الأناضول» الذي لا يشكل فيه الأرمن في أي قرية أو مدينة أو قصبة أو إقليم أغلبية تسمح حتى بالحكم الذاتي. وكان تعاونهم الإنساني!! أكبر دليل على وطنيتهم!! إلى الحد الوطني الذي جعلهم يهللون شعراً لمخرب أرمني ألقى قنبلة على السلطان (سلطان الترك) وخليفة المسلمين وهو خارج من صلاة الجمعة !!.

ودخلت الدولة العثمانية بالانقلاب اليهودي الماسوني في طور آخر. فاحتلت إيطاليا ليبيا، وفقدت الدولة كل ولايات البلقان ولم يتبق إلا الشريط الأوروبي الضيق المحيط بالعاصمة، وبدخول حكومة «الاتحاد والترقي» الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا والنمسا فقدت الدولة العراق والشام وفلسطين التي تسلمها هرقل الجديد!!..

* * *

الفصل الثالث

العقبــة إلى صهيــون ..
الطريق إلى أورشليم عبر الآستانة

يبدأ «البروتوكول» الثالث من «بروتوكولات حكماء صهيون» بقوله: «أستطيع اليوم أن أؤكد أننا على مدى خطوات قليلة من هدفنا ولم تبق إلا مسافة قصيرة كي تتم الأفعى الرمزية (Symbolic Serpent) شعار شعبنا - دورتها، وحينما تغلق هذه الدائرة ستكون كل دول أوروبا محصورة بأغلال لا تُكسر».

و«الأفعى الرمزية» هذه المذكورة تمثل إسرائيل، رأسها يرمز إلى حكماء صهيون مخططي المؤامرة اليهودية، والجسم يرمز إلى الشعب اليهودي، وتذكر المحادثة التاريخية (Historical Discourse) نص ماسوني معتمد - والتي تتضمن ترجمة خاصة عن الانتقال المخلص للأسرار «الماسونية» منذ عهد سليمان إلى الحروب الصليبية، أن سليمان وعلماء اليهود قد فكروا - على أساس من الخطة الصهيونية السرية سنة ٩٢٩ق.م. في تخطيط السيطرة على العالم سلمياً وتدميره من داخله بأدوات محلية تمهيداً لقيام «مملكة صهيون العالمية» التي يجلس على عرشها الملك اليهودي المنحدر من بذرة داوود.

وفي مناقشته للدرجة الثالثة للماسونية المختارة: (Emblematical Masonry) يقول الحبر الماسوني «آرثر إدوارد Arthur Edward» في كتابه «موسوعة جديدة في الماسونية» (A new Encyclopaedia of Freemasonry).

«ينفتح المحفل في منتصف الليل لكن شمساً تشرق عليه لأنه في ضوء المسيحية التام كان «الفرسان» مكرسون نهاراً، إما لقتال الكفار (يقصد المسلمين أثناء الحروب الصليبية) أو لأعمال الضيافة (يقصد للعصابات الأوروبية المقاتلة تحت قيادة ريتشارد) أما في منتصف الليل فكانوا يعطون تقارير عن تقدمهم (إنجازاتهم الخسيسة كطابور خامس يقوم بالتخريب واغتيال المجاهدين الذين كانوا يصدون الغزوة الصليبية).. وجاء الوقت الذي توّحدت فيه الماسونية المختارة مع درجة القديس «جون المقدس» وبهذه الطريقة، التي انتقلت من خلال الملوك والنبلاء الصليبيين، بدأت تعرف في أوروبا وافتتحت وتأسست المحافل في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وإنجلترا حيث انتقلت إلى اسكتلندة وتأصلت في «كيلوينتج Kilwinning» وعندما عاد إدوارد الأمير الأسود من الحملة الصليبية الثامنة أصبح الحامي والمدافع عن الطبقة التي اتخذت اسم الماسونية».

وعن الماسونية الرمزية (Emblematical Masonry) يقول: «إن الموطن الأصلي والتاريخي للماسونية الرمزية يجب ألا يغفل .. يقال إن الكثيرين قد استقروا في إنجلترا واسكتلندة لكن مركز الجميع بقي مع ذلك في فلسطين، وعندما حان الوقت لملوك وأمراء أوروبا ومؤمنيها (الصليبيين) لأن يخلصوا أورشليم من عبء الكفر والأوغاد (الإسلام والمسلمين) حُكِيَ لنا أنهم عرضوا خدماتهم في ذلك المشروع الجليل (الحروب الصليبية) وأن الماسون من الدرجة السامية قد قاموا بمعجزات لا نظير لها من الشجاعة والبسالة (يقصد دورهم كطابور خامس من خلف جيش المسلمين) وكانت إحدى النتائج أن الملوك والنبلاء الصليبيين، قد توسلوا ملتمسين في إلحاح وأحرزوا الدخول في الماسونية».

ويقول «آرثر إداورد»: «إن فرسان فلسطين الذين كانوا أكثر من ذلك: أسلاف وآباء ومؤسسي الأخوة الماسونية، كانوا الشهود المحزونين لكل تلك الكوارث والمصائب التي أسقطت مملكة يهوذا.. لقد شُتِّتُوا في أماكن سرية

عديدة حيث طردتهم مؤامرة الأحداث المشئومة والخراب التام للأمة اليهودية.. ومن وسط تلك الظروف انتظروا ثورة ما في المستقبل .. الثورة التي يجب أن تضعهم مرة أخرى في حوزة ميراثهم -ميراث أسلافهم- وتمكنهم للمرة الثالثة من بناء معبدهم المقدس ليستأنفوا أعمالهم في دائرته المباركة».

وطبقاً للمحاضرة التاريخية (Historical Lecture) فإن قرار قورش الذي حرَّر اليهود الأسرى. كان إذناً وترخيصاً لهم بحرية العمل. كذلك يهتم هذا النص اليهودي التاريخي بخراب أورشليم ومعبدها المقدس على يد «نبوخذ نصر» لأن سردها وتلاوتها يعتبر إعداداً للفكرة المثيرة والمقدسة لإعادة البناء الديني الغيور والمعجب لبيت الرب.. فأول بيت للرب شيَّده سليمان يمثل حالة من الكمال .. إنه هو الذي بني في قلوب وأرواح الإخوة .. لقد خرب بيت الرب وسقطت المدينة والأمة (يعني القدس واليهود) .. يقال إن جزاء الخطيئة هو الموت، وعلى ذلك كان الأسر والسبي في بابل حتى جاء اليوم عندما تذكر الماسون صهيون وبكوا على ضفاف المياه المرة» !!

(راجع: آرثر إدوارد «موسوعة جديدة في الماسونية» ص٢٦٧-٢٨٥).

* * *

وهكذا سقطت أوروبا في حوزة الماسون ومنذ الحروب الصليبية.

ولقد كان نابليون صادقاً عندما قال قولته الشهيرة: «يجب أن نعترف أن الدنيا تُدار من قِبَلِ المنظمات السرية»..

وكانت الثورة الفرنسية -ومن نصوص البروتوكولات- إحدى الإنجازات الماسونية الكبرى:

«تذكروا الثورة الفرنسية التي نسميها «الكبرى» إن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا. ونحن من ذلك الحين نقود الأمم قُدُماً من خيبة إلى خيبة، حتى أنهم سوف يتبرأون منا، لأجل الملك

الطاغية من دم صهيون، وهو الملك الذي نعده لحكم العالم. ونحن الآن -كقوة دولية- فوق المتناول، لأنه لو هاجمتنا إحدى الحكومات الأممية لقامت بنصرنا أخريات».

(بروتوكولات حكماء صهيون - البرتوكول الثالث - ترجمة محمد خليفة التونسي، ص١٣٨-١٣٩).

ويتحدث آرثر إدوارد في «موسوعة جديدة في الماسونية» عن دور الماسون من درجة فرسان المعبد في الثورة الفرنسية وأنهم كانوا يخططون ويهدفون إلى تحطيم الحكومة الملكية في فرنسا وإلى تحطيم العقيدة الكاثوليكية وخلص إلى القول:

«ببساطة يمكن أن نضع الفرض هكذا .. إن الماسون من درجة فرسان المعبد، كانوا يهدفون إلى ثورة في فرنسا، وأن تلك الثورة الفرنسية قد جاءت» (ص٤٣١).

"Put quite Simply the thesis was that the Templar Grades aimed at revolution in France and that French Revolution Came" .

وقد كان الإمبراطور الألماني «ويلهلم»، وأمير ويلز البريطاني - ولي العهد- من المنتسبين إلى المحافل الماسونية!!

وقلنا في دراستنا الموثقة «الماسونية .. عقدة المولد وعار النهاية»، وفي فصل بعنوان «العقيدة .. والتراث .. والرموز»:

«تنطلق الفكرة الرئيسية للماسونية من العقيدة اليهودية وتتحرك في إطار التاريخ اليهودي.

فالطقوس الماسونية تستمد وحيها من التراث اليهودي، والرموز الماسونية تمثل الفكر والثقافة اليهودية، والمفهوم الماسوني عن الألوهية مبني على الأسطورة الإسرائيلية.

وحكاية اليهود الصحيحة والمزعومة يُعاد صياغتها وتقنينها وتمثيلها في كل المحافل الماسونية في جميع أنحاء العالم.

والماسون مرتبطون في أوكارهم وأنشطتهم في الحياة الخاصة والعامة بقصص وخرافات العصر الذهبي لليهود، يعيشون ذكرياتها، ويتمثلون تاريخها، ويحاولون إحياء هذا الماضي بأساطيره ومزاعمه. ويندب الماسون قدر اليهود ويرثونه ويتفجعون عليه في نواح الثكالى»..

وفي فصل بعنوان «الهيكل .. ألف وياء المحفل»:

«أما المعبد الإسرائيلي -هيكل سليمان- تاريخه وبناؤه، هندسته وخرابه، إعادة بنائه ثم تدميره للمرة الثانية والحنين إلى بنائه من جديد، فهو الفكرة المركزية وحجر الزاوية وبؤرة كل الشعائر والمراسم والطقوس في الماسونية ....

وأما البناء الثالث للهيكل فهو الهدف الأسمى ونهاية الأرب عند الماسون .. ألف وياء المحفل».

والتهمت الخطة الصهيونية السرية - وطليعتها الماسونية - كل القوى العالمية لكي تكمل الأفعى عملها حتى يغلق الطريق بعودة رأسها إلى صهيون، وحتى تكون الأفعى بهذه الطريقة قد أكملت التفافها حول أوروبا وتطويقها، وتكون لشدة تكبيلها أوروبا قد طوّقت العالم أجمع، فعودة رأس الأفعى إلى صهيون لا يمكن أن تتم إلا بعد أن تدخل كل القوى الأوروبية في المصيدة وفق عناصر الخطة من الأزمات الاقتصادية والفتن والحروب وبيوت المال والصحافة والفكر والمجندين الماسون في جميع المراكز صانعة القرار، والنساء اليهوديات المتنكرات في صور الفرنسيات والإيطاليات.. وما إلى ذلك ...

ويوضح «سيرجي نيلوس Sergyei Nilus» أول ناشر لبروتوكولات حكماء

صهيون خط سير طريق الأفعى الرمزية كما يلي :

«كانت مرحلتها الأولى في عهد بروكليس في بلاد اليونان سنة ٤٢٩ ق.م حيث شرعت الأفعى تلتهم قوة تلك البلاد.

وكانت المرحلة الثانية في روما في عهد أغسطس حوالي سنة ٦٩ ق.م.

والثالثة في مدريد في عهد تشارلس الخامس سنة ١٥٥٢.

والرابعة في باريس حوالي سنة ١٧٠٠ في عهد الملك لويس السادس عشر.

والخامسة في لندن سنة ١٨١٤ وما تلاها (بعد سقوط نابليون).

والسادسة في برلين سنة ١٨٧١ بعد الحرب الفرنسية البروسية.

والسابعة في سان بطرسبرج التي رُسِمَ فوقها رأس الأفعى تحت تاريخ ١٨٨١.

كل هذه الدول التي اخترقتها الأفعى قد زلزلت أسس بنيانها، وألمانيا – مع قوتها الظاهرة –لا تُستثنى من هذه القاعدة. وقد أُبْقِيَ على إنجلترا وألمانيا من النواحي الاقتصادية، ولكن ذلك موقوت ليس إلا، إلى أن يتم للأفعى قهر روسيا التي قد ركزت عليها جهودها في الوقت الحاضر، والطريق المستقبل للأفعى غير ظاهر على الخريطة، ولكن السهام تشير إلى حركتها التالية نحو موسكو وكييف وأُدسا.

ونحن نعرف الآن جيداً مقدار أهمية المدن الأخيرة من حيث هي مراكز للجنس اليهودي المحارب. وتظهر القسطنطينية كأنها المرحلة الأخيرة لطريق الأفعى قبل وصولها إلى أورشليم. ولم تبق أمام الأفعى إلا مسافة قصيرة حتى تستطيع إتمام طريقها بضم رأسها إلى ذيلها».

كان لا بد إذن لكي تضم الأفعى رأسها إلى ذيلها في المسافة القليلة الباقية من المرور بالقسطنطينية للوصول إلى أورشليم!!

لكن القدس في حمى خليفة المسلمين .. فكيف الوصول إلى حماه!؟

القدس في حماية الدولة القائمة بأمر الإسلام .. الدولة العثمانية منذ فتح السلطان سليم الأول فلسطين في عام ١٥١٦ فأصبحت جزءاً من الدولة المسلمة الواحدة. وقد مضت الآن أربعة قرون متواصلة كانت فيها أُوْلى القبلتين في حراسة السلطان العثماني خليفة المسلمين الذي يحكم من حاضرة الخلافة «استانبول».

كان لا بد إذن من تحطيم الدولة العثمانية، ويوم تسقط «الآستانة» ستسقط تبعاً لذلك «القدس» في أيدي اليهود!!

وزُرِعت الفيروسات التلمودية في الجسم العملاق من خلال الدخلاء من اليهود والأجانب رجالاً ونساء وقد غيروا أسماءهم بأسماء إسلامية، وعملوا بمساعدة المحافل الماسونية وبتأييد من القوى الأوروبية على الارتقاء في المناصب، وتغلغلوا في شِعاب البِنْيَةِ السياسية والاجتماعية والفكرية والعسكرية والاقتصادية للدولة حتى وصل بعضهم إلى أعلى المناصب ومنها الصدارة العظمى - أي رئاسة الوزارة - ووزراء وولاة وقادة جيوش وقادة المدارس العسكرية.. وقد وجدوا في معطيات الماسونية الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية أو الألمانية فلسفتهم ومثلهم وحركتهم، ومن الخارجية البريطانية قبضوا الأموال ونفذوا بالدعم والمساندة مخططات كل قوى عالم العدو لتدمير الدولة من داخلها.

وعُرِفَ اليهود الذين تظاهروا بالإسلام وتستروا من وراء أسماء إسلامية بطائفة «الدونمة».

والدونمة، كلمة تركية تعني المرتدين (Apostates) أي الذين غَيَّرُوا دينهم من اليهودية إلى الإسلام تمييزاً لهم عن مسلمي الأتراك الأصلاء. وكانت مهمة هذه الطائفة ذرع الفيروسات الغريبة وتنشيطها، ونشرها في جميع أطر الدولة وتنظيماتها السياسية والعسكرية والثقافية، وقد أدخلوا في الجيش كثيراً من

عناصرهم وأغووا عدداً من الضالين والحاقدين والأغرار.

وظلت هذه الطائفة محتفظة بتراثها الإسرائيلي وتقاليدها اليهودية .. وإن بقي ذلك في زمانه سراً على الناس.

لكن «سيسل روث Cecil Roth» في كتابه «الموسوعة اليهودية المثالية» (The Standard Jewish Encyclopaedia) هتك الستر عن ذلك السر.

يقول روث : «إن الدونمة - طائفة إسلامية يهودية ومنهم «جافيد بك» (١٨٧٥-١٩٢٦)، الذي تكرر تعيينه وزيراً للمالية - قد قاموا بدور رئيسي قيادي في ثورة الشبان الأتراك عام ١٩٠٩ تلك الثورة التي نظمها وأوحى بها ووجهها الماسون .. وكانت طقوسهم وشعائرهم باللغة الأسبانية اليهودية قد بقيت سراً عميقاً لكنها وضعت حديثاً تحت الأضواء وأمام النظرة العامة» (ص٥٧١-٥٧٢).

وظهر في منتصف القرن التاسع عشر من سموا بالأحرار العثمانيين أو العثمانين الجدد، وظهر الفساد الماسوني في العهد المسمى بعهد التنظيمات بدأه «السلطان محمود» وأكده وأعطاه صفة الشرعية «السلطان عبد المجيد»، الذي أصدر فرماني التنظيمات عامي (١٨٥٤-١٨٥٦) وبهما تم استبعاد العمل بالشريعة الإسلامية واستلهام روح الغرب في الحياة والفكر الغربي في التقنين وإقامة المؤسسات.

وينسب محمد حرب عبد الحميد للماسوني «رشيد باشا» - الصدر الأعظم في عهد السلطان عبد المجيد - أنه وَجَد في الماسونية مُثُله وفلسفته، وفي روح الغرب قيمه وحركته، وأنه هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عملية التغريب . (مقدمة مذكرات السلطان عبد الحميد - ص٣).

وصنعت القوى اليهودية من بعض الجواسيس المتسكعين في عواصم الغرب

ساسة وأعلاماً وكتاباً وأدباء وشعراء ومفكرين .. هرّبتهم المحافل الماسونية إلى العواصم المعادية وفي مقدمتها لندن وباريس وبرلين وسان بطرسبرج. ومن هناك راحوا يصدرون صحفهم ومنشوراتهم ويحاربون الدولة ويطلعون أعداءها على أسرارها تاركين أسرهم في إعالة اليهود في الداخل، وتنفق الأوكار الصهيونية عليهم وعلى صحفهم وتروج ادعاءاتهم في الخارج.

ومن هؤلاء: الطبيب الفاشل الدكتور نظمي السلانيكي وإبراهيم تيمو وإسحاق شكوتي وبهاء الدين شاكر وعبد الله جودت ورحمي السلانيكي وأحمد رضا - الذي زكته الجمعية الإسرائيلية في مصر ليرأس جمعية الإتحاد والترقي!! - وأبو الضياء بك - مؤلف «الأمة الإسرائيلية»!! ومحمد توفيق فكرت -الذي قال في ابنه الشعر، وتنصر هذا الابن وصار من رجال الدين المسيحي في أمريكا - والصحفي المدعو مراد أو «الميزانجي» - نسبة لصحيفته «الميزان» - وكان عميلاً للسياسي الإنجليزي «سالسبوري» .. وقد هرب إلى بطرسبرج ثم إلى باريس ودعاه اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر المحتلة .. وغيرهم من الأسماء الوبيئة وأغلبهم من الدخلاء أو «البهائم العاملة» كما يسميها التلموديون .. ومن منتسبي المحفل الماسوني الإيطالي.

وراح الماسوني مدحت باشا أيام أن كان والياً على الطونة، يحمل معه رجس الخراب إلى بلاد البلقان ليضع زيتاً على النار المشتعلة هناك فقرر أن تكون اللغة البلغارية لغة الدراسة في جميع مراحل التعليم. نشر ذلك والتزم به. وأمر بإضافة الصليب على العلم العثماني ذي الهلال والنجمة!! وهكذا أصبح الوالي التركي يشجع حركة الانفصال، وفي فترة توليه ولاية الشام أنشأ هناك المحافل الماسونية التي انتسب إليها قادة النبتة الخبيثة المسماة «القومية العربية» من نصارى الشام والمغربين عقلاً وضميراً .. مشاعر وذوقاً من المغفلين المسلمين خريجي مدارس التنصير في إرساليات بيروت وزحلة وصيدا ودمشق. وقد عمل «مدحت باشا»!! على تضخيم المشاكل في سوريا إذكاءً لروح الانفصال

والتعصب المقيت عند نصارى لبنان.

(راجع: جورج أنطونيوس (George Antonius)، في كتابه «النهضة العربية» (The Arab Awakening) - نيويورك، ١٩٦٥ - ص٧٩-٨٠).

وكان كل الناقمين على الدولة من الماسون يمرون على قصر مدحت جيئة وذهاباً من وإلى أوروبا واعتبره المخربون المسمون «تركيا الفتاة» والجيل التالي لهم من عصابة «الاتحاد والترقي» اليهودية الماسونية مثلهم الأعلى!!..

واتخذ السلطان عبد العزيز إجراءات فعّالة لتقوية الجيش والأسطول وأنشأ ترسانة جديدة للأسلحة، وخاف الروس من قوة الجيش كما خشي الفرنسيون والإنجليز قوة الأسطول، وقد ظهرت قوة الجيش في حرب الصرب والجبل الأسود وفزعت القوى المتحالفة من صليبيين ويهود وهي ترى روح الجهاد تدب في جيش آل عثمان.

وتحرك الماسون من خلال «مدحت» -الصدر الأعظم - ومحمد رشدي - الصدر الأعظم الأسبق - والسر عسكر حسين عوني وسليمان باشا ورديف باشا قائد المدرسة العسكرية وأتباعهم، وأنزلوا السلطان عبد العزيز عن العرش في ٣٠ مايو سنة ١٨٧٦. وفي الفوضى الضاربة قامت الحرب الروسية بتدبير من عملاء الإنجليز!! فأخذت معها نصف منطقة الروملي. وعين العملاء سلطاناً مريضاً ضعيف القوى الحقلية ذا مرض عصبي .. ماسوني الفكر والسلوك منذ صباه وعلى اتصال بالدوائر الأجنبية.

ولما لم يستطع القيام بمهام السلطنة وكان مرضه محسوساً للغاية قبل وضعه على العرش خُلِعَ من الحكم الذي لم يبق على سدته أكثر من ٩٣ يوماً، واغتال المتآمرون السلطان عبد العزيز حتى لا يحدث رد فعل كبير لصالحه .. اغتالوه سراً كي لا يبحث عنه شعبه بشغف وندم.

وعند استدعاء مدحت للتحقيق معه بعد اكتشاف المؤامرة لجأ إلى السفارة

الإنجليزية ولما وجدها مغلقة احتمى بالقنصلية الفرنسية .. وهكذا يعلن الأحرار العثمانيون عن هويتهم ودورهم المفضوح. ولم يظاهره مخدوموه الإنجليز وسلّمه الفرنسيون على طريقة استهلاك العملاء. (راجع مذكرات السلطان عبد الحميد ص٤٦).

أما حسين عوني – شريك مدحت في المؤامرة – فقد تقاضي هو الآخر أموالاً من الإنجليز وعندما تأكد السلطان من الخبر كان العميل قد مات.

وعن دور العملاء القذر يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته :

«لم يهزني شيء في حياتي هزاً ضخماً قدر شخص يرتفع إلى مقام قيادة الجيش أو إلى مقام الصدارة العظمى ويقبل نقوداً من دولة أجنبية. هذا شيء أكثر من احتمالي» (ص٤١).

وتولى السلطان المجاهد عبد الحميد الحكم في سبتمبر ١٨٧٦ بعد خلع سلطانين متعاقبين وأزمة وزارية استمرت ٩٣ يوماً وفراغ في السلطنة .

وكان منذ بداية توليه سدة الخلافة على دراية بأطماع الدول الكبرى وخططها الصليبية، على قدر كبير من الورع والتقوى، واعياً بالفكرة الإسلامية وجامعتها الواحدة .. قد وقف ضد الماسون منذ البداية .

لقد كان رحمه اللّٰه يعلم :

* «إننا نقف بمفردنا في العالم .. لنا أعداء، وليس لنا صديق. يمكن للصليب أن يتحد في كل وقت، لكن الهلال دائماً بمفرده. كل ينتظر النفع من الدولة العثمانية، ويظهر لنا الصداقة، ولكن في الوقت الذي لا يجد فيه ما يأمل، سرعان ما يعاديهما».

* وأن ما يهدف إليه الأحرار العثمانيون هو إثارة الفتن عن طريق المحافل الماسونية والزج بالبلاد في أتون الحرب وإصدار القوانين التي تتيح تعيين ولاة

من الأقلية في ولايات الأغلبية فيها مسلمون وقبول طلبة من الأروام في المدرسة الحربية التي هي عماد الجيش وتأييد السياسة الإنجليزية وقبض الرشوة من الخارجية البريطانية.

* وعندما أصدر السلطان عبد الحميد الدستور العثماني الأول في بداية حكمه أثناء صدارة «مدحت باشا» راح الأحرار يجتمعون في قصر مدحت باشا، لا ليتحدثوا في أمور الدولة، بل في أمور السكر والعربدة، وهم يحتسون الخمر. وأرسل مدحت أستاذه الفكري الأرمني «أوديان أفندي» إلى لندن ليطلب من إنجلترا تعهداً بحماية الدستور العثماني. وهرع الصدر الأعظم العثماني إلى مؤتمر «الترسانة» المنعقد في استانبول على هيئة مظاهرة أوروبية لتهديد الدولة العثمانية في عملية استعراض عضلات .. هرع أكبر رأس في الدولة العثمانية بعد السلطان يطلب من الدول الأوربية أن تصدق على الدستور العثماني وتتدخل إذا ما ألغاه السلطان.

* وأن عصابة الأتراك الشبان أو «تركيا الفتاة» ماسون وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الإنجليزي وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل وأن تلك المعونات كانت سياسية ولم تكن إنسانية. وقد حاول - رحمه الله - أن يعيدهم إلى جادة الصواب وبلغ به الحرص والعلاج أن كان يرسل للمتسكعين منهم في عواصم الغرب أموالاً بطرق مختلفة حتى يستخرجهم من شراك الماسونية ودوائر وزارات الخارجية الأجنبية. فلم يكن لمثله -مثلاً- أن يصدق أن «أحمد رضا» الذي رشحته الجمعية الإسرائيلية في مصر وزكته ليرأس جمعية «الاتحاد والترقي» التي انعقد مؤتمرها في باريس .. لم يكن يصدق أن هذا العميل كان يعيش عيشة البذخ في باريس من إعطائه دروساً في اللغة التركية. لكن العملاء رضوا فحسب بدورهم المفضوح.

* وأن «الملك العثماني يهتز من أساسه بناء على هذا كله، كنت أرى أن

الصدر الأعظم يؤيد الإنجليز ويتعاون معهم، سواء بدافع من ماسونيته أو بدافع من أسباب أخرى خاصة جداً به .. ولم أعد أحتمل، فاستندت إلى صلاحياتي في القانون الأساسي وعزلته (مدحت) عن الصدارة العظمى، وأبعدته خارج الحدود»..

(راجع: مذكرات السلطان عبد الحميد، وكذا التقديم - ترجمة: محمد حرب عبد الحميد).

وبدأ السلطان عبد الحميد في إجراءات عملية لتنفيذ خططه الواعية على المستويات السياسية والعلمية والعسكرية، وعرف الماسون أنهم لن يستطيعوا أن ينفذوا من خلال غيرته الإسلامية الصلبة ودرايته الاستراتيجية العميقة فتحركوا لإعادة تنصيب السلطان مراد الخامس المخلوع الذي رَوَّجوا لعلمه وثقافته!!

ويقول «بيرنارد لويس Bernard Lewis» الكاتب اليهودي الذائع الصيت في كتابه «مولد تركيا الحديثة Emergence of Modern Turkey»: «إن أهمية «سيليري» تكمن في مركزه كرئيس للمحفل الماسوني واتصالاته الأوروبية القوية والمكثفة التي أفسحت له المجال. فعندما أراد مراد المعونة من الخارج أرسل سراً إلى سيليري الذي نقله إلى أحد القصور، ولم يترك سيليري الموضوع إلى هذا الحد .. فمن تقرير طُرِحَ أيام السلطان عبد الحميد ظهر أن محاولة تمت لإغراء المحافل الألمانية والإنجليزية التي كان على رأسها الإمبراطور «ولهلم» وأمير ويلز لأن يستخدموا نفوذهم ويضمنوا تدخل السفيرين الألماني والإنجليزي لصالح مراد» (ص٢٠٨ - اكسفورد ١٩٦٥).

وكانت المحاولة الفاشلة في أغسطس عام ١٨٧٨ حيث تحرك الضابط الماسوني «علي سعاوي» بمجموعة من الضباط الانقلابيين حاولت وفشلت أن تعيد مراد على العرش.

وعن واقعة تهريب السلطان المعتوه من قصر جرغانة يقول المغفور له السلطان عبد الحميد في مذكراته:

«... كانوا قبل هذا أيضاً نهضوا لتهريب أخي السلطان مراد الخامس من القصر وهو بملابس النساء، وظهر أن الذين تصدوا لهذا العمل الفاشل بعض الشخصيات الماسونية مثل مدحت .. إنجلترا كانت دائبة على تسيير الفتن عن طريق المحافل الماسونية» (ص٤٣).

ويقول رحمه الله: «لم أستطع أن أفهم كيف سادت رغبة إسقاطي من فوق عرشي وتنصيب أخي مراد مرة أخرى .. هل لأن أخي السلطان مراد كان مثله (مدحت) ماسونياً أم لأن التفكير أفضى به إلى أنه من السهل عليه أن يضغط على أخي مراد ويجعله ينفذ كل شيء..» (ص٤٩).

وحاول بعد ذلك سيليري الإغريقي الأصل وكان يعيش في استانبول كرئيس للمحفل الماسوني المسمى «المشرق الأعظم» مع مجموعة من الموظفين الرسميين ذوي المناصب العالية استعادة مراد كما وضح ذلك جورج حداد في كتابه «الثورات والحكم العسكري في الشرق الأوسط Revolutions and Military Rule in the Middle East» - نيويورك - ١٩٦٥. (ص٤٨).

وتحركت الأفعى حركة نشيطة على المستوى العالمي!! ففي سنة ١٨٩٧ عقد في مدينة بال بسويسرا المؤتمر الصهيوني الأول برياسة الصحفي النمسوي هرتزل وقد اجتمع فيه نحو ثلاثمائة من أعتى حكماء صهيون ممثلين لخمسين جمعية يهودية وقد صدرت عنه قرارات سرية عرفت فيما بعد باسم «بروتوكولات حكماء صهيون» وقد تمكنت سيدة فرنسية أثناء اجتماعها بزعيم من الصهاينة في أحد أوكارهم الماسونية السرية في فرنسا أن تختلس بعض هذه الوثائق السرية.

وصلت هذه الوثائق إلى إليكسي نيقولانيفتش الروسي، الذي سلّمها بدوره إلى صديقه العالم الروسي سيرجي نيلوس الذي نشرها بالروسية سنة ١٩٠٢

وأعاد طبعها مع مقدمة وتعقيب عام ١٩٠٥ وطبعت مرة أخرى في عام ١٩١١. ولما طبعت عام ١٩١٧ صادرها الشيوعيون البلاشفة الذين كانوا قد استولوا على روسيا بزعامة لينين في ذلك العام. ووصلت النسخة من الطبعة الروسية لعام ١٩٠٥ إلى المتحف البريطاني وسجل عليها تاريخ تسلمها: « ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٦ ».

وترجم فيكتور مارسدن مراسل جريدة مورننج بوست (Morning Post) في روسيا البروتوكولات إلى الإنجليزية ونشرها. وأعيد طبعها عدة مرات كانت الأخيرة والخامسة منها في عام ١٩٢١ وهي النسخة المعتمدة للترجمة إلى العربية (راجع: مقدمة الخطر اليهودي - بروتوكولات حكماء صهيون - محمد خليفة التونسي - دار الكتاب العربي).

وكذا: (Farouqui Jewish Conspiracy and the Muslim World - Kuwait)

وتقع الخطة السرية في ٢٤ بروتوكولاً وقعها ممثلو صهيون من الدرجة الماسونية الثالثة والثلاثين وقد أوضحوا فيها خطتهم الجهنمية لتدمير العالم والسيطرة عليه من خلال المال والصحافة والفكر والانقلابات والجواسيس والفتن والقلاقل والتعليم والعملاء والثورات. وكانت الدولة العثمانية آخر المحطات على مستوى العالم وأهمها على الإطلاق .. ولابد من سقوط الآستانة حتى يمكن الوصول إلى أورشليم.

وكان « هرتزل » قد أصدر كتابه «الدولة اليهودية» قبل هذا المؤتمر بعام أي في سنة ١٨٩٦. حدد فيه الطرق والوسائل المؤدية إلى قيام الدولة الصهيونية.

وفي افتتاح المؤتمر خطب هرتزل قائلاً: «يمكن التجاوز عما قاله أو كتبه أي فرد منا من قبل .. أما قرارات هذا المؤتمر فلا»!!

وتتلخص أفكار هرتزل في هذا الكتاب في منظمة يطلق عليها «جمعية اليهود » تشرف على تأمين هجرة اليهود إلى الوطن الموعود، وشركة يهودية لدعم

الجانب الاقتصادي لعملية الهجرة. ويكون مركز الشركة في لندن ترعاها بريطانيا وتخضع للقانون الإنجليزي برأسمال مبدئي حوالي خمسين مليون جنيه إسترليني أو مائة مليون دولار .. وحدد مهامها:

١- الاستيلاء على الأراضي في الدولة الموعودة على نطاق واسع عن طريق الشراء.

٢- تتسلم أملاك المهاجرين التي تركوها وراءهم لحين التصرف فيها بالبيع أو البدل.

٣- بناء المساكن للعمال في مجموعات سكنية يتوسطها المعبد في مكان يظهر على مسافات بعيدة مع إضاءته ليلاً بضوء جذاب، وتقوم الشركة ببناء مدارس الأطفال والمدارس الفنية للعمال لرفع مستوى مهارتهم كذا أماكن التسلية والترفيه.

٤- إدخال الصناعات في المستعمرات الجديدة وتشجيع وإعانة الموجود منها.

٥- الإشراف على التجارة والأسواق ومد المهاجرين بضرورات الحياة (الماشية والحبوب وملابس العمل والآلات والأسلحة).

٦- إقامة المنازل الخشبية المؤقتة للعمال غير المهرة على أن ينتقلوا إلى مساكن دائمة كاملة البناء بعد ثلاث سنوات من العمل المستمر.

٧- توفير الموظفين اللازمين للعمل على أن يكون من بين هؤلاء ضباط جيش الدفاع، الذين يكون عددهم ١٠٪ من عدد الذكور من سكان المستعمرات.

واقترح هرتزل أن تتم الهجرة في مجموعات من العائلات المرتبطة بوشائج من الصداقة والمودة .. تُرحَّل إلى هناك بالتدريج.

وللدولة الجديدة علمها ونشيدها ودستورها وجيشها ولغتها العبرية.

وبدأ هرتزل بجس النبض العثماني مستغلاً الموقف الدولي فهو يعلم أن العلاقة بين ألمانيا وتركيا علاقة ممتازة وأن الإمبراطور الألماني ذاهب في زيارة ودية إلى الآستانة ومنها إلى سوريا وفلسطين. وفعلاً زار الإمبراطور مثوى صلاح الدين في دمشق وزار بيت المقدس وأعلن: «أن ثلثمائة مليون مسلم يكنون كل الاحترام لسلطانهم يجدون في الإمبراطور صديقاً حميماً لهم».

وعلى أبواب مستعمرة «مكفة إسرائيل» كان هرتزل في انتظار الإمبراطور حيث ألقى بين يديه كلمة قال فيها: إن وفداً من أبناء «إسرائيل» يحترمون الامبراطور احتراماً عميقاً وهم على أرض البلاد التي كانت لآبائهم ولم تصبح لهم الآن وأنهم قد وضعوا في مؤتمر بازل برنامج إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي على أرض الأجداد التي تصرخ طلباً للزراعة والاستثمار، وطلب حماية ألمانيا لليهود والعمل لدى السلطان العثماني على إعطاء فلسطين لليهود.

لكن أحداً لم يجرؤ أن يفاتح السلطان في التبرع بفلسطين لليهود، لا الامبراطور الألماني ولا الجواسيس الماسون في العاصمة العثمانية، ومضت سنوات ثلاث ولا زال السلطان عبد الحميد واعياً بدوره كخليفة للمسلمين .

وركب تيودور هرتزل إكسبريس الشرق من فيينا إلى استانبول ليقابل السلطان عبد الحميد علّه يجد ثغرة في هذا الحمى المنيع ينفذ منها إلى مبتغاه. وفي ١٧ يونيه سنة ١٩٠١ كان موعد الدخول إلى قصر يلدز. وهناك ضرب هرتزل على الوتر الحساس ونكأ الجراح.

قال: إن تركيا ترزح تحت عبء ديون باهظة للدول الأوروبية حتى تظل ضعيفة تحمل لقب «رجل أوروبا المريض». وهذه الدول تستعمر كثيراً من بلاد العرب وبلاد المسلمين وتزحف إلى آسيا وإلى إفريقيا لتستغل المناطق البكر الغنية.

ويقدم هرتزل خطته في قالب من السكر: إن اليهود يملكون بنوك أوروبا ويسيطرون على تجارتها وفي أيديهم مؤسساتها الصناعية والمالية وهم الذين

يستطيعون أن يدخلوا المدنية الحديثة إلى تركيا فينتقل من بلد متخلف يعيش على الزراعة والمرعى إلى بلد مثل بلاد أوروبا. وأن اليهود يمكنهم أن ينشئوا السكك الحديدية التي تمتد غرباً بين تركيا وأوروبا، وشرقاً بين تركيا وآسيا. وتحدث عن السفن التركية التي تعبر البسفور والدردنيل إلى آسيا وإفريقيا عبر قناة السويس وإلى أوروبا عابرة جبل طارق تحمل صادرات وواردات تركيا من وإلى جميع بلاد العالم. وعلى ذلك سوف تصبح تركيا من أقوى دول الدنيا يمتد ملكها على امتداد العالم الإسلامي بما فيه من ترك وعرب وفرس وأفغان وهنود .. من المغرب إلى المشرق، ومن القوقاز إلى الحجاز.

وإن اليهود مخلصون لتركيا وأنهم ليسوا كالأوروبيين يستعمرون بلاد آسيا وإفريقيا وبلاد العرب والمسلمين وينزفون ثرواتها وإذا نزحوا عنها تركوها أكثر فقراً وتأخراً .. إن اليهود سينشئون المصانع والمتاجر والعمائر .. يفيدون ويستفيدون!!

وأما المقابل لكل هذا فهو أن يستقر اليهود في جزء من الإمبراطورية العثمانية حيث يعيشون مع أهلها متعاونين في العمل والكسب.

ولم يذكر هرتزل هذا الجزء الذي يريده اليهود. حذره مستشاروه من أن ينطق بكلمة «فلسطين» لأن السلطان خليفة المسلمين رجل شديد التدين .. شديد الإحساس بالتاريخ .. فهو لا ينظر إلى فلسطين على أنها مجرد جزء من أملاك الدولة العثمانية ولكنه يدرك في قرارة نفسه أنها كانت ساحة الصراع الطويل بين المسلمين والصليبيين عدة قرون. وأنها منذ فتحها السلطان سليم الأول - منذ أربعة قرون - في حراسة سلطان تركيا خليفة المسلمين.

واجتمع هرتزل في الأيام التالية مع عدد من وزراء السلطان ومستشاريه وقدموا له مشروعاً للتعاون بين تركيا واليهود وفحواه: أن ينشئ اليهود صندوقاً لتسديد ديون تركيا ومقابل هذا يستطيع اليهود أن يهاجروا إلى تركيا ويقيموا

فيها إلا بلداً واحداً هو فلسطين، على شرط ألا يهاجروا في جماعات كبيرة تهدف إلى مستوطنات خاصة ينتقلون فيها، بل تكون الهجرة في مجموعات صغيرة تأتي واحدة تلو أخرى وتتكون المجموعة من خمس أسر هنا وخمس أسر هناك وتنتشر في أماكن متفرقة يقيمون فيها.

أما الشرط الثاني: فهو أن يصير هؤلاء المهاجرون اليهود رعايا للدولة التركية.

وقدم هرتزل مشروعاً مضاداً هو إنشاء شركة يهودية تشتري الأرض غير المزروعة في فلسطين وتتولى إصلاح هذه الأراضي وزراعتها وتوطين اليهود فيها!! وغادر الآستانة .

ثم جاء مرة أخرى في ٢ فبراير سنة ١٩٠٢ إلى استانبول وقابل السلطان ليعرف مدى الاستجابة لمشروعه.

وقال السلطان عبد الحميد في حسم: «لا أملك هذا .. فلسطين ليست ملك الأتراك بل ملك العرب ..وبيت المقدس ليس ملك العرب . بل ملك المسلمين»..

وعاد هرتزل إلى فيينا . وهناك حاول استرضاء السلطان بأن يكتب في صحيفته سلسلة من المقالات يدافع فيها عن السياسة التركية تجاه الأراضي الأوروبية ويقف إلى جانب تركيا في المسألة الأرمينية، وأن يأخذ جانب المسلمين ضد المسيحيين !!

والسلطان مع ذلك عند رأيه لا يهمه المجد الشخصي ولا الدعاية له في الصحف الأوروبية ولا المال المعروض والحاجة إليه ماسة..

عشرون مليون جنيه إسترليني .. ارتفعت إلى ثلاثين .. فخمسة وثلاثين .. الخ. الذي يهمه الأمانة التي في يديه .. وبيت المقدس هي واسطة العقد بين الحبات.

وعاد هرتزل للمرة الثالثة في يوليو سنة ١٩٠٢ إلى استانبول وألقى بآخر سهم في جعبته فعرض أن ينشئ جامعة من أعظم جامعات العالم في فلسطين يتعلم

فيها الشباب التركي بدلاً من فرنسا وألمانيا وانجلترا والنمسا التي تسمم أفكارهم .. جامعة تعلمهم الطب والهندسة والقانون والعلوم .. وكل شيء، ويظلون - مع ذلك - بعيدين عن الأفكار الثورية والاشتراكية والإلحادية التي تغمر أوروبا في ذلك الحين.

عَرْضٌ فيه إغراء شديد والسلطان يعاني من «رزالات» العملاء المسمون بالعثمانيين الجدد أو «تركيا الفتاة» ومن المتسكعين في عواصم الغرب الذين جعلت منهم المحافل الماسونية أعلاماً وقادة وساسة وأدباء وشعراء وروَّجت كل قوى عالم العدو لمنشوراتهم وصحفهم وكلها مركزة على «السلطان الأحمر» «سلطان جلادستون» «الثعلب الماكر» «عهد المظالم» .. إلى آخر ما في قاموسهم البذيء من كلمات عاهرة.

لكن السلطان الحارس اليقظ لا يزال عند رأيه ولا يطاوعه ضميره الديني ووعيه التاريخي وحُنكته السياسية وحسه المرهف الشديد التنبيه بالحضور الإسلامي أن يتصرف في فلسطين.

وقال السلطان لهرتزل وهو يرفض التفريط في أي شبر من الأرض: «إذ أن الامبراطورية التركية ليست ملكاً لي، وإنما هي ملك للشعب التركي .. فليس في استطاعتي والحال كذلك أن أهب أحداً أي جزء فيها .. فليحتفظ اليهود ببلايينهم في جيوبهم .. فإذا قسمت الامبراطورية يوماً ما فقد يحصلون على فلسطين دون مقابل. ولكن التقسيم لن يتم إلا على أجسادنا».

وحاول بعد ذلك هرتزل أن يوسط قيصر روسيا لدى السلطان عبد الحميد وأن يستفيد من موافقة اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر ومن رئيس وزراء مصر «بطرس غالي» على المشروع المعدل بأن تكون سيناء هي البديل المؤقت لاستيطان اليهود بجنسية عثمانية، لكن كل المحاولات أمام صلابة الحارس اليقظ باءت بالفشل الذريع!!

(راجع: مذكرات هرتزل، وكذا مقال عبد الحميد الكاتب -تحت عنوان: «عيونهم على العريش منذ ٧٥ سنة» - أخبار اليوم ١٩٧٧/١/١٤، وكذا أمين هويدي: «كيف يفكر زعماء الصهيونية» - دار المعارف ١٩٧٤، وأيضاً مذكرات السلطان عبد الحميد).

وقد أفاد السلطان عبد الحميد وكشف مبكراً حقيقة الخطط الصهيونية وقوة اليهود العالمية وأصدر - رحمه الله - مرسومه العالي بألا يُعطي الحجاج اليهود تصريح إقامة في فلسطين لأكثر من ثلاثة شهور، وأن على كل يهودي يدخل الأرض المقدسة أن يحمل بطاقة حمراء يظهرها لرجال الأمن عند الطلب، وأن يحرم عليهم امتلاك أي شيء من أراض وعقارات، ووضعت حركة دخول اليهود والأجانب من وإلى فلسطين تحت رقابة القصر السلطاني مباشرة.

يقول السلطان المجاهد «عبد الحميد» في مذكراته : «وولدت في أمريكا دولة فتية قوية وكانت أسبانيا قد أُخْرِجت من مستعمراتها. وانتظم يهود العالم وسعوا عن طريق المحافل الماسونية في سبيل الأرض الموعودة وجاءوا إليّ بعد فترة وطلبوا مني أرضاً لتوطين اليهود في فلسطين مقابل أموال طائلة وبالطبع رفضت».

(مذكرات السلطان عبد الحميد - ترجمة محمد حرب عبد الحميد - دار الأنصار - ص٦٥).

ويصف الحارس اليقظ الوضع في حالة قبول العرض لا قدر الله : «نكون قد وضعنا قراراً بالموت على إخواننا في الدين».

ويتحدث عن المحاولة الصهيونية. فيقول: «لا يريد الصهيونيون الاشتغال بالزراعة فقط في فلسطين بل إنهم يريدون إنشاء حكومة لهم وانتخاب ممثلين سياسيين. وإني أفهم جيداً معنى تصوراتهم الطامعة هذه وإنهم لسذج إذا تصوروا أني سأقبل محاولتهم هذه .. إن «هرتزل» يريد أرضاً لإخوانه في الدين

لكن الذكاء ليس كافياً لحل كل شيء».

وعن القدس الغالية قبلة المسلمين الأولى ومسرى نبيهم يقول: «لماذا نترك القدس؟ إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك من مدننا المقدسة وتقع في أرض إسلامية .. لا بد أن تظل القدس لنا».

(مقدمة المذكرات - بقلم محمد حرب عبد الحميد - فيما رواه عن المراجع التركية - ص١١).

وتأكد عند هرتزل أنه: «يفقد الأمل في تحقيق آمال اليهود في فلسطين وأن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة طالما أن السلطان عبد الحميد قائم في الحكم مستمر فيه».

والسلطان عبد الحميد ظل محافظاً طوال فترة حكمه على ما تبقى في يده من ديار العرب والمسلمين وغيرها من أملاك الدولة العثمانية .. ورسم سياسة عالمية بعيدة النظر محكمة الدقة وفق تحليل موضوعي استراتيجي وتكتيكي .. يضع في اعتباره وحدة القوى الأوروبية مجتمعة تجاه الدولة العثمانية لتقسيم بلادها وابتلاعها، وفي الوقت ذاته يحسب اختلاف هذه الدول منفردة على أكبر نصيب من الأسلاب.

فهو يستغل التناقض بين ألمانيا الشابة الناهضة وبريطانيا الإمبراطورية. ويرى بوضوح أن ظهور ألمانيا القوية كفيل بإخلال التوازن الأوروبي. واستمال في جانبه الألمان في مواجهة الإنجليز الذين يحركون العملاء في عاصمة الخلافة ويحتلون أجزاء كبيرة من ديار المسلمين.

ويستفيد من التناقض الحاد بين روسيا وبين بريطانيا. فقد رأت روسيا أخيراً أن حروبها مع الدولة العثمانية لم تفد إلا إنجلترا التي قوى مركزها في آسيا والشرق الأقصى. فمنذ عام ١٦٧٧ اشترك الترك في ثلاثة عشر حرباً مع الروس .. ولقد انهزمت تركيا عدة مرات في مواجهة الروس لكنها أبداً لم تهزم انهزاماً

تاماً ولم يحتل المسكوف أرضها الأصلية أو أن يفقد آل عثمان سيطرتهم على المضايق. وكان لإنجلترا مصلحة في إضعاف روسيا اقتصادياً وعسكرياً وبشرياً لمنعها من الوصول إلى البحار الدافئة.

وأدركت روسيا أنه يستحيل عليها الاستيلاء على الآستانة «روما الثانية» حسب وصية بطرس الأكبر ومن قبله إيفان!! بسبب جهاد العثمانيين البطولي للدفاع عن حاضرة الخلافة ولأن فرنسا من ناحية ثانية لا تريد سيطرة الأرثوذكس الروس على العاصمة العثمانية. ففرنسا حامية الكاثوليك على مستوى العالم. وبين المذهبين تناقض حاد ومصالح متباينة.

واستطاع السلطان المجاهد أن يُحَيِّد روسيا أخيراً في الصراع ويجعلها تهتم بمسائل الشرق الأقصى. واقتربت بطرسبرج خطوة إلى تركيا خوفاً من دزرائيلي اليهودي وهو على رأس الحكم في لندن.

واستخدم - رحمه الله - سلاح الخلافة الإسلامية ذات النفوذ الرفيع على مائة وخمسين مليوناً من المسلمين في الهند يحكمهم الإنجليز وما يزيد على الخمسين مليوناً آخرين تحت الحكم الروسي في سيبيريا والقرم والتركستان. وقد اضطر المندوبون السامون في الهند أن يكتبوا لحكومتهم في لندن بضرورة التعايش السلمي مع الدولة العثمانية حتى تهدأ القلاقل في الهند ويستقر الاستعمار هناك!! وأن يكتب -كذلك- القيصر الروسي نفسه رسائل ودية إلى السلطان عبد الحميد.

وكان سلاح الخلافة يجعل الإنجليز يعيشون في دوامة من الاضطراب.

كان هدفه البعيد أن تقع الدول الأوروبية بعضها في بعض وفق ظروف التناقض وإخلال التوازن، وأوشكت سياسته أن تؤدي ثمارها المطلوبة في حفظ كيان الدولة الإسلامية موحدة وآمنة .. وظلت حدود الدولة في عهده ممتدة من أشقودرة إلى خليج البصرة، ومن البحر الأسود إلى صحاري إفريقيا.

وجهز المجاهد الكبير جيشه بالأسلحة الحديثة ودَعَّمَهُ بكل فنون الحرب واستعان بالخبراء لتدريبه ودَعَّمَ الأسطول وزوَّده بالغواصات وقوى قلاع الحرب على البسفور والدردنيل.

وسرت في البلاد حركة النهضة الشاملة. وتطورت دور العلم والبحوث والفنون والمواصلات. والاتصالات الهاتفية والبرقية أدخلها قبل أن تدخل في كثير من البلدان الأوروبية. وتمت إنجازات رائعة في جميع المجالات.

وعن بعض هذه الإنجازات يتحدث «محمد حرب عبد الحميد» في مقدمة «مذكرات السلطان عبد الحميد» نقلاً عن «يلماز أوزطونة» في كتابه «تركيا تاريخي» فيقول :

«والحقيقة التاريخية أثبتت إفادة عبد الحميد من الغرب بطريقته الخاصة في كافة الميادين التي رأى أنها تحتاج إلى خبرة الخارج وأقام كلية للعلوم وكليات للآداب والحقوق وكلية للعلوم السياسية وأكاديمية للفنون الجميلة ومدارس عليا للتجارة والزراعة والبيطرة والغابات والتعدين والتجارة البحرية والمعلمين العليا ومدارس متوسطة متخصصة مثل مدارس الصم والعمي والبكم وأقام مدرسة ثانوية في كل سنجق وأقام مدارس عليا بمستوى الجامعات في كل من دمشق وبغداد وبيروت وسلانيك وقونية وغيرها. وأرسل البعثات العلمية إلى كل من فرنسا وألمانيا. هذا عن بعض من جهوده في ميدان التعليم. أما خدماته الأخرى فمن بعضها إقامة مؤسسة حديثة للمياه وغرف للصناعة والزراعة والتجارة، وتأسيس البلديات وبناء الغواصة، وإقامة خطوط البرق وإنشاء إدارة البريد ومد السكك الحديدية، وإدخال الترامويات والاهتمام بتدعيم المواقع العسكرية في الدردنيل مما ساعد على انتصار الأتراك على الأساطيل المغيرة في موقعة الدردنيل المشهورة في الحرب العالمية الأولى ودمر أساطيل الحلفاء ومنعها من اقتحام الدردنيل» (ص١٠).

وإلى جانب ذلك قامت نهضة دينية واسعة في جميع أنحاء البلاد بإشراف السلطان نفسه ومن ماله الخاص في غالبية الأحوال.. على مستوى الكُتّاب والدعاة والمساجد والمراكز الثقافية الإسلامية.

وكانت عينه ساهرة على رعاية مصالح العباد ونفقات معيشتهم، يقيم «قرى التهجير» يأوي إليها ضحايا الكوارث والحروب التي يفتعلها العملاء.

يقول رحمه الله في مذكراته :

«سارعت لنجدة ضحايا هذه الكوارث التي جَرَّتْهَا تلك الحرب. لقد بذلت كل ما في وسعي لإيجاد المأوى وسبل الإعاشة ووسائل التخفيف عن هؤلاء المهاجرين إخوتنا في الدين.

كانت قرى التهجير موجودة في كل أنحاء البلاد من استانبول إلى سيواس إلى حلب. قدمت من جيبي الخاص تقرباً وزلفى إلى الله لعباده الذين حملتهم أمانة في عنقي نفقات الجوامع الشريفة في كثير من هذه القرى.

لم يفارق ذهني - ليس في أيام ضيقة كأيامي هذه وإنما في أكثر أيامي سعة ورخاء- منظر امتداد أيدي الجائعين من أفراد الشعب إلى لقيمات تدخل معدتهم لكي تشبع بطون ثلاثة أشخاص أو خمسة حتى التخمة تحت شعار التجارة الوطنية.

كانت نفقات عباد الله ووقودهم وأدويتهم لا تفارق تفكيري أبداً. وأنا لا أذكر هذه الأمور في معرض الدفاع عن نفسي لأن الذين حلوا محلي دافعوا عني كثيراً بما فعلوه حتى أني كنت أشكرهم كثيراً على هذا لو لم يظهر شبح النكسة التي أحلوها بديني ودولتي» (ص٢٣-٢٤).

دافعوا عنه بما ارتكبوه -الإنقلابيون الدونمة والماسون- من تخريب وفظائع

وتجويع .. وحزن - رحمه اللّه - لأنهم أضاعوا الدولة منذ تحركهم من الوكر اليهودي في سالونيك وإلى نهاية الحرب الأولى يوم حَطَّت كل قُوى عالم العدو من خلالهم نتيجة تآمر الدوائر الثلاث في استانبول !!

وأدركت الأفعى الصهيونية أبعاد منهاج الصحوة الإسلامية في خطة السلطان عبد الحميد ففزع دماغها واضطرب ذيلها .. وكان لا بد من حركة نشطة، ماكرة وخبيثة، تستفيد بها هي الأخرى من كل قوى عالم العدو كجزء فاعل في حركة الدوائر الثلاث لكي تخترق المسافة الضيقة الباقية بين الرأس والذيل!!

إن صلابة عبد الحميد هي السد المنيع على هذه المسافة.. سد يَحُول دون وصول رأس الأفعى إلى صهيون.

وكان لا بد أن يذهب عبد الحميد لتذهب معه كل عناصر المقاومة والتحدي والصمود!!

* * *

الفصل الرابع

الـ «يني توران» .. و انقلاب الدونمة والماسون

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ ..

(إبراهيم : ٢٨)

في مواجهة الفكرة الإسلامية التي صبغت الدولة العثمانية خليفة أو سلطاناً، حكومة وإدارة، تشريعاً وتنظيماً، معاملات وعلاقات، حركة وغاية، إرادة وراية..

وطبعت الأمة ملة وجنسية وتاريخاً، ثقافة وضميراً ومشاعر، ذوقاً ووجداناً ونكهة، توجهات وجهاد، حضارة وانتماء..

كان لا بد من إيجاد البديل الساقط الهزيل، واصطياد العملاء والمطايا، لتربيتهم على هذا البديل الساقط الهزيل!!

وراحت كل قوى عالم العدو، وكانت الدائرة اليهودية هي طليعة كل قوى عالم العدو، تنبش في قبور الوثنية الغابرة لتستخرج من الرموث البائدة شيئاً يقال له «الطورانية»، عودة جاهلية إلى الهمجية القبلية في سالف الأزمان.

فكانت «اليني توران» أو الطورانية الجديدة .. نهجاً لأدوات اليهود ومن ورائهم كل قوى عالم العدو، وبؤرة عفنة انطلقت منها المؤامرة الانقلاب..!!

كان «إنجيل» الحركة التورانية الجديدة -اليني توران- كتاب اليهودي الماسوني ليو كاهون :

(Introduction a l,Historic de l,Asie, Turcs et Mongols, des origines á 1805).

«تاريخ الترك والمغول في آسيا من مبدأ نشأتهم إلى سنة ١٨٠٥ - صدر في عام ١٨٩٦».

وقد اعتمد المجمع العلمي الفرنسي هذا الكتاب!! وكان ناظم بك السلانيكي السكرتير العام لجمعية الاتحاد والترقي يقوم بتدريسه للمنتسبين في الأوكار التي كانت تعمل تحت الأرض.

وقد تحدث فيه «كاهون» عن خصائص ما أسماه« القومية التركية» مشدداً على فضائل الترك العسكرية .. تحدث عن شهامة «تيمورلنك» وعبقرية «أتيلا» الملقب «نقمة الله» وعن سياسة «جنكيز خان» الذي سمى نفسه في بخارى «غضب الله وعصا سخطه»!! وأوضح لهم -أي كاهون- طريقة العودة إلى الوثنية التركية التي زهقت منذ ألف عام، مشيداً بالتدمير والتخريب وفظائع الهجمات البربرية أيام التتار والمغول على اعتبار أنها بطولات قومية!!

ونسى المغفلون القوميون!! أن واحداً من الثلاثة -أصحاب الفضل-!! «تيمورلنك» قد زحف على آسيا الصغرى لهدم الدولة العثمانية ذاتها، التي وصل فيها الترك إلى قمة الساحة العالمية. ففي معركة أنقرة ٨٠٥هـ (١٤٠٢م) وقع السلطان التركي بايزيد أسيراً ونقل إلى عاصمة المغول سمرقند وتوفي -رحمه الله- هناك بعد عام. وخَرَّبَ البطل «تيمورلنك» في آسيا الصغرى -موطن الترك- وخلفاؤه، وارتكبوا من الفظائع الهمجية مدة لم تطل -والحمد لله- بسبب تفرق كلمة خلفاء «تيمورلنك» من بعده.

لكن ما الحيلة ونحن نتعامل مع الجواسيس والأصفار.

وعلى أساس من القاعدة القديمة التي وضعها لهم اليهودي المجري «قمبيري» والتي تقول: «لا وطن في الإسلام» انطلق الوطنيون!! من ببغاوات تركيا الفتاة يرددون: «إنه كان من مآل الإسلام تحت تأثير العوامل والتقاليد العربية والفارسية واليونانية والبيزنطية جعل الترك أمة شرقية ليس لها عمران خاص بها»!!

وخلص قمبيري بنتيجة تقول: «إنه يجب على تركيا أن تُغَرِّب -أي تصير غربية وإما أن تهلك»!!

ولكي يدفعهم إلى سرعة الطلاق أنهى سمومه بقوله: «ولما كانت لا تستطيع الأولى فلا مناص لها من الثانية»!!

وخاف المساكين من الهلاك!! وعملوا بالنصيحة أو بالتحدي وابتلعوا الطعم وانطلقوا على أساس من هذا الزعم الرخيص يقولون: «إذا أخذت الإسلام من القومية التركية يبقى فيها المبدأ التوراني .. أما الإسلام فيظهر بمظهر جديد ويكون ديناً قومياً»!!

والجزء الأخير من العبارة كان ذراً للرماد في العيون .. مقولة كاذبة وخادعة في الوقت ذاته للتغطية أمام الجماهير التركية المسلمة التي حققت ذاتها في إسلامها وصاغها هذا الدين في قالب جديد.

إذن طالما أن الإسلام كان هو المصيبة!! التي حلت بالترك فجعلتهم أمة شرقية لا عمران لها ولا وطن ولا قوم (هكذا!!) فلا خلاص إلا بالطلاق .. لأن الهلاك -كما علمهم قمبيري- هو البديل!! وراحت جمعية «ترك أوجاقي» أي «الموقد التركي»، أو الوطن التركي تستخلص النشء لتعلمه تاريخ القبائل التورانية وتنشئ فرقاً من الغلمان الكشافة برعاية «أنور باشا» لصياغتهم في قالب عرقي ينظر إلى ما وراء الإسلام لإحياء عهود غبرت في ماضي الترك الوثني البائد. وكانت معظم شاراتهم وجميع ألقابهم تركية بحتة سابقة على عهد الترك بالإسلام. ومن كان اسمه عربياً أبدل باسم تركي!!

وقد أدلى زعماء الحركة بحديث للدكتور «ألفريد نوسنج» نُشر في جريدة «درتاج» الألمانية أوضحوا فيه أهداف الفكرة التورانية . جاء فيه :

١- جعل روح القومية التركية مستقلة عن الإسلام.

٢- جعل التركي العثماني تركياً أولاً ومسلماً ثانياً.

٣- تحرير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية.

(راجع المقتطف - الجزء الخامس من المجلد التاسع والأربعين - نوفمبر سنة ١٩١٦ تحت عنوان «الحركة التورانية الجديدة ص٤٢٥ - ٤٣٠) .

وراحوا يقولون: إن التاريخ العثماني قد كُتِبَ من وجهة نظر إسلامية بحتة فأصبح تاريخاً إسلامياً محضاً حط من قـدر عظمـاء الرجال ولعنهم أمثال «جنكيزخان» الذي غزا ديار المسلمين.

وقال لهم ضياء باشا: «الذين يبغون اللغة العربية فليذهبوا إلى بلاد العرب، والذين يبغون اللغة الفارسية فليرحلوا إلى إيران .. نحن أتراك ينبغي أن يكون لنا لغة تركية».

(راجع ساطع الحصري: «محاضرات في نشوء الفكرة القومية»).

وكتب لهم المدعو أحمد شريف بك في جريدة «طنين»: «إن العرب يتكلمون بلغتهم ويجهلون التركية كل الجهل كأن بلادهم ليست تابعة لتركيا فالواجب على الحكومة أن تجعلهم ينسون لسانهم ويستبدلونه بلسان الأمة التي تحكمهم وإذا تناست الحكومة هذا الواجب كان مثلها مثل الذي يحفر قبره بيديه لأنه إن لم ينس العرب لسانهم وتاريخهم وعاداتهم سعوا في إعادة مملكتهم القديمة»!!

ووزعت منشورات في القوقاز تقول: «لقد كان العرب مصيبة علينا فإن «جواد» غازي تركي أفضل من أنبياء الأمم الأخري»!!

ومع أننا في هذا المجال لسنا في موضوع مناقشة هذه الفكرة الضالة المضلة من حيث صحة أحكامها تاريخياً ودحض هذه المقولات الكاذبة علمياً وأنثروبولوجياً فإن كلمة لا بد أن تقال لتبيان خرافة هذه الدعوى الباطلة، ومن وجهة قومية بحتة !!

كانت القبائل التركية القديمة تقطن بلاد آسيا من حدود الصين إلى نهر جيحون أو أموداريا كما يسميه التتر - وكانت ديانتها - إن كانت لها ديانة - شيئاً يسمى بالشامانية - أي عبادة قوى الطبيعة بالشعوذة والسحر - وتعيش كسائر القبائل الرحل التي في آسيا الوسطى على قواعد بسيطة تبعاً للبقعة وأحوال المعيشة. وأخص ما يميزها ميلها إلى الحرب والنهب والسلب مطبوعة على الهمجية فكانت تُستأجر للقتال. وعلى ذلك كان شرفها شرف المرتزقة أي الولاء لكل من قادها وأطعمها. وفيما خلا ذلك لم يأت التركي الطوراني القديم أمراً ذا شأن من تلقاء نفسه. ولم يخرج التركي عن كونه مقتبساً أو مستعيراً، يلبس لبوس كل بيئة ينزل فيها من الصين إلى فارس إلى الدولة البيزنطية إلى ألمانيا. فلا حضارة قديمة إذن ولا يحزنون!!

أما التركي العثماني - الطوراني الجديد !! - فهو أقل القبائل التركية تمثيلاً لأصله فهو ليس شعباً محدوداً متجانساً موحداً من الناحية العرقية أو الأنثروبولوجية. فدمه مزيج من قطرة تركية متضائلة وقطرات من دماء شعوب كثيرة كانت قد أسَنَّت وشاخت يوم بنُيت الآستانة كالروم والفريجيين والغلاطيين والأيسوريين والكاريبيين والحيثيين. وهذا المزج هو الذي جعلهم يحرثون الأرض ويزرعونها.

إن أحداً من الناس لا يمكنه أن يُصَدِّق ما تقيأه الخبيث كاهون في كتابه من مقولات أسماها أحكاماً واستدلالات!! عن الفضائل الخلقية لأبطال المغول القدماء .. لا أحد يصدق أن تيمورلنك كان شهماً أو أن جنكيز خان كان سياسياً وأن هولاكو المخرب كان صاحب بنيان. وأنهم كانوا صناع أعرق الحضارات!! وأن «عواريه» أي الأشياء التي استعارها التركي وأعظمها الإسلام حالت دون تجديد مدنيته القديمة وإنشاء حضارة جديدة .. فالتركي القديم لم يكن كما قلنا إلا مستعيراً أو مقتبساً يلبس لبوس كل بيئة يحل فيها.

ولو استخرجنا الإسلام من القومية التركية كما يقول ببغاوات كاهون .. ولو حتى استبعدنا تأثير العوامل والتقاليد العربية والفارسية واليونانية والبيزنطية التي حَضَّرتهم ولو من الناحية المعيشية البحتة فماذا سيبقى للطوران!!؟

عودة إلى الهمجية والترحال والنهب والارتزاق بالاستئجار للسطو والقتال!!

وغني عن القول أن الفضل في احتفاظ التركي بوجدته كأمة - حتى من وجهة نظر قومية بحتة - عائد إلى الإسلام وحده، ولا شيء سواه .. بغَضِّ النظر عن الحقيقة الناصعة التي تُقرر أن هذه النقلة بالإسلام قد صاغتهم في قالب جديد!!

من ثم فإن الفكرة الطورانية لم تكن قومية بمعناها الصحيح، وإنما كانت تعبيراً سياسياً مصنوعاً تلقفه صنائع اليهود في عمى العميل!!

هذا عن «اليني طوران» نهج الانقلاب وعقيدته.

وأما التنظيم الذي أفرز الانقلاب، أي «جمعية الاتحاد والترقي» فكان يهودياً ماسونياً مسخراً من الدائرة الإسرائيلية العالمية مرتبطاً بالقوى الصليبية والدول الاستعمارية.

وزعماء الحركة وقادة التنظيم أمثال أنور وجمال ونيازي الألباني المتوحش وطلعت الدب الكبير الذي كان موظفاً صغيراً في مصلحة البريد ، وجافيد وقرة صو اليهوديين وناظم السلانيكي وأحمد رضا من الدونمة والدكتور إسحاق شكوتي والجاسوس الإنجليزي ليون فهمي والدكتور بهاء الدين شاكر والدكتور إبراهيم تيمو والدكتور عبد الله جودت من الدخلاء مجهولي النسب، فكانوا من المنتسبين إلى المحافل الماسونية الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية.

وسيطر الإنجليز على تشكيل التنظيم في مناستر، وسيطر الألمان على تشكيل سالونيك .

ونورد هنا - باختصار - شهادات اليهود أنفسهم وشهادات بعض الإنجليز

وشهادة أحد النصارى العرب في المهجر الأمريكي عن يهودية هذا التنظيم وهوية قادته العملاء!!

وليس من بين شهودي كاتب مسلم واحد - ما دام حراس ثقافة العدو في بلادنا يحبون شهادات الخواجات!!

يقول «بيرنارد لويس Bernard Lewis» الكاتب اليهودي الذائع الصيت في كتابه «مولد تركيا الحديثة» (Emergence of Modern Turkey) اكسفورد سنة ١٩٦٥:

«لقد كانت المحافل الماسونية أكثر من كونها مجرد غطاء ثانوياً أو عرضياً لاجتماعات الضباط الشبان .. ذلك أنه في نوفمبر ١٩١١ حدث أن جافيد الذي عَبّرَ في مناسبات عديدة عن اهتمامته وعلاقته بالصهيونية، قد ربط للمرة الأولى المحافل الماسونية بالأهداف اليهودية » (ص٢٠٨).

"Masonic Lodges were ever more than an occasional cover for their (Young Turks) meetings .. in November 1911, Tevfik who had Several times expressed concern about Zionism, for the first time connects the Masonic Lodges with Jewish purposes"..

ويؤكد جورج حداد في كتابه «الثورات والحكم العسكري في الشرق الأوسط - نيويورك» (Revolutions and Military Rule in Middle East) على الدور اليهودي الصريح وطليعته الطعم المتقدمة أي الماسونية، في عمليات التخريب ضد الدولة العثمانية وفي حركة الاتحاد والترقي الهدامة وثورتها اليهودية فيقول:

«.. إن الثورة التي تحركت ضد الدولة العثمانية (١٢٩٩-١٩٢٠) بواسطة المتآمرين اليهود الذين ثبت بكثير من البراهين البيّنة من مختلف المصادر أنهم

كانوا معضدين في نشاط مكثف من الماسون. لقد تسلل اليهود داخل الجيش التركي وغووا وأضلوا العناصر الناقمة في معسكرات مقدونيا وهنا أصبح من السهل عليهم أن يتآمروا معاً (اليهود والعناصر الناقمة التي أغووها من داخل الجيش التركي) ويرتبطوا بالماسون» (ص٥٢).

".. That the revolt against the Ottoman Empire (1299-1920) by the Jewish conspirators who, as lot of evidence from other saurces proves, were actively assisted by the Freemasons. They had infiltrated the Turkish army and seduced the disgruntled elements in the Barracks of Mecedonia and here it became easier for them to conspire together and to enter into contact with Freemasons" .

ويشهد الكاتب اليهودي «آورام غالانتي» في كتابه «الأتراك واليهود» - (توركلر ويهوديلر - استانبول) نقلاً عن تقديم محمد حرب عبد الحميد لمذكرات السلطان عبد الحميد (ص١٢) - يشهد على يهودية حركة الاتحاد والترقي وعمالة قياداتها لليهودية العالمية وارتباطهم بالجمعيات الإسرائيلية على مستوى العالم كله وليس داخل تركيا فحسب!!

يقول آورام غالانتي: «إن الجماعات اليهودية خارج نطاق نفوذ عبد الحميد أيدت جميعة الاتحاد والترقي وكان هذا التأييد مفيداً، أثناء ما كانت الجمعية تعد العدة للإنقضاض على عبد الحميد».

ويقول: «إن الجمعية الإسرائيلية بمصر أكدت أن من أهم واجباتها إدخال المطبوعات التي تهاجم السلطان عبد الحميد إلى حدود الدولة العثمانية بأي شكل من الأشكال وهي المطبوعات التي كان يحررها أعضاء تركيا الفتاة».

ويهتك «غالانتي» الستر عن خبر بالغ الخطورة والدناءة يوضح قذارة الدور الذي قام به قادة الاتحاد والترقي وإلى أي مدى ارتكس هؤلاء الأحرار(!!) في

المستنقع الوبئ وهم يستجدون تأييد سادتهم الإسرائيليين ليصنعوا منهم قادة وأبطالاً.

يقول غالانتي: «إن أحمد رضا رئيس الجناح المدني في الاتحاد والترقي ورئيس شعبة الجمعية في باريس اتصل أثناء وجوده في مصر عام ١٩٠٧ بالجمعية الإسرائيلية بمصر، وكانت نتيجة هذا الاتصال أن صوتت الجمعية إلى جانب أحمد رضا أثناء انعقاد مؤتمر الاتحاد والترقي في باريس، وأدى هذا التصويت إلى فوز أحمد رضا برئاسة جمعية الاتحاد والترقي في ديسمبر عام ١٩٠٧»..

وهكذا فاز العملاء بالتزكية وصاروا أبطالاً .. ميلاد عفن!!. لبئس المولى ولبئس العشير!!

ويتحدث كاتب آخر هو «لورد كينروز Lord Kinros» في كتابه «أتاتورك، بعث أمة» (لندن ١٩٦٥) (Ataturk, the Rebirth of a Nation) عن الدور الماسوني في جمعية الاتحاد والترقي.

يقول كينروز: «إن جمعية الاتحاد والترقي قد استفادت من أساليب وفنون الماسون» (ص٢٨).

"The Committee of Union and Progress made free use of both the premises and the techniques of the Freemasons".

وفي الأوكار الماسونية .. وفي بيوت اليهود .. وفي ظل حماية اليهود .. وتحت الولاية اليهودية كانت تعقد اجتماعات المؤامرة مدعومة من كل قوى عالم العدو التي أنفقت عليها بالمال الوفير!!

يقول «هـ.س. أرمسترونج» في كتابه «الذئب الأغبر - مصطفى كمال» - (نشر دار الهلال) : «ثم باح له واحد منهم أخيراً بأن منظمة ثورية كبيرة أُلفت في سالونيك وأطلق عليها اسم «الاتحاد والترقي»، وبأن اجتماعاتها تُعقد في

بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية والجمعيات الماسونية، إذ أن جنسيتهم هذه تحميهم -حكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية- من الخضوع لأوامر القبض التي يصدرها السلطان، ومن تفتيش البوليس لمنازلهم، أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية لأن لهم محاكمهم القنصلية الخاصة .. ومن ثم دأب أعضاء «الاتحاد والترقي» على الاحتماء بحصانة هؤلاء اليهود، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر!.. (علامة التعجب ليست من عندنا ولكنها من «أرمسترونج» نفسه .. شهادة خواجة!!) وكان بعضهم ومن بينهم «فتحي المقدوني، صديق مصطفى كمال القديم - قد انضموا إلى جماعة الماسون البنائين الأحرار - واستعانوا على تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية. وصاروا يتلقون الإعانات المالية الوافرة من مختلف الجهات».. (ص٢٩)..

ومن العجيب أن منظمة الاتحاد والترقي هذه كانت فرعاً من «منظمة النيهيلست الدولية» التي تضم أشتاتاً من الناس يتحدثون عن اضطهاد روسيا لليهود ويتغنون بفضائل النمسا، وإتاحتها لهم فرصاً لجمع المال!.. وكان أكثر الأعضاء من معتلي الصحة، الولوعين بالأسرار والتحدث بالرموز الغامضة .. منظمة دولية سرية هدامة.. (ص.٣).

ويُعَرِّف منير البعلبكي في قاموسه «المورد - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٢» الـ «Nihilism» النهلستية والتي تعني العدمية أو اللاشيئية بأنها: «وجهة نظر تقول بأن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة وأن الوجود لا معنى له ولا غناء فيه، وتنكر أن يكون للمبادئ الأخلاقية أي أساس موضوعي، وترى أن الأحوال في المجتمع قد وصلت حداً من السوء يجعل الهدم مرغوباً فيه لذاته وبمعزل عن أي برنامج إنشائي. وأنه برنامج تبناه أحد الأحزاب الروسية في القرن التاسع عشر ودعا إلى الإصلاح الثوري واللجوء إلى الديكتاتورية وسياسة الاغتيال والإرهاب» (ص٦١٣).

وهكذا كان الأبطال!! يخدمون قضية أمتهم من بيوت اليهود وفي ظل حمايتهم .. وتحت الولاية الإسرائيلية ينفقون عمر الضياع الساقط في التحدث عن متاعب اليهود في روسيا وتمتع اليهود في النمسا التي تتيح لهم فرصاً لجمع المال!! ساخطين على روسيا متغنين بفضائل النمسا من أجل سواد عيون اليهود!! يؤدون الطقوس الماسونية وينتهجون العدمية أو اللاشيئية منهجاً لحركتهم!! وهكذا كانت الولادة العقائدية الوبيئة والحضانة الدنسة والتنشئة العميلة لعصابة الاتحاد والترقي!!

وكان للنصرانية هي الأخرى نصيب في صدور هؤلاء العملاء وفي أعماق حركتهم .. أليست الصليبية واحدة من الدوائر الثلاث التي قامت بالتخريب في بلاد الأسد الجريح!!؟

والمراد هنا ليس التحول إلى المسيحية عقيدة .. ولكننا نعني ما تلقاه هؤلاء العملاء في مدارس الإرساليات الكنسية من تخريب فكري وفساد وجداني وما ألقي في أعماقهم من شكوك وشبهات حول الإسلام عقيدة وشريعة، نظاماً ودولة وما ربى عليه الذين أوفدوا منهم إلى أوروبا (كتلاميذ مبتعثين) إلى المعاهد والجامعات .. أو الذين هربوا إلى بلاد الغرب أيام التحضير للإنقلاب .. نشأوا في ظلال تربية فَرَّغَتهم من زادهم الأصيل وغَرَّبَتهم عقلاً وضميراً، ذوقاً ومشاعر. ثم الرجاء الذي بدأ يدب في أعماق المبشرين نحو تلاميذهم القدامى الذين صار لهم الحكم والقرار في اسلامبول!!

وتدفقت دماء الأمل التنصيري في شرايين المبشرين الشرهة التي ترسب على جدرانها المريض ركام الفشل والحقد والضغينة والمرارة والبغضاء، وقد ظلت هذه الشرايين متصلبة في عالمنا الإسلامي كله لا تغذيها ولو قطرة دم واحدة استبدلت دينها الحنيف بصليب الإله المذبوح!!

وراح المبشرون يراجعون خططهم ومؤامراتهم مستغلين الأوضاع والظروف والإمكانيات التي ترتبت على رحيل الحارس اليقظ .. عبد الحميد !!

ووضعوا تدابير جديدة للعمل التنصيري العلني وسط المسلمين، بعد أن كانت الحركة التنصيرية سرية من قبل، مستفيدين من نسبة المساحة النصرانية والنصارى في أعماق حركة الاتحاد والترقي التي أصبح من السهل الضغط على حكومتها المرتدة في استنابول!!

وما ينبئك مثل خبير!!

فمن وثائق سرية تمكنا -بحمد الله وعونه- من تصويرها من داخل المتحف البريطاني نفسه .. نعم المتحف البريطاني نفسه بطريقة ما .. وثائق يقال إنها سوف تنشر في عام ٢٠١٠م أي بعد اكتمال مائة عام من مداولات أو مؤامرات التبشير الدولي المنعقد في القاهرة في يونية ١٩١٠، ننقل من المجلد العاشر المعنون: (The World Missionary Conference Missions and Governments - Edinburgh 1910).

«مؤتمر التبشير الدولي - الإرساليات والحكومات - أدنبرة ١٩١٠». ننقل عن الخطة الجهنمية للمبشر «و.هـ.ت جايردنر W.H.T.Gairdner» المسماة: (Changes In The Character of the Missionry Problem, II. In Mohmmedan Lands). «تغيرات في المسألة التبشيرية. ٢- في الأراضي المحمدية».

يقول «جايردنر» في خطابه الذي ألقاه في مساء السبت ١٨ يونيه ١٩١٠:

«لو بدأنا بالإمبراطورية العثمانية، نجد أن هناك حركة يمكن وصفها إجمالاً بأنها تهدف إلى تحقيق الحرية السياسية أولاً ثم الفكرية، وبالنتيجة فإن حركة مزدوجة كهذه لا بد وأن تؤثر على الدين ببطء، ولكن بتأثير أكيد. إن الموقف الخفي للشباب الأتراك أنفسهم من مسألة التسامح الديني هو في الغالب موقف متقدم جداً. والحقيقة أن النصرانية والنصارى هم في أعماق حركتهم إلى حد كبير .. ينبغي أن يثمر نتائجاً هامة وبعيدة المدى. الآن، وفي أجزاء كثيرة من

الإمبراطورية التركية، خصوصاً في سوريا، تحرز حرية النشر تقدماً هائلاً. بل إن بعض قادة الفكر الإسلامي أصبحوا يميلون إلى مراجعة كيان الفكر الإسلامي من أساسه ومراجعة الصورة المعهودة عن هذا الدين بحقائقها وتفصيلاتها التاريخية وذلك بالرجوع رأساً إلى القرآن حيث يتعلم منه بعضهم أكثر ما يستطيعون من التعاليم المسيحية. أو ليست هذه الحقائق حافزاً للجمعيات العاملة في الإمبراطورية العثمانية لتتأهب وتدعم من نشاطها حتى تستفيد من الفرصة التي تتيحها هذه التطورات المتعاظمة؟ ألم يحن اليوم الذي نحصد فيه ثمرة المعاناة الرائعة للشهداء الأرمن؟ يجب أن يأتي اليوم على وجه اليقين، وبنفس اليقين أن هناك إله عادل في السماء!

إذن فالخطوات التالية لا بد منها :

أولاً: تقوية العمل الذي أثبت نجاحاً رائعاً والذي شرع لخدمة الكنائس الشرقية في الإمبراطورية الرومانية .. إنجيلية كانت هذه الكنائس أم غير إنجيلية.

ثانياً : أن تحتل المناطق التي لم تحتل بعد عن طريق الجمعيات المجاورة لها – وهذه المناطق مذكورة في تقرير اللجنة رقم (١).

ثالثاً: وضع أسس متينة ومضمونة للعمل الأدبي والثقافي.

رابعاً: ممارسة ضغط – حكيم – ومستمر وشجاع – على الحكومات العثمانية لتجعل من المساواة الدينية والحريات الدينية الكاملة حقيقة واقعة في الإمبراطورية العثمانية.

خامساً: أن نحرز تقدماً جريئاً، وحكيماً في العمل المباشر بين المسلمين. وفي مؤتمر غير رسمي عقد أخيراً في بيروت، وكان لي شرف حضوره، سمعت المتحدثين يسهبون في تأكيد الشوط الذي قطعه هذا العمل المباشر فعلاً والشوط الأبعد الذي يمكن أن يحرزه العمل في رأي الجميع – الآن. وفي نهاية

اليوم عبر ذلك المؤتمر الرسمي عن رأيه (أخذ مؤتمر أدنبرة هذا في اعتباره) كما يأتي:

١- إن النشاط الإنجيلي المباشر وسط المسلمين، الذي ظل يعمل سراً لعشرات السنين في سوريا وفلسطين لهو أكثر إمكانية اليوم منه في أي وقت مضى. سواء أكان ذلك عن طريق الزيارات، أو النقاش، أو إنتاج وتوزيع الأدبيات المسيحية أو توزيع الإنجيل أو الإرساليات الطبية أو مدارس الأولاد والبنات.

٢- إن إعلان الدستور قد جعل العمل التبشيري المباشر في المراكز الأكثر وعياً، أكثر يسراً. وإننا لنثق أنه سيزداد سهولة كلما فهم الناس المبدأ الدستوري المتعلق بالمساواة الدينية. ومن ناحية أخرى نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام نهضة تعليمية ودينية محمدية تقضي بضرورة هذا التقدم إذا كان علينا أن نحافظ على الاعتبار والنفوذ الذي كسبناه بالأمس وننميه.

٣- لهذا السبب، فمما لا شك فيه أن الوقت قد حان لتحريك العمل للأمام وسط المسلمين بتخطيط حكيم وتنفيذ حذر وجدية مكثفة في أنحاء سوريا، وفلسطين، ويجب توجيه الجمعيات العاملة في هذا المجال سلفاً في الحال لإنجاز هذا العمل المتقدم.

أيها الآباء والإخوة: إن اللبيب بالإشارة يفهم».. (ص٢٥٤-٢٥٥).

أرأيت!!؟

[وفيما يلي نص خطاب «و.هـ.ت. جايردنر» بالإنجليزية، مشاراً إليه بالسهمين ١، ٢]:

in our consultation this evening both must be kept in our minds. In the narrow sense, those resources are utterly insufficient to meet the situation to-day, though they could doubtless be more wisely disposed, more economically distributed, more richly used. But at our disposal also are the resources of the living God, and this thought will keep us reminded during this session also of the root lesson of this Conference, that only a new realisation of the meaning of a living God will avail us to accomplish or even continue our superhuman task.

There is not time to indicate more than the foci where the particular crisis of to-day are centred. Fathers and brethren, our motto must be *Verbum Sapientibus!* In this hall, and on this subject, I must and may emphasize each of these two words.

Beginning, then, with the Ottoman Empire, we find a movement which can broadly be described as one towards freedom, political first and then intellectual. Ultimately a double movement of this nature must react on religion slowly but surely. The inner attitude of the young Turks themselves to religious toleration is probably an advanced one. The very fact that Christianity and Christians have been to such a large extent at the bottom of their movement must produce far-reaching and important consequences. Already in many parts of the Turkish Empire, notably Syria, the liberty of the press is making very great advances. Already some leaders of Islamic thought are disposed to query the whole elaborate fabric of Islam as historically evolved and elaborated, and to go back to the Koran, into which some of them read as much Christianity as they are able. Are not these facts a call to the Societies at work in the Ottoman Empire to stand by and to strengthen their work so as to be ready to take advantage of the expanding situation? May not the day for reaping the fruit of the marvellous endurance of the Armenian martyrs be nigh? It must come, as sure as there is a just God in Heaven!

The following steps, then, seem incumbent: first, to strengthen the already splendidly successful work done for and amongst the several Eastern Churches in the Ottoman

Empire, whether Anglican or non-Anglican. Secondly, to occupy the unoccupied districts through the Societies contiguous to them—these districts are mentioned in the Report of Commission I. Thirdly, to place literary work on a stronger and surer footing. (I will return to this point in a moment.) Fourthly, to put wise, continuous, and courageous pressure upon the Government to make full religious equality and liberty an actual fact in the Empire. Fifthly, to make a wise and courageous advance in direct work for Moslems. In an informal conference lately held in Beyrout, which I had the privilege of attending, one heard witness after witness dwelling on the extent to which such direct work is already being done, and the far greater extent to which, in the opinion of all, it might be now done. At the end of the day that informal conference expressed its opinion, with this Edinburgh Conference specially in view, as follows:—

"(1) That direct evangelistic work among Moslems, which has been going on quietly for several decades in Syria and Palestine, is more than ever possible to-day, whether by means of visiting, conversation, the production and careful distribution of Christian literature, Bible circulation, medical missions, and boys' and girls' schools. (2) That the promulgation of the Constitution has already, in the more enlightened centres, made this direct evangelistic work easier, and will, we trust, as the constitutional principle of religious equality becomes better understood by the people, make it increasingly so. And, on the other hand, we are face to face with a Mohammedan educational and religious revival which makes necessary this missionary advance if the prestige gained in the past is to be preserved and increased. (3) For which reasons it is certain that the time has come for a wisely planned and carefully conducted and intensely earnest forward move in work among Moslems in Syria and Palestine, and the attention of all the Societies already working in the field is to be directed towards immediately making that forward move."

Fathers and brethren, *Verbum Sapientibus!*

Passing to Egypt, where the larger measure of civil freedom makes the possibilities of direct Moslem work practically unlimited, we find that Cairo is still to day the intellectual centre of Islam. It has been so ever since the decay of Bagdad under the Abbasides. It is therefore at this point

وعن «عمالة» عصابة تركيا الفتاة «الاتحاد والترقي» الصريحة للدائرة الاستعمارية الإمبريالية، وتمتعها بحماية كل قوى عالم العدو، يتحدث اللورد كرومر في مذكراته فيقول :

«.. من ثم إن حزب تركيا الفتاة مديون لإنجلترا ديناً كبيراً تستحق عليه جميل الشكر لأجل الحماية التي تمتع بها كثيرون من رجاله لما لجأوا إلى مصر .. وإذا نظرنا إلى المسألة نظراً قانونياً فإن السلطان كان محقاً على الراجح في طلبه الرعايا العثمانيين الذين أسخطوه. ولكن ما دامت مصر راتعة تحت السيطرة الإنجليزية فيستحيل تسليم المجرمين السياسيين»..

(المقتطف - فبراير ١٩١٥ - الجزء الثاني من المجلد ٤٦).

ويتحدث اللورد كرومر عن هؤلاء الجواسيس (الأبطال !!)، وعن أسمائهم المدونة في سجل الخيانة الوبيئ والتي كانت من أسباب خلافه مع «الخديوي عباس حلمي الثاني» :

« .. ومن أسباب خلافي مع الخديوي عباس حلمي .. ومن هذا القبيل أن رجلاً جاءني ذات يوم وأخبرني أن في أحد المنازل خزانة فيها أوراق تعلم منها أسماء رجال تركيا الفتاة، وأنه رفع قضية بإغراء الخديوي على صاحب المنزل والقصد منها ضبط تلك الخزانة وأخذ ما فيها من الأوراق وأن حزب تركيا الفتاة في أشد القلق من جراء ذلك.. كان لا بد من المبادرة إلى تلافي الخطب في الحال لأنه يُراد وضع أختام المحكمة على الخزانة حالاً فيصعب فتحها بعد ذلك فأمرت حكمدار البوليس أن يذهب حالاً ويفتح الخزانة ويأتي بما فيها من الأوراق إلى الوكالة البريطانية. ففعل كما أمرته ثم أحرقت تلك الأوراق بعد ذلك»..

(اللورد كرومر - «كتاب عباس حلمي الثاني» - المقتطف - أغسطس ١٩١٥).

ويحكي اللورد كرومر قصة الجاسوس اليهودي الماسوني «ليون فهمي» عضو

الاتحاد والترقي الذي قبض عليه الخديوي عباس الثاني ووضعه في اليخت «الخديوي» الذي كان على أهبة السفر إلى الآستانة فخلّصه كرومر وهرّبه وختم اللورد كرومر حديثه بقوله : «.. وحسبت أني عملت ما يجب عليّ وهو حفظ شأن حكومتي بتخليص هذا الرجل من مخالب الآستانة».

(كتاب، عباس الثاني - الفصل الخامس - بقلم اللورد كرومر - المقتطف. الجزء الأولى من المجلد السابع والأربعين - أغسطس ١٩١٥- ص١٢٢،١٢٣).

وهكذا أفرخت الدوائر الثلاث صغارها الأصفار بعد أن احتضنت هذا البيض الدنس في الأوكار المتحالفة (المحافل الماسونية اليهودية- ومراكز التبشير -التنصير- الصليبية). والسفارات والقنصليات الاستعمارية .. وعشعش هذا الفقس القذر في تلك الأوكار .. يتمتع بحمايتها ويلتقط حبوب العمالة والردة والجاسوسية .. وكان على ذلك الخبز شيء من السمن والعسل!!

وتحركت الدمى على مسرح الأحداث -والأسد جريح ومحاط- تحمل شعارات خادعة: التتريك - اللامركزية - الحكم الذاتي - الترقي - الدستور - الحرية - التقدم - المساواة - العدالة .. إلى آخر هذه المعزوفة .. التي رقصت الأفعى على طبلها الأجوف فرقص معها العملاء والعور والببغاوات والقرود!!

بهارات ترضي كل الأذواق: على جبهة الشعوب العربية شعار اللامركزية، وعلى جبهة الشعوب المسيحية شعار الحكم الذاتي - ويغمزون إليهم بطرف خفي: إن هذا سيؤدي في النهاية إلى الاستقلال. وللأتراك باقي الشعارات.

ويتحدث الجنرال التركي «جواد رفعت أتلخان» عن إطلاق الدعايات المضللة والأكاذيب والافتراءات التي اصطادت كثيراً من المغفلين وأوقعتهم في مصيدة الانقلاب اليهودي الماسوني فيقول:

«منذ مدة تزيد على سبعين سنة والكوارث تتوالى على بلادنا «لإزالة الخلافة العثمانية واحتلال فلسطين وإقامة دولة يهودية مركزها القدس، وقد دبرت

الأيدي الخبيثة تقديم خمسة ملايين من الجنيهات الذهبية إلى السلطان عبد الحميد الثاني مقابل سماحه لاستيطان اليهود في فلسطين، إلا أن السلطان عبد الحميد رفض ذلك بشدة، وأدى هذا الرفض إلى إثارة دعاية يهودية عالمية ضد الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية، متخذة من الافتراءات والأكاذيب سلاحاً لها، وكانت هذه الأكاذيب والافتراءات من القوة بحيث لا يمكن للإنسان أن يقف أمام تيارها الجارف .. وكانت تتضمن أمثال هذه الكلمات: «لا حرية في الدولة العثمانية»، «الاستبداد يخيم عليها»، «السلطان يفتك بالعناصر المثقفة ويرميهم من نوافذ القصر إلى البحر» إن أوروبا قد تآمرت فيما بينها لتقسيم الدولة العثمانية.

إن هذه الدعايات التي انتشرت في أرجاء الإمبراطورية، لم يميز كثيرون ما فيها من الأكاذيب والافتراءات، فأصبحت جبال مكدونية ملجأ للثوار (دعاة الإصلاح الغربي) بدعوى تنظيم السلطنة وإصلاحها إصلاحاً عصرياً .. وإن الكلمات المعسولة التي امتلأت بها آذان الناس أخذت تُعطي ثمارها، وبدأ «قره صو» نشاطه السياسي وأوقع كثيراً من الوطنيين المتحمسين في شباك الماسونية وكان أحد هؤلاء «طلعت باشا» الذي انتخب رئيساً للمشرق الأعظم العثماني».

(الجنرال جواد رفعت آتلخان -أسرار الماسونية- المختار الإسلامي).

* * *

وفي يوليو ١٩٠٨ تحرك نيازي عبر جبال مقدونيا بفرقة وزحف أنور بفيلق من شرق مقدونيا.. بضع مئات من الغوغاء يقودهم الدونمة وتلاميذ الماسون وصبية المبشرين وعملاء كل عالم العدو. وتحدث الفتنة المسماة بالثورة ويرفض السلطان حمية جنوده الأصلاء الغيورين ليسحقها.. ويستجيب لطلبات الماسون ويعلن أنور باشا دستور الحكم الجديد من شرفة فندق «أولمب بالاس» في الميدان

الرئيسي بسالونيك ويهرع الخونة من الأتراك الذين كانوا يعيشون في الدول الأوروبية في حماية مخدوميهم إلى الآستانة ينشدون الظفر بنصيب من الغنيمة ويتآمرون للاستئثار بالحكم، وتعم الفوضى في جميع أنحاء البلاد ويضج الناس من عصابة الاتحاد والترقي وتهديدها معارضيها بالسجن والقتل.

وعلى الفور استغلت الدول الأوروبية الفرصة أو بمعنى أصح: تحركت لتقطف ثمرة النبتة الخبيثة، فاغتالت النمسا منطقة البوسنة والهرسك وضمت اليونان إليها جزيرة كريت وأعلنت بلغاريا استقلالها التام بمعاونة روسيا. (أرمسترونج -الذئب الأغبر- دار الهلال -يوليو ١٩٥٢- ص٣٥).

ويشهد لينين: «.. يكيلون المديح لأعضاء تركيا الفتاة، لاعتدالهم ورصانتهم، أي أنهم يكيلون المديح للثورة التركية لضعفها .. يكيلون المديح بسبب بقاء إمكانية نهب الممتلكات التركية كالسابق. يثنون على أعضاء تركيا الفتاة ويستمرون في السير على سياسة هي بأوضح شكل سياسة اقتسام تركيا. وقد أحسنت جريدة «الاشتراكيين - الديمقراطيين» في ليبزيغ (جريدة ليبزيغ الشعبية) القول وأصابت كبد الحقيقة إذ كتبت بهذا الصدد تقول:

«من الصبيانية حقاً أن يخطر لأحد ببال أن يصدق أقوال الديبلوماسيين وأن لا يقيم وزناً لأعمالهم ولوقوف الدول صفاً واحداً ضد تركيا. فحسبنا أن نقارن اجتماع ومفاوضات وزراء الخارجية ورؤساء بعض الدول بالأحداث التي وقعت بعد ذلك لكيما يتبدد الإيمان الساذج بتصريحات الديبلوماسيين كالدخان. ففي أغسطس وسبتمبر (آب وأيلول) أي على وجه الدقة بعد ثورة تركيا الفتاة وقبيل بياني النمسا وبلغاريا، ترى اجتماع السيد أزفولكسي في كارلسباد وماريينباد بالملك إدوارد وبرئيس وزراء الجمهورية الفرنسية كليمنصو، واجتماع وزير خارجية النمسا فون أرينتال بوزير خارجية إيطاليا تيتوني في سالسبورغ، ومن ثم اجتماع أزفولكسي بارينتال في ١٥ من سبتمبر (أيلول) في بوخلويه واجتماع

الأمير البلغاري فرديناند بفرانس يوسف في بودابست واجتماع أزفولكسي بوزير خارجية ألمانيا فون شين ومن ثم بتيتوني وبملك إيطاليا.

إن هذه الوقائع لا تحتاج إلى شرح. فقبل وقوف النمسا وبلغاريا ضد تركيا الثورية كان الاتفاق قد تم على الأمور الجوهرية في طي الكتمان الكامل وبصورة مباشرة أثناء الاجتماعات بين الملوك والوزراء، بين ست دول : (روسيا، النمسا،ألمانيا، إيطاليا، فرنسا، وانجلترا). أما الشجار الذي حدث فيما بعد على صفحات الجرائد حول تصريح أرينتال وما إذا كان قد أعلن الحقيقة إذ قال: إن إيطاليا وألمانيا وروسيا قد وافقت على ضم البوسنة والهرسك إلى النمسا أم لا. فليس ذلك كله غير تهريج، غير تحويل للأنظار. إن القائمين على السياسة الخارجية في الدول الأوروبية من أضراب أزفولكسي وأرينتال وسائر زمرة قطاع الطرق المتوجين ووزرائهم قد تعمدوا رمي العظمة للصحافة .. فليأخذ بعضكم بخناق بعض أيها السادة، تشاجروا من فضلكم حول الخادع والمخدوع، المهين والمهان، حول ما إذا كانت النمسا قد خدعت وأهانت روسيا، أم بلغاريا النمسا الخ.. من كان البادئ بخرق اتفاق برلين، وحول موقف هذا أو ذاك من مشروع مؤتمر الدول وهلم جرا وإلى ما هنالك. تكرموا واشغلوا الرأي العام بهذه المسائل الهامة والخطيرة - الخطيرة منتهي الخطورة! فنحن نحتاج إلى ذلك بالضبط لتغطية الأمر الرئيسي والأساسي: بلوغ الاتفاق التمهيدي حول الأمر الجوهري، حول الخطوات المقبلة لاقتسام تركيا».

(لينين - حركة شعوب الشرق الأوسط الوطنية التحررية - دار التقدم - موسكو ١٩٦٧ - الأحداث في البلقان وفي إيران - ص٥١-٥٤. [نشر المقال في جريدة «بروليتاري»، العدد ٣٧، ١٦ (٢٩) - أكتوبر سنة ١٩٠٨]).

حدث التآمر بين الدول الأوروبية - ومن بينها ألمانيا عشيقة الاتحاديين - في أغسطس ١٩٠٨، أي بعد شهر واحد من فتنة عصابة الاتحاد والترقي، وتم الانقضاض في أكتوبر.. بعد شهرين!!

ولقد نقلت هذه الشهادة عن لينين على طولها لعل الأصفار في بلادنا يدركون كيف تصنع القوى الخارجية أصنام الفكر والسياسة ثم يكيلون لها المديح فتطمئن الدمى إلى هذا التقريظ!! ثم تروح القوى الممسكة بالخيوط أو على أحسن الفروض من خلال استمالة هذه الدمى بعبارات: «الثورية»، و«التقدمية» أو «الاعتدال» - حسب حالة الطقس العالمي - تنقض على أوطاننا فتحتلها احتلالاً صريحاً أو تضعها تحت السرج!!

هذه واحدة ..

والثانية.. لتبيان دور العظمة!! التي تلقيها القوى الكبرى أو وكلاؤها إلى كلاب الصحافة والسياسة لشغل الرأي العام وإلهائه عن قضاياه الكبرى، وهي من داخل الحجرات تدبر وتخطط وتتآمر .. على وزن: من الذي كان البادئ بإطلاق النار؟ مصر أم إسرائيل؟... وما إلى ذلك من حكايات من نفس النسيج وعلى ذات المنوال!!

ما أشبه الليلة بالبارحة!!

وتردت الأحوال في كل مكان وكان هم الاتحاديين اقتناص المنافع من وراء الدستور «الطعم» الذي ألقوه من قبل إلى الغوغاء - وصيد الغنائم من خلال نيابتهم عن الأمة، وأثرى القادة من خلال التجارة الحرام والاشتغال بالمقاولات .. وتصدعت وحدة الاتحاديين واختلف رجال العصابة طرائق قدداً.. وراحت منشورات كل فريق، حسب انتمائه إلى «المحافل الماسونية» المختلفة، تنال من إسلام الفريق الآخر.

وثارت الأمة على الردة الطورانية، واستنكرت فتنة اليهود وأعلنت أنها مسلمة حتى النخاع، وعَمَّتْ هذه الثورة الإسلامية كل أنحاء البلاد تؤكد على الوحدة الإسلامية في مقابل سياج القطيع. وتشكلت هيئة «الاتحاد المحمدي» أو «الاتحاد الإسلامي». ورفض الجنود المسلمون قيادة ضباطهم من الدونمة

وعملاء اليهود!! وقتلوا كل من قابلوه من ضباطهم أعضاء الاتحاد والترقي. وأعلن الشعب التركي كلمته الصريحة بأن مهرجي عصابة الاتحاد والترقي - كما يشهد أرمسترونج - «يهود وماسون وليسوا أتراكاً ولا مسلمين، وكل ما يهدفون إليه هو القضاء على الإسلام والخلافة .. وتمرد جنود القسطنطينية وقتلوا ضباطهم أو سجنوهم .. وأعلنوا ولاءهم للسلطان خليفة الرسول العظيم ثم استولوا على القسطنطينية وطردوا منها أعضاء الاتحاد والترقي أجمعين». (أرمسترونج - الذئب الأغبر - ص٣٥).

وراح الأبطال الذين لم يكن لهم حتى مزايا أحلاس الطرقات وفتوات الشوارع يهربون إلى المدن والقرى ويختبئون كالفئران في البيوت من أمام مطاردة الجنود الذين صمموا على إبادة العصابة، وعرفت هذه الحوادث بـ«حوادث ٣١ مارت».

وكان السلطان الرحيم يعلم «أين يختفي كبار رجال الاتحاد والترقي. وأصدرت أمرى بأن يحافظوا على أحمد رضا بك الذي نقل ليلاً وخفية من الباب العالي إلى منزله الكائن في قرية مقرى» (مذكرات السلطان عبد الحميد - ص٩٤).

وأحمد رضا هذا - الذي قلنا إن الجمعية الإسرائيلية في مصر قد زكته في مؤتمر العصابات الماسونية في باريس ليكون رئيساً لجمعية الاتحاد والترقي - كان رئيساً لمجلس المبعوثان: أي مجلس النواب .. رئيس نواب الشعب يختبئ كالفأر من الشعب!!

لكنها عظمة السلطان ورحمته - رحمه الله - هي التي أنقذته .. السلطان الذي لقبوه - كببغاوات تردد أقوال ملقنيها من ممسكي خيوط الدمى - بالسلطان الأحمر!!

وتصورت عصابة الاتحاد والترقي التي انفرط عقدها وتهرأت جمعيتها وتصدى لها غير الشعب التركي المسلم أعوان وحلفاء قدامى من بقايا المزبلة

السابقة المسمون بالأحرار العثمانيين أو «العثمانيين الجدد» أو «تركيا الفتاة» تصورت أن حسن معاملة السلطان لهم وتفضيله الشفقة على الضرب بشدة على الأيدي العابثة الملوثة أن ذلك ضعف من السلطان!!

هذه واحدة..

والثانية .. إن السلطان من موقعه كرب للعائلة ورمز لوحدة الأمة، ومن يقينه الإسلامي بأمانة المسئولية التي يحملها في عنقه، وفي يديه رايتها الغالية والعزيزة، كان ضد أي قلاقل واضطرابات حتى ولو كانت لصالحه ولصالح مقام الخلافة المهيب ولمقام السلطان الرفيع الذي تعود الشعب التركي أن يعتبره «أب الأمة» - الصاري والعماد - منذ أكثر من ستمائة عام.

من ذلك أنه انتقد الصحافة الصادرة في الأول من نيسان (إبريل) ١٩٠٩ لأنها امتدحت القائمين بالثورة الإسلامية المضادة لفتنة الماسون. وانتقد كذلك «مراد الميزانجي» الذي اختلف مع الاتحاديين وأثنى على الثورة في صحيفته الميزان وأطلق لقب «الغزاة» -أي المجاهدين في سبيل الله- على الجنود المسلمين الغيورين الذين قتلوا ضباطهم عملاء اليهود!!

مع أن الصحافة سبق لها ومن قبل حوادث ٣١ «مارت» بشهرين أن انتقدت وعارضت سلوك وإجراءات عصابة الاتحاد والترقي أياً كان موقعهم ومن ذلك استياؤها من رئيس مجلس المبعوثان أحمد رضا - رئيس الجمعية في الوقت ذاته - الذي أعلن في مأدبة بالغة الفخامة والأبهة أقيمت في فندق «برا بالاس» في استانبول أن جمعية الاتحاد والترقي ستقهر وتُنَكِّلْ بكل معارضيها. وكان من الطبيعي أن يحدث رد فعل من الصحافة الحرة والمحايدة لهذا التهديد ولغيره من إعلانات صحف الاتحاديين التي كانت تخيف الدنيا بالموت والحريق!!

نفس الطريقة إياها التي يرددها الانقلابيون الذين حملتهم دبابات الليل في حراسة السفارات الأجنبية ليتسلطوا على أقطار عالمنا الإسلامي المنكوب .. بلا

تغيير حتى في اللفظ رغم انقضاء ما يزيد عن السبعين عاماً على أول انقلاب عميل «سنقتل .. سنسحق .. سنصفي .. سنعتقل»!! خيابي حتى في النقل!!

وبذل السلطان أقصى ما في وسعه لقمع الشر وامتصاص النقمة والقضاء على الاضطرابات وإطفاء الحريق.

وهناك نقطة لا ينبغي ألا تمر دون توضيح .

إن الثورة الإسلامية كانت طبيعية منذ تحرك الدونمة والماسون والمغفلون في يوليو ١٩٠٨ عبر جبال مقدونيا من معقل الفتنة في سالونيك.

والجنود الذين قتلوا أو سجنوا ضباطهم كانوا مدفوعين بغيرة إسلامية - وربما معها نخوة تركية ترفض وتعاف أن يحكم اليهود أو عملاؤهم آخر دول المسلمين .. أعني دولة الخلافة .

وحوادث ٣١ «مارت» ١٩٠٩ كانت قمة التصاعد في عمليات الرفض الجماهيري والعسكري. لكن الدول الأجنبية كان لها يد في تصعيد عمليات القتل وإثارة المشاعر على جميع الجوانب .. ومن ذلك إحراق المصاحف لكي يُتهم في هذه العملية الجماهير المسلمة أو العسكر الموالي للسلطان فيختلط الحابل بالنابل وتتداخل الصور فتخطئ العين تقدير الأبعاد.

وكذلك كان يوم ٣١ «مارت» فرصة لتصفية الحسابات القديمة بين كثيرين من رجال الدولة والساسة وقادة العسكر وأعضاء الجمعية أنفسهم كل حسب انتمائه إلى هذه القوة الأجنبية أو تلك .. حسابات الأحقاد .. والثأر .. والتيارات .. والولاءات .. والمحافل!!

وكذلك اختلطت الأمور ودنت الفرصة.

ومن وسط عجاجة الفتنة وضرام الحريق تحرك محمود شوكت الجورجي الأصل بجيش مقدونيا الثاني من قاعدة أيا استفانوس في سالونيك موطن اليهود

الأسبان والأروام واليونان وسائر الأجناس ومعقل الفتنة ومنبت الشر ومركز المحفل الماسوني الموالي للألمان إلى الآستانة وهناك أحاطوا بقصر يلدز مقر الخلافة والسلطنة .. وجاءهم أنور راكباً على حصان .. وقرر عسكر الماسون وشراذم الأجناس عزل سلطان تركيا وخليفة المسلمين!!

وتكونت لجنة من يونانيين وأرمن ويهود وكلفت بتبليغ الخليفة السلطان قرار العزل ومعها فتوى عالم السوء الباطني العرق موسى أفندي كاظم.

وكان تشكيل اللجنة في حد ذاته يشكل أكبر وصمة عار لطخت جبين من آثر السلامة وأغلق على نفسه بابه خوفاً من الشراذم القادمة ورضي بأن تدخل هذه اللجنة على أمير المؤمنين!!

كانت اللجنة التي أبلغت خليفة المسلمين قرار عزله مكونة من :

١- «إيمانويل قره صو» وهو يهودي أسباني الأصل وأحد قادة الاتحاد والترقي ولعب دوراً كبيراً في احتلال إيطاليا لليبيا. اقتنى أموالاً كثيرة من وظيفته كمفتش إعاشة الجيش أثناء الحرب عن طريق السرقة من تموين الجيش. وكان رئيساً لمحفل «ريزوليتا» المقدوني الماسوني. ولما انفضحت خيانته أثناء الحرب هرب إلى إيطاليا وهلك هناك سنة ١٩٣٤.

٢- «آرام» وهو أرمني - عضو الاتحاد والترقي - وعضو مجلس الأعيان.

٣- «أسعد طوبطاني» وهو ألباني - عضو الاتحاد والترقي - نائب في مجلس المبعوثان.

٤- «عارف حكمت» وهو كرجي العرق - عضو الاتحاد والترقي - ضابط بحري.

هوان!!..أليس كذلك!؟

طامة كبرى قذفت بحمم الخزي في العيون. لم تجد من يجاوب صدى وقعها

الأسيف. في ذلك اليوم الأسود المنحوس الحزين (٩ إبريل ١٩٠٩).. ليقول رغماً عن السلطان الذي استعلى أن تراق في سبيله الدماء: واضيعتاه..!! وإسلاماه..!!

ثم ينهض الرجال المسلمون ويضربون ضربتهم ويقذفون قادة العصابة إلى مياه البسفور فيبتلعهم النسيان إذ لا ينبغي أن تلوث جيفهم المنتنة ثرى إسلامبول.

وينصرف بعد ذلك أحلاس الجند المهلهلين وغالبيتهم يهود وأروام ويونان يرتدون أزياء العسكر وقد اندسوا فيما أُطلق عليه جيش الحركة .. جيش الانقلاب. أما الأتراك منهم فهم عمي البصيرة قد حَرَّكهم قادتهم كما هي عادة الأوامر في الجيوش.

وتُكنس بعد ذلك الشوارع من عفن الفتنة والردة في ساعات .. وقد سبق أن سقطت المجر كلها تحت لواء الجيش العثماني المغوار في نصف نهار.

ثم يُلقي بالنفايات إلى العدم وإن بقي شيء للدرس وللعبرة فمكانه مزبلة التاريخ.

ويخرج بعد ذلك رأس الدولة الإسلامية وحارسها اليقظ وقد التفت حوله الجماهير الواعية فيؤم الرجال الأحرار في «أيا صوفيا» في صلاة شكر جامعة تتجاوب معها تكبيرات الأذان في جميع ديار المسلمين.

وإن كان ثمة ضرورة من اعتذار يقدمه الجنود الأوفياء لقائدهم الأعلى أنهم لأول مرة لم يطيعوا أمره فإن الإجابة واضحة ومحددة:

«عفواً قائدنا .. إن المقام هنا ليس مجرد مقام عبد الحميد .. إنه مقام الخلافة الإسلامية. ومقام السلطنة العثمانية الذي لا ينبغي أن يدوس حماه يهود .. لقد فزعنا إلى الجهاد -فرض عين- لأن حمى الإسلام .. حمى خليفة المسلمين قد استبيح»!!

ليت ذلك كان!!

أقول ذلك وأنا أعاني من هول الواقعة .. أعاني من إفراز نتانات عهود العهر في مسلسل المطايا والدمى والعملاء .. منذ ذلك اليوم العبوس القمطرير!!

فأنا وأنت، وهو وهي وهم .. من الصين إلى جبال الشطوط على المحيط الأطلسي .. ومن سيبريا والتركستان إلى جنوب السودان .. نحن الجماهير المسلمة ننتمي إلى عبد الحميد .. الخليفة والعقيدة .. الوعي والنهج .. الشعار والأداء .. التحدي والصمود.

ونحن على وجه اليقين لا يربطنا أي شيء بأي «صفر» جاء بعد ذلك عتل زنيم!!

أيعقل أن يجمعنا أي رباط مع «قرة صو» و«جافيد» و«طلعت» و«نيازي» و«لورنس» و«أتاتورك» و«بلفور» و«اللنبي» و«حاييم ناحوم أفندي» أو «ليون كاهون» .. قادة الانقلاب وثمرته .. رؤوس جسر المرور اليهودي إلى مملكة صهيون!!

قبلتنا «الكعبة» .. وجهة وحركة وصلاة، ورباطنا آصرة العقيدة ونسبها الوشيج .. وليس محفل المشرق الأعظم أو محفل مقدونيا ريزوليتا حتى لو منحتنا درجات الصليب الوردي أو بناة الهيكل أو فرسان يهوذا أو الأفعى النحاسية ولا حتى نجمة داوود.

هذه بديهيات يعرفها تلاميذ الغزو وصنائعه وبدائله الذين تسلموا مفاتيح القلعة في عالمنا الإسلامي الجريح بعد تصفية المسألة الشرقية .. سواء في ظل الحماية الإنجليزية أو الفرنسية أو العسكر الذين جاءوا بعدهم ثواراً فوق دبابات الأمريكان لتأمين اللولب بعد أن عمدهم العم سام!!

اللولب الإسرائيلي بالطبع .. وفق تطورات المسألة اليهودية من آلام المخاض، ثم ميلاد الدولة، ثم نمو الوليد المدلل ثم نضجه بأسنان حادة وذراع طويلة وقدرته على الإحاطة والابتلاع وإلى تفرغه لإعداد ترتيبات قيام مملكته الكبرى التي يجلس في قدس أقداسها «المسيح المنتظر» الخارج من بذرة داوود!!

بل إنها بديهيات يعرفها كتبة حراسة ثقافة العدو في بلادنا الذين يؤذون أسماعنا في خطة منظمة بالحديث عن:

أول انقلاب عسكري في الشرق الأوسط.. الإنقلاب العثماني،..... الخ.

ويتبجحون بالقول في ألفاظ يلوكونها من كناسة مخدوميهم عن: السلطان الأحمر!!.. الطغيان الحميدي!!.. وطنية أبطال الإنقلاب!!.. إصلاحات الثوار وشغفهم بالحرية والدستور!! ... ... !!؟

لكن إذا كانت الجماهير التركية المسلمة المعروفة بغيرتها الدينية- وقد تمت كل الفتوحات التي أسست الدولة العثمانية من منطلق هذه الغيرة - لا تملك السلاح الذي تقاوم به ما سُمي بجيش الحركة وتصد عن خليفة المسلمين أحلاس الشوارع والحانات وصبية اليهود وتلاميذ المبشرين وأبناء عاهرات سالونيك - فأين كان الجيش التركى ذو الحمية الإسلامية والولاء لمنصب الخلافة العالي المهيب؟

هذا سؤال لا بد أن يعتمل في النفس المسلمة، ويظل بوخزه الحاد في الضمير المرهف للتاريخ الإيماني لأمتنا المسلمة - مؤلماً وموجعاً.

وهو على أي حال سؤال وجيه .

والناس معذورون إن قالوا: إذا كان الجيش العثماني الشجاع الغيور قد تحول إلى دونمة وماسون، ورضي أن يُبَلِّغْ الخليفة الإسلامي والسلطان العثماني قرار عزله يهود وأرمن وكرج، وفقد نخوته حتى من قبيل القومية التركية البحتة ..

فليكن ما كان!!

لكننا للإنصاف نجيب على هذا السؤال :

١- إن السلطان رفض بشدة وصية كبار رجال الدولة المخلصين بإيقاف جيش الانقلاب في الطريق قبل وصوله إلى العاصمة ورفض ونبه بشدة ألا يخرج الجيش الموجود في استانبول من ثكناته وينتشر ويتخذ مواقعه ليتصدي للشرذمة القادمة على مدى مسافة مئات الكيلومترات .. ومعروف أن جيش استانبول من أكفأ جيوش الدولة العثمانية تدريباً وتنظيماً وتسليحاً وهو الذي تكسرت أمام صلابته أعتى الجيوش الأوربية المتحالفة أن تدخل إسلامبول .

ألم يكن في استطاعة هذا الجيش أن يُبيد جيش الحركة القادم من سلانيك على بعد كبير، وقد أرهقه السفر وأعياه طول الترحال، ويعوزه النظام، وهو في الوقت ذاته خليط من أجناس شتى، تثير نخوة الأتراك الأصلاء!؟

٢- رفض السلطان بشدة توسلات جنود جيش الخاصة، الذي يعسكر في العاصمة أن يتصدوا لجيش الماسون. وجيش الخاصة على أكمل وجه من الاستعداد، وضباطه وجنوده منتخبون مخلصون لمقام الخلافة الرفيع ولسلطانهم قائدهم الأعلى.

٣- رفض السلطان بشدة أن يواجههم سلاح البنادق وهو من أكفأ الأسلحة في الجيوش العثمانية ومن أخلصها ولاء للسلطان. حتى أن قائده خليل بك جثى على ركبتيه وهو يبكي أمام السلطان متوسلاً: «تفضلوا بإصدار إذن جلالتكم».

والسلطان مع ذلك يرفض بإصرار. ويعاود القائد المخلص الطلب: «لو سكتنا على اعتداء عدة مجانين فلن نخجل فقط أمام ضميرنا بل سيلحق اسمنا العار أيضاً أمام شعبنا وقومنا».

وكان إخلاص هذا القائد لبلاده وخليفته وسلطانه قد حدد طريقه إلى حبل

المشنقة عندما رحل عبد الحميد.

٤- كان السلطان عبد الحميد لا يريد أن يُريق دماء جنوده مفترضاً غالبية تركية في جيش الحركة - جيش الانقلاب .. وكانت كلمات الرجل القائد ساعة أن أحاطت الشرذمة الباغية بالقصر في ذلك اليوم الأسود (٩ إبريل ١٩٠٩): «أليسوا جميعاً أتراكاً .. إنهم يريدون عبد الحميد ولا يريدون سواي، إن الأمة يا بني في حاجة إلى دمائكم ودمائهم فيما سيحيق بها غداً من نكبات»!!

وأمر قائد الحرس بالانصراف. كان- رحمه الله- يحسن استعمال مقام الخلافة ويكره أن تسيل الدماء.

يقول رحمه الله في مذكراته: «لو لم أكن قد أحسنت استعمال مقام الخلافة ونفوذ السلطنة لكان الدم يسيل مدراراً سواء في استانبول أو في الولايات».

هذا ما فعله آخر خلفاء المسلمين وهو يواجه عصابة متمردة كان يمكن سحقها في سويعات .. الخليفة الذي يمنحه تفكيره وإحساسه بأنه متوضئ دائماً قوة ذات طعم مختلف .. قوة أكبر من أسلحة الذين دخلوا عليه ليعزلوه !!

أبعد ذلك تتطاول قالة عاهرة من أفواه نجسة لمرتدين أو عملاء أو زنادقة تزعم - في رائحة كريهة - أن السلطان عن الحميد كان جلاداً أو أحمراً أو مُريقاً للدماء!!؟

والمعجب في أمر السلطان «الدموي!!» ، «جلاد جلادستون!!» ، «السلطان الأحمر!!» أنه كان يعلم منذ البداية بأفراد العصابة أو تشكيل تركيا الفتاة وعاملهم بمنتهى الشفقة على أمل استتابتهم!! أو إرجاعهم إلى جادة الصواب!!.

يقول السلطان المجاهد عبد الحميد رحمه الله في مذكراته:

«هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «تركيا الفتاة» كانوا في الأصل ثلاثة أشخاص أو خمسة، وهؤلاء عملوا ضدي عدة سنوات في أوروبا. تكلموا،

خططوا، كتبوا. كل ذلك قبل أن يفكروا أن العمل ضدي معناه أيضاً: العمل ضد الوطن. كانت صحفهم التي يصدرونها تأتي خفية إلى البلاد عن طريق البريد الأجنبي، وتوزع بواسطة الأجانب. مضت أعوام ولم تحدث آثار جدية هامة لهذا، لأنها لم تكن أعمالاً تنبع من أفكار جدية هامة.

ورغم هذا، فإني كنت على صلة بهم، وحتى لا يتورطوا في شيء نتيجة لإفلاسهم - وهم في بلاد أجنبية فقد بذلت لهم مساعدات مادية كبيرة بحجة شراء صحفهم، وأغمضت عيني عن إرسال بعض الأشخاص للنقود إلى البلاد، لكي لا يكونوا أداة للأجانب، وكنت أقول: إن معارضتهم - رغم خطئها - فإنها يجب أن تظل شريفة.

هناك أيضاً بعض الأسباب التي دفعتني لذلك: «أحمد رضا بك»- وكان مديراً للمعارف في بورصة - سافر إلى أوروبا بحجة الدعاية للمنتجات الحريرية البورصوية في معرض باريس الذي افتتح بمناسبة مرور مائة عام على الثورة. ذهب ولم يعد، ومن هناك أرسل لي - لائحة إصلاحية - قرأتها ولم يكن فيها شيء، فهو لا يعرف البلاد، ولا يعرف ما يمكن أن تفعله هذه المقترحات، أهملتها.

بدأ بعد ذلك يصدر مجلة «مشورت» وطلبت من سفيرنا في باريس أن يتحرى عن وسيلة تعيشه. أجابني بأنه يلقي دروساً في اللغة التركية ويتعيش عن طريقها، وأنه يصدر صحيفة ويتحمل نفقاتها.

إنه ساذج، ولا يصدقه أحد، حتى لو كانت جارية بسيطة لم تشتر في حياتها رغيف خبز واحد من مخبز. وبدأت أرسل له نقوداً بطرق مختلفة، فليس هناك حل آخر.

وهنا أتحدث قليلاً عن «مراد بك» المشهور بـ «الميزانجي» وهذا أتى من قفقاسيا وهو في ريع الشباب. مر باستانبول. وكان أول باب - وهو في طريقه

إلى القرم للدراسة – طرقه في استانبول: باب قصر مدحت باشا.

سريعاً ما قابله مدحت باشا واستمع إليه ثم أرسله بمذكرة إلى رشدي باشا. اشتغل مراد بك فترة في ديوان رشدي باشا، وبعد موت الباشا أصبح مدرساً للتاريخ في المدرسة الإعدادية. كان المعروف عنه تأييده للسياسة الإنجليزية، وعندما أبعدت سعيد باشا عن الصدارة العظمى، وهو المعروف بتأييده للسياسة الإنجليزية، بدأ مراد بك في إصدار جريدته الميزان .. وهرب ذات يوم إلى روسيا، ومن هناك توجه إلى أوروبا، وفي لندن قابل «اللورد سالسبورى»، ثم استطاع الحصول على تصريح بإصدار جريدته «الميزان» من مصر، ثم ذهب إلى أوروبا مرة أخرى، وأخيراً، وبوساطة أحمد جلال باشا، عاد إلى استانبول مرة أخرى.

لا أود الحديث عن كيفية معيشته أثناء هذه الفترة، ولا عن كيفية استطاعته القيام بهذه الرحلات الطويلة، ولا جهة تمويل جريدته.

رأيت خطاباً تسلمه أحمد جلال الدين باشا من علي كمال بك في مصر– وغالباً ما يكون هذا الخطاب بين محفوظات قصر يلدز– فيه أسماء ومصادر التمويل، اسماً اسماً. وفي هذا الخطاب أيضاً يذكر أن الدكتور عبد الله جودت، والدكتور إسحاق شكوتي، والدكتور بهاء الدين شاكر، والدكتور ناظم، والدكتور إبراهيم تيمو، ينتسبون إلى المحافل الفرنسية والإيطالية، حتى أن هذه المحافل أيضاً تسلم عائلاتهم الموجودة داخل البلاد النقود يداً بيد. هذا ما كتبه وأرسل معه الوثائق المؤكدة لهذه المعلومات.

وكما قلت من قبل: إن الصحف التي صدرت في أوروبا ومصر بمختلف أسمائها، ورجال الجمعية الذين يتنزهون في هذه البلاد، لم يخرجوا للبلاد كاتباً جاداً واحداً، ولكن محافل الماسونية – رغم كل تعقبنا لهم – جعلت من هؤلاء المتسكعين أعلاماً، عندما حرّكوا الضباط من أعضاء الاتحاد والترقي، وها هي

ذي قصة تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي.

نعم، هذه هي الحكاية، حكايتهم: ولكن النتيجة نشاهدها اليوم بكل أسف أمام أعيننا».

وكان السلطان يعلم: «وكما استغل الإنجليز غفلة أعضاء تركيا الفتاة، عن طريق المحافل الماسونية، بدأ الألمان يفعلون هذا مع الفريق الآخر منهم، وعن طريق المحافل الماسونية أيضاً. وبهذا الشكل سيطر الألمان على تشكيل تركيا الفتاة في سالونيك، وسيطر الإنجليز على تشكيل تركيا الفتاة في مناستر».

وكان السلطان يعلم أن الغاية البعيدة لهذا الفيروس الغريب: «كان الإنجليز يثيرون عليَّ اتحادي مناستر، ويثير الألمان عليَّ اتحادي سالونيك. كانوا يعملون على قيام انقلاب للاستيلاء على الدولة من الداخل».

ويعتذر رحمه اللّٰه عن ذلك بقوله: سيقولون لي: تعلم كل هذا، ولم تمنعه. لماذا أغمضت عينيك عن خراب الدولة وانهيارها؟ .. حاشا!

ليست المسألة مسألة إغماض عين، لقد كنت يقظاً في كل لحظة، لكني لم أكن أستطيع منع هذا، كنت بمفردي وكان معهم كل عالم العدو. لم تكن طبيعتي وظروفي تساعد إلا على هذا.

يدينني أصدقائي بأنني متساهل، أما أعدائي، فيقولون إني ظالم غدار.

الإطاحة فوراً بعدة رؤوس كلام من السهل قوله، من الصعب تنفيذه، وكل رأس إنسان تفتح أمام الإنسان هوة، ولو استطعت أن تملأ هذه الهوة فسيخافون منك، ولا تستطيع عندها أن تهدد، وكل ما تهدد به سينفذ. وفي حالة عدم تغطية هذه الهوة، فليس هناك شيء قط يمكن عمله، وأنا إنسان رحيم منذ ميلادي ولكني أعلم أن الدولة لا يمكن أن تُدار بالرحمة» (صفحة ٥٨-٦٠).

ويوضح - غفر اللّٰه له - أسلوب معاملته لهذا الزرع العميل فيقول :

«وكما يحمي البستاني أزهاره من الحشرات الضارة، حميت أنا أيضاً بلادي من الأفكار التافهة، ولم أسمح لها بقرص دولتي. عاملت هؤلاء الشبان وهم أصحاب أفكار خاطئة بشفقة ولم أعاملهم بظلم. ولقد حاولت مع الكثير جداً منهم كل على حدة أن أرشدهم إلى الطريق القويم وعملت على تحويل نيران حماسة شبابهم إلى خير البلاد. نجحت مع بعضهم وأخفقت مع البعض الآخر. خلال ما بذلته من جهد، لم أستخدم حماسي هذا في سبيل شراء ضمائرهم لكني استخدمته لتنوير ضمائرهم» (صفحة ٩٠).

هذا كلام جميل ما في ذلك شك !!

وطبيعة الرجل الرحيمة والظرف والتاريخ والمرحلة وتآمر ثالوث قوى عالم العدو محسوبة لدينا ومقدرة!!

لكن تصفية الطابور الخامس المكلف بإنجاز مهمات الردة والعمالة وتمهيد الطريق لوصول رأس الأفعى اليهودية إلى صهيون والقضاء على آخر دول المسلمين الجامعة .. كانت أولى في مواجهة عالم العدو .. وكان اجتثاث الزرع الغريب ضرورة تمليها ظروف المواجهة مع كل عالم العدو.

روى ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» - الجزء الخامس - مطبعة السعادة - ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) ص٣٠] عن ابن هشام بسنده:

«حدثني الثقة عمن حدثه عن محمد بن طلحة بن عبد الرحمن عن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله بن حارثة عن أبيه عن جده قال: بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي - وكان بيته عند جاسوم - يُثَبِّطُون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم..».

كم هو تجلى!!

يجتمع المنافقون للتآمر على أول دول المسلمين في بيت سويلم اليهودي. عند

جاسوم، ويتآمر المنافقون المحدثون - بعد ثلاثة عشر قرناً - لضرب آخر دول المسلمين في بيوت اليهود في مناستر وسالونيك.

وليت السلطان عبد الحميد - غفر اللّه له وسامحه - بعث إلى المنافقين الجدد من أحرق عليهم بيت جافيد في سالونيك كما فعل النبي ﷺ من قبل فحرق على أسلافهم بيت سويلم في جاسوم!!

ونحى الحارس اليقظ عن الحكم - عن خلافة المسلمين، وعولج المجد الجريح بأن وضع على السدة العلية سلطان كسيح!!

فقد تولى السلطنة محمد رشاد وكان مريضاً ولا حول له ولا طول أمام عصابة الماسون التي كانت تحكم آخر دول المسلمين.

ورحل عبد الحميد :الوعي.. واليقظة.. والتحدي.. والصمود.

وعلى الفور: «انشقت الأرض مرة واحدة عن مستعمرات يهودية ذات أبنية شاهقة في مناطق حيفا ويافا والرملة والكرمل، وهكذا فإن أسس إسرائيل قد أرسيت بأيدينا» كما يقول - بحق - الجنرال جواد رفعت آتلخان - في كتابه «أسرار الماسونية»- (المختار الإسلامي-ص.٦٠).

«وانتشرت الأوكار اليهودية في مختلف أنحاء البلاد، لم يكن في العهد الحميدي إلا محفل ماسوني واحد للأجانب ، أما في عهد الحرية فأرادت الماسونية أن تنتفع من إطلاق الحريات!! فلذا قام الدكتور اليهودي جاك سهامي باقتباس مبادئ المشرق الأعظم الفرنسي، ومبادئ المحفل الأكبر الإنجليزي وكتب أسس الماسونية باللغة التركية، وأعقبها بكتابات كثيرة عن الماسونية!!» (المصدر السابق ص٦١).

وسيق الناس للإعدام بالجملة واستشرى الفساد وتفشت الرشوة في جميع أجهزة الدولة وسرق النواب الماسون من عصابة الاتحاد والترقي في مجلس المبعوثان العثماني أقوات الشعب ومؤن الجيش وتولوا أعمال المقاولات

الحكومية. وباع جافيد وزير المالية اليهودي خط سكة حديد بغداد للألمان.

ولم يكد يمضي عامان - على الانقلاب اليهودي حتى انقضت إيطاليا على ليبيا، ففي سبتمبر ١٩١١ أنزلت إيطاليا جيوشها على الشاطئ الليبي وشنَّت هجوماً على طرابلس وبرقة اللتين كانتا جزءين من دولة الخلافة الإسلامية وتغلبت الجيوش الإيطالية على الحامية التركية القليلة العدد.

وكان الجو في استانبول مُسيلاً للعاب الذئاب الصليبية. فعصابة الاتحاد والترقي كانت هي حكومة المؤامرة التي مَهَّدت للغزو وفي وجودها ومباركتها اتحدت كل دول البلقان المسيحية مجتمعة ضد تركيا يعضدها ويمدها بالسلاح والنفوذ القوي المسيحية الكبرى الأخرى.

وهذه هي الأدوار، كل فيما يخصه :

لعب «قره صو»، أحد قادة الاتحاد والترقي حكام الدولة العثمانية في أيامها الأخيرة (١٩٠٩-١٩١٨) دوراً رئيسياً في احتلال إيطاليا لليبيا وكان يشغل وظيفة مفتش إعاشة. واضطر نتيجة لخيانته أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية واستقر في تريستا حيث مات عام ١٩٣٤ (مقدمة مذكرات السلطان عبد الحميد بقلم محمد حرب عبد الحميد - دار الأنصار - ص٦).

أما «متر سالم» اليهودي الماسوني فيتحدث عن دوره الجنرال جواد رفعت أتلخان في كتابه «أسرار الماسونية» ترجمة: نور الدين رضا الواعظ، سليمان محمد أمين القابلي (نشر المختار الإسلامي):

«إن طرابلس الغرب (ليبيا الحالية) التي تعتبر موطن أخلص أبناء الدولة العثمانية قد وقعت في مخالب الإيطاليين بمؤامرة خبيثة، دبرها اليهودي الماسوني «متر سالم» الحائز على الدرجة الثالثة والثلاثين في الماسونية..

لقد ذهب «متر سالم» إلى إيطاليا وقابل رئيس بلدية روما اليهودي والحائز

على الدرجة الثالثة والثلاثين في الماسونية، ورسما الخطط اللازمة ودفعت الخزينة الإيطالية الملايين من الليرات الذهبية إلى اليهودي "متر سالم" لقاء إقناعه الدولة العثمانية بضرورة سحب الأسلحة والعتاد من طرابلس الغرب إلى استانبول بحجة التغيير والإصلاح. وبمساعي الماسونيين أيضاً سيقت قطعان الجيش إلى اليمن، وهكذا سلمت البلاد الطرابلسية (ليبيا) لقمة سائغة للطليان.. »

« وتعالت أصوات النواب الطرابلسيين في المجلس النيابي العثماني، ولكنها اصطدمت بالستار الحديدي الماسوني، وتلاشت بعد مدة وذهبت أدراج الرياح .. ولقد أدرك طلعت باشا أخيراً هذه المؤامرة ولكن هيهات .. هيهات .. إن طرابلس لم تكن هي الضحية الوحيدة لمؤامرة الماسونيين اليهود بل ذهبت ضحيتها فلسطين . وسائر البلدان التي اقتطعت من الدولة.. » (ص٦٠-٦١).

ومن العجيب أن يصف الجنرال أتلخان «طلعت باشا»- أحد الثلاثة الذين كانوا يسيرون الحكومة التركية - بأنه كان طيب السريرة مخلصاً .. لا، إن هذا الـ «طلعت» كان رئيساً للمحفل الماسوني - المشرق الأعظم العثماني، وكان وفياً لدوره القذر في المؤامرة حتى النهاية!!

أما أنور باشا وزير الحربية وأحد القادة البارزين في انقلاب الدونمة والماسون.. أحد الثلاثة الكبار (طلعت، أنور، نيازي).. فإن كل ما يعنيه يوم أخذته حماسة فارغة وذهب إلى ليبيا أن أقام لنفسه خيمة عظيمة فرشت بالسجاد وبُطِّنت جدرانها بالجوخ والأصواف المزركشة..!!

«وعجز الإيطاليون عن التقدم في الداخل حيث واجههم الأتراك (الحامية الضعيفة هناك، والمضروب من حولها ستار الحديد الماسوني في العاصمة!!) ومن خلفهم شعوب شمال إفريقيا التي امتشقت السلاح وأعلنت الجهاد أو الحرب المقدسة، وجعل الوعاظ يُثيرون حَمِيَّة الأهالي بالضرب على نغمة الدين، فتدفقت

القبائل من ليبيا ومن واحة الكفرة لنُصرة الأتراك إخوانهم في الدين .. فضلاً عن المتطوعين الذين جاءوا من كل حدب وصوب!! (هـ.س. أرمسترونج - الذئب الأغبر - مصطفى كمال - دار الهلال - ٥ يوليو ١٩٥٢ - ص٤٣).

ومع الستار الحديدي اليهودي الماسوني يتحرك كل عالم العدو النصراني الصليبي، لإنجاز المؤامرة، ولاقتطاع أجزاء أخرى، ولإيجاد المبرر لسحب القوات التركية على ضعفها. أي قلة عددها وقلة سلاحها.

ويشهد الكابتن «هـ.س. أرمسترونج» في كتابه المشار إليه آنفاً: «وحدث بعد هذا أن أعلنت حكومة الجبل الأسود الحرب فإذا بدول البلقان المسيحية تتحد كلها، لأول مرة في تاريخها ضد تركيا وإذا بالحكومة التركية تسارع إلى مهادنة إيطاليا كي توجه جهودها إلى الحرب المتاخمة .. وأرسلت تعليمات إلى طرابلس تقضي بسحب قواتها إلى مصر وإعلان استقلال طرابلس، وعودة الضباط الأتراك فوراً إلى وطنهم .. لأن العدو على الأبواب يهدد بخطر الفناء»!

« .... وقوات الصرب ضربت ضربتها بدورها من الجنوب فاحتلت سالونيك وأسرت خمسة وعشرين ألفاً من الأتراك .. والبلغار جعلوا وجهتهم القسطنطينية، وراحوا يدقون الخطوط المحصنة في «شطلحة» التي لا تبعد سوى خمسة عشر ميلاً عن العاصمة!.. وهكذا اكتسحت الجيوش المهاجمة تركيا الأوروبية جميعها فلم يبق منها غير بضعة الأميال المحيطة بالعاصمة وقلعة أدرنة الكبيرة التي عُزِلت وحاصرها البلغار حصاراً شديداً .. وازدحمت العاصمة بالجرحى فغصّت بهم المستشفيات والكنائس والجوامع والدور الخاصة .. وانهار نظام التموين .. ومات الألوف بالكوليرا والتيفوس وألوف غيرهم من الجوع والبرد .. وفي ظل هذا استمر الساسة في العاصمة يتنازعون من أجل السلطان والنفوذ، بحيث لم توجد حكومة وطيدة الدعائم لتسيطر على الحالة...!».. (ص: ٤٤-٤٦).

فقد صارت الدولة عبارة عن بعض كلمات لبعض أشخاص وظهر أغنياء

الحرب وعَمَّت الفضائح في كل مكان. وكانت كل الحسابات السياسية والعسكرية للعور والقرود والببغاوات الممسكين بدفة الحكم للسفينة الغارقة خاطئة من جميع الوجوه.

فكان أنور باشا- كما وصفه بحق السلطان عبد الحميد- «صنف من الناس إذا ما ارتبطوا بمكان وجدوا فيه نفعاً فلن يكون لصداقتهم حدود .. وليس له أي مزية عسكرية إلا أن له وجهاً مليحاً..»!! وهكذا اختاره الألمان وتمسكوا به.

كل ما يهم أنور باشا الذي يعوض عن تطلعه لأن يكون سلطاناً في دولة الحكم فيها وراثياً أن تزوج من بنت صاحب الجلالة السلطان .. الأميرة «ناجية سلطان» وعاش في أبهة ورفاهية في قصر يطل على البسفور!!

وأما جمال باشا فقد كان مهووساً بجنون العظمة وأراد هذا القزم أن يقلد السلطان سليم!!

وأما محمود شوكت قائد جيش الحركة الانقلابي وقد جعله الاتحاديون رئيساً للوزراء، فقد مزقت جسده رصاصات مجهولة أردته قتيلاً أمام سراي الحكم!! وتحرك القتلة في الشارع العام في أمن مشبوه!!

وأما طلعت باشا الذي تولى رئاسة الوزارة بعد محمود شوكت فهو الدب الكبير، موظف البريد الصغير، فقد أصبح رئيساً للمحفل الأكبر الماسوني - المسمى «المشرق الأعظم العثماني» .. ترقية يهودية تتكافأ مع منصب الصدارة العظمى!!

وانتهت الحرب البلقانية في جو أخذ الفقر فيه بخناق الشعب، وعَمَّ السخط جميع الطبقات - ولا سيما صفوف الجيش - انتهت بأن سَلَّمت حكومة الاتحاد والترقي سالونيك لليونان.

وهكذا أدت سالونيك دورها في تفريخ صبية اليهود. فلما لم يعد لها دور بعد، انضمت موطن الأروام واليونان واليهود والجواسيس إلى دولة من إحدى

دول عالم العدو!!

وبالمناسبة فقد سجن المغفور له السلطان عبد الحميد في قصر «بيلربي» في سالونيك ليكون إعلاناً لافتاً لأنظار كل من يأتي بعد ذلك عميلاً زنيماً : «هذا هو مصير من يقف في طريق رأس الأفعى»!!

اختاروا سالونيك ليحبسوا فيها أمير المؤمنين ليضمنوا أمن حراسته وسط الأرمن واليهود!!

أيعقل أن يطمئن الجواسيس أن يكون خليفة المسلمين سجيناً في أي مدينة أخرى تركية الإسلام والأصل والضمير.. سواء في العاصمة أو في الأناضول!!

ومع كل ذلك فقد سمّروا نوافذ السجن ومنعوا عنه الصحف طيلة سبعة عشرة عاماً وسرقوا منه كل أمواله حتى حُلّي بناته ولم يعطوه إلا معاشاً يكاد يمسك الرمق بضروريات الحياة!! وقتلوا رجلاً سجنوه معه أملى عليه المذكرات!! بل لقد بلغت بهم وهدة السقوط أن حاولوا اغتياله في سجنه برصاصة طائشة أطلقها عليه حارسه فتحي المقدوني اليهودي الأصل!!

أكل هذه الإجراءات مع رجل عجوز يبعد عن العاصمة بمئات الكيلو مترات .. وفي مدينة شبه يهودية .. سجيناً في أمانة «من يهمهم الأمر» الذين يريدون الوصول إلى صهيون .. وقادة الجيش الماسون وضباطهم وجنودهم يحرسون العجوز الأعزل السجين!!؟

أيخافون من رجل أسير أطلقوا عليه من قبل خلعه ومن بعد صفات «الطاغية الأحمر»، «الجلاد»!!.. وأنهم ما قاموا بانقلابهم إلا لتخليص الشعب من حكمه البغيض!!؟

أحقاً يخافون؟

لست في حاجة لأن أجيب بنعم .. لأن «نعم» ستكون حشواً وكلمة مرادفة

للخوف لا يستسيغها البيان!!

وسارت الأمور سيرتها المحتومة واتحد ماسونيو سالونيك عملاء الألمان مع ماسونيي مناستر عملاء الإنجليز.

لكن الانجليز والألمان أنفسهم لم يتحدوا!!

وقامت الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ بين ألمانيا والنمسا من جهة، وإنجلترا وفرنسا من جهة أخرى.

وانضمت حكومة الاتحاد والترقي إلى جانب الألمان!! وهكذا دخلت تركيا في حرب أوروبية لا ناقة لها فيها ولا جمل!!

وكانت هناك وصاية على الجيش التركي وتحركاته من قِبَلِ الألمان الذين تدخلوا وتسللوا إلى جميع ألويته وكتائبه.

وضجر الجنود الأتراك من تدخل الألمان وقيادة الماسون.

وتمزق الجيش التركي تحت القيادة الفاشلة والعميلة على جميع الحدود والجبهات وتبعثروا بين هزيمة وانسحاب!!. وتلقوا في الظهر الطعنة الغادرة من التمرد المؤامرة التي أطلق عليها «الثورة العربية الكبرى».. ثورة لورنس!!

ويوم حرَّك الإنجليز حسين بن علي شريف مكة وأولاده ليخون دولته وينضم إلى أعدائها بشرذمة من المأجورين والموارنة ونصارى الشام تقوم بعملية عصابات الطابور الخامس تحت علم الصليب البريطاني من خلف خطوط الجنود المسلمين الأتراك الأبرياء .. كانت حكومة الاتحاد والترقي قد أعطته - بسياسة التتريك وكراهية العرب - مسوغاً يُجاهر به أمام الجماهير العربية المسلمة معلناً الخيانة والانفصال.

وقد حاول الإنجليز أن يُحَيِّدُوا تركيا في الصراع وقاموا بمحاولات مع حكومتها، بادئ الأمر، كي لا تشترك في الحرب العامة لكن الحاكمين في

استانبول أبوا إلا التبعية للألمان!!، فلقد كانت إنجلترا تخشى من استعمال تركيا لسلاح الخلافة، يوم يُعلن خليفة المسلمين - وإن كان لا رأي له في حكومة الدونمة والماسون - الجهاد المقدس فرضاً على المسلمين.

كذلك حاول الرئيس ويلسون الأمريكي في مفاوضات اشتركت فيها فرنسا وإنجلترا في جبل طارق أن يخرج الأتراك من الحرب بضمان ما تَبَقَّى لهم من ممتلكات، لكن المحاولات فشلت بتدبير من اليهود بزعامة وايزمان!!

وانتهت الحرب العظمى في عام ١٩١٨ بهزيمة ألمانيا وتركيا. وتحطمت دولة الخلافة الإسلامية وتمزقت أوصالها وتهرأ كل شيء وتسيبت الأحوال في كل مجال.

وانقضت الذئاب على الأسد الجريح وحطَّت الأساطيل والجيوش الصليبية في قلعة الإسلام التي صمدت لمدة سبعة قرون وكانت ذات يوم تحرس عالمها الإسلامي في مساحة امتدت من الفلبين في أقصى المشرق إلى جبال الشطوط على شاطئ بحر الظلمات - المحيط الأطلسي - في أقصى الغرب، ومن سيبيريا في شمال الدنيا إلى جنوب السودان!!

واستولى العسكر الإنجليز على قلاع الدردنيل، والسفن البريطانية والصليب يعلو سارياتها تتبختر في مياه البوسفور مستولية على شواطئه وكأن قرنه الذهبي لم يكن يوماً ما الحارس اليقظ الذي تحطمت تحت أقدامه مجرد نية الدخول إلى دار عثمان!!

ولم تعد الصخور الذهبية المطلة على المياه الحزينة تُرَجِّع الصدى ليوم عبرت فيه عليها من قبل جيوش التوحيد فاتحة القسطنطينية مكبرة : «لبيك أبا أيوب»!!

واحتلت الجيوش الفرنسية والإنجليزية إسلامبول.

وعاث جنود فرنسا من زنوج السنجال في شوارع الآستانة فساد المرتزقة والأقزام!!

وإيطاليا هي الأخرى احتلت جيوشها مدينة بيرا وخطوط السكك الحديد!!

وزيادة في الإذلال قرر المؤتمرون في باريس بقيادة الرئيس الأمريكي ويلسون، ورئيس الوزارة البريطاني لويد جورج، ورئيس وزراء فرنسا كليمنصو أن يرسلوا قوات غزو يونانية ذهبت في حراسة جيوش الصليبية العالمية إلى ديار الأعزاء.

حتى اليونان الذليل!! كان له من الفريسة نصيب، فاحتل الجريك - أتباع الأمس - مدينة أزمير!!

وتجول أبناء ماخوس في شوارع أسيادهم والنبيذ يزيد من عربدتهم بالنصر الهدية المصنوع!! وطفح ورى أكبادهم في انتشاء المنحط ووقاحة الصبي المغرور!!

وخلا الطريق من الأتراك ليزدحم بجموع من الأروام واليهود تصيح في هوس متعصب حقود: «زيتو فنزيلوس» أي يعيش فنزيلوس!! - رئيس وزراء اليونان.

وتولى ضباط الاحتلال الحلفاء الإشراف على الشرطة والحرس الوطني والميناء.

وصُفِّيَتْ ثغور الإسلام وقلاعه من عتادها وسُرِّحَ جيش المسلمين وتفرقت كتائب الجهاد في كل أنحاء البلاد، مُطاردةً من عدوها، مطعونة في ظهرها من بني دينها، مسلوبة الدروع، مجردة من السلاح!!

ومع ذلك .. صمدت الجماهير التركية المسلمة ورفضت التسليم بنتيجة الهزيمة التي صنعتها حكومة الماسون وأصرت على مواصلة الجهاد!

وتحطم حكم الجواسيس ماسوني سالونيك وفروا هاربين من البلاد .. هرب الثالوث الذي حكم تسع سنوات: «طلعت .. أنور .. جمال».

أما «جمال» فقد اختفى وراء الحدود يبحث عن ملجأ وملاذ!!

وأما «أنور» وزير الحربية فقد فر إلى روسيا ليبحث له عن دور جديد وهلك هناك بعد أن خدعه البلاشقة الذين استجدى مساعدتهم ضد مصطفى كمال.

وأما الصدر الأعظم رئيس الوزراء «طلعت» فقد تسلل غداة سقوط العاصمة إلى ألمانيا في ستار الليل. وعندما فتح فمه الكريه مدعياً أنه قد أدرك أبعاد المؤامرة الماسونية اليهودية - التي ظل وفياً لدورة القذر فيها - عالجته على الفور رصاصة صهيونية ماسونية أسكتت إدراكه إلى الأبد، فلفظ أنفاسه العفنة في ألمانيا وشُوِّنَ جثمانه الوبيء في حفرة مجهولة هناك .. كمصير كل المطايا والعملاء والأصفار!!

كدأب الذين اشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم .. ولا حتى بقي لهم عند مخدوميهم رأس مال الردة والعمالة .. بل ولا حتى حياة الكلاب!! تخلصوا منهم .. وصاروا إلى العدم ولا شيء سواه.

وكدأب الذين أنكرت أفواههم المعْوَّجَةُ طعم مياه النبع الأصيل، فهرعوا إلى سراب الشيطان، كبهائم سائمة، يلتمسون عنده شراباً يطفئون به نار الحقد التي اشتعلت في جوفهم الوبيء، فلم يجدوا إلا صحراء التيه .. وتركهم شيطانهم يهلكون عطشى بسلعتهم الفاسدة عارية في علانية النهار!!

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم: ٢٢) صدق الله ربنا العظيم ....

وانتهى دور ماسوني سالونيك عملاء الألمان ليأتي دور ماسوني مناستر عملاء الإنجليز!!.. وكان ما كان ... !!

رُكِّبَ الصنم النموذج على قاعدته في أنقرة، وتسلم مسيلمة الكذاب السلطة وانتصر هرقل الجديد - ممثلاً في بريطانيا وأمريكا وفرنسا وإيطاليا - في دا.

الخلافة الإسلامية، نيابة عن عالمهم النصراني بمسيلمة الجديد .. مسيلمة المسخ المسمى «أتاتورك» بعد أن فشل هرقل التاريخي في مساندة مسيلمة القديم!!

فإن كان هرقل قد حاول أن يُدْعِّم مسيلمة الأول عقب انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وفشل، وهلك مسيلمة تحت حوافر خيول الدعاة، فإن خلفاء هرقل قد نجحوا في صنع مسيلمة الثاني، وعاش هذا (البطل!!) الدمية عبداً لدور رُسِمَ له في حماية من كانوا يمسكون بخيوط اللعبة ويحركونها من وراء ستار!!

كان مسيلمة الأول حالة مرضية بسيطة، أما الثاني فكان عملية معقدة .. وبينهما ثلاثة عشر قرناً من الزمان!!

وكان الإثنان يمثلان عصريهما تمام التمثيل..

فمسيلمة القرن الأول الهجري هوى، ومن حالوا مساندته كانوا يسقطون، وسيدهم هرقل يصرخ مهرولاً وهو يُوَدِّعُ سوريا الوداع الأخير!!

ومسيلمة القرن العشرين الميلادي أُقيم على قواعد لعبته، في جو الهزيمة، وتمكن، وكان مدعموه يدخلون الشام منتصرين، يسبقهم «اللنبي» إلى القدس، معلناً إنتهاء الحروب الصليبية، في نفس الوقت الذي أصدر فيه «بلفور» تصريحاً باسم حكومته يمنح فيه فلسطين وطناً قومياً لليهود!! والجنرال الفرنسي «غورو» يركل بقدمه مثوى صلاح الدين!!

وهناك فارق آخر كبير وهام بين المسيلمتين .

فلئن كان مسيلمة اليمامة يعمل لحساب ذاته المريضة، فإن مسيلمة أنقرة كان يعمل لحساب الآخرين من المبشرين والدونمة واليهود!!

وإذا كان مسيلمة الأصل في اليمامة قد نفس الحجاز أن يظهر فيه خاتم النبيين، نبي العالمين، ثم ارتد إليه حسد عينه الهزيلة.. هلاكاً واندثاراً..

فإن مسيلمة المسخ في أنقرة قد نفث في جو التصفية الرهيب عُقَد آبائه من اليهود والدونمة والزنماء، الذين صبغت الضغينة والحقد قلوبهم تجاه الإسلام ديناً وحضارة وأثراً..!!

الفصل الخامس

أتاتـــورك

خيوط تحرك الدمية .. وخطوط تحدد الدور

الهند والهة ومصر حزينة
تبكي عليك بدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس
أمحا من الأرض الخلافة ماح؟

«شـوقي»

انتهت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ بهزيمة ألمانيا وحليفتها حكومة الاتحاد والترقي الماسونية التي استولت على الحكم في دار الخلافة الإسلامية زهاء أحد عشر عاماً وأرغمت الجيوش العثمانية الباسلة للدخول في حرب أوروبية لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ومن ثم القتال في جبهات مترامية الأطراف: في الحجاز ومصر وسوريا وفلسطين والعراق والأناضول وشبه جزيرة البلقان، وفي البحار: الأسود والأبيض المتوسط وإيجة ومرمرة.

وبعد انتهاء المزبلة الماسونية – حكومة الاتحاد والترقي – وتبعثر محتوياتها وفرار قادتها: الدونمة أنور وطلعت وجمال، واختفاء اليهودي جافيد، وبقية الأعضاء في أماكن مجهولة تحت غطاء من محفل سالونيك، تألفت حكومة برئاسة توفيق باشا صديق الإنجليز فوقعت هدنة في ٢٩ أكتوبر ١٩١٨ على ظهر بارجة إنجليزية في ساحل مدروس.

وكان من شروط الهدنة تسريح معظم الجيش وجمع سلاحه. وجمعت فعلاً أسلحة أربعة جيوش من المخازن والمستودعات وسلمت للإنجليز الذين سلموها بدورهم لليونان لدور قادم بعد شهور سيكتب الشعب التركي المسلم بدمه الزكي أسطورة نصره الباهر .. لكن الدم العزيز سيعمد به مهندسو لعبة الأمم – الإنجليز – حينما أعد لذلك الدور المشبوه!!

لكن الجيش الذي يقوده كاظم قره بكير المعسكر في ديار بكر في أقصى شرق الأناضول بفرقه الست قد بقي بقوته وكامل عدته.

وهَبَّ الأتراك عن بكرة أبيهم للجهاد الذي استنفر له الرجال وقد تنادوا أن حمى خليفة المسلمين قد استبيح.

تألفت في العاصمة نفسها الآستانة - برغم احتلالها من كل قوى عالم العدو - عشرات الجمعيات السرية هدفها الاستيلاء على الذخائر والأسلحة وإرسالها إلى المجاهدين في الداخل حيث شكلت هناك في عشرات المواضع جمعيات مهمتها تدبير المقاومة السرية .

وتحرك الدعاة في طول البلاد التركية وعرضها وفي ديار الإسلام، في قارتي آسيا وإفريقيا، يحثون الناس على الجهاد ويستطلعون الأنباء ويبثونها دعماً لجذوة نار القتال المشتعلة في صدور أبناء آخر الدول الجامعة لوحدة المسلمين.

تتحدث من تسمى «مدام جوليس» كشاهد عيان عن دور كتائب الدعوة والمعلومات فتقول في صورة قلمية رائعة:

«كان ينساب بين هذا الجمهور العظيم في الآستانة، أفراد يتنسمون الأخبار ويستطلعون الحقائق من فدائي العثمانيين، ولا يلبثون بعد أن يحصلوا على ما يريدون من تفاصيل الأنباء أن يغيبوا عن الأبصار، لابسين ثوب الخفاء، إلى بلدان الأناضول، ناقلين ما رأوه من شعور، ومن أسى ومصائب متعددة، جاعلين من موادها عوامل محركة، موقظين الهمم، مضرمين جذوة النار في النفوس الهادئة التي لا تلبث بعد أن يصل إليها هذا الكلام أن تنقلب إلى سعير متأجج ..

فلا تكاد تمر بهؤلاء الرواد إلا بضع ساعات حتى يصلوا إلى الأناضول، وفي بضعة أيام يصلون إلى قونية، ومنها ينتقلون إلى أنقرة فسيواس، ثم يأخذون في الرحيل إلى جهات سحيقة ليست محدودة في برنامج أسفارهم، وما يلبث أهل

هذه الأصقاع - بعد سماعهم ما ينقل إليهم من فاجع الأنباء - أن يستحيلوا إلى نمور متوثبة، وسباع غاضبة .

وبعد عدة أسابيع يكون هؤلاء الفدائيون - جوّابو الآفاق - قد اخترقوا السهول والوهاد والجبال، وانسابوا إلى بلاد الإسلام في قارتي آسيا وإفريقيا التي كانت تربطهم فيها الآلام والكوارث برابطة الاتحاد المقدس..

وكان بين جيوش هؤلاء الداعين إلى الاتحاد والناشرين أنباء الفظائع والأهوال أناس يتزيون بأزياء الفاقة والبؤس، وهم من خير من أنجبت الأمة العثمانية، بل العالم الإسلامي، تفكيراً وعلماً وقوة إرادة وشدة مراس».

ماذا يفعل الحلفاء .. والإنجليز بالذات أمام هذه الثورة الإسلامية الكبرى؟

ألم يئن الأوان لأن تصفى «المسألة الشرقية» برمتها؟

ألم يحن الوقت بعد لأن تتكسر سيوف الإسلام أو على الأقل أن توضع في غمدها؟

لقد بدأت المسألة الشرقية - وفق المصطلح الأوروبي - منذ ظهرت صولة الترك في أوروبا فأخذت الدول الأوروبية جميعها على عاتقها معاداة الدولة العثمانية والتنادي على إخراج المسلمين من القارة. لكن هذه الدول ظلت عاجزة حيال هذا الهدف وحبط عملها وخاب أملها، فقد رفعت الدولة المسلمة رايتها الهلالية الجليلة في الأجواء الأوروبية وألجمت الخيول العثمانية المظفرة ببسالة فرسانها كل قوى عالم العدو. وحَجَّمت دورها وقد حمت أمتها الإسلامية من طوفان التعصب النصراني اللعين. وحسب كل الغزاة حساب الاقتراب من دار عثمان. وظل الغرب الصليبي ما يقرب من ثلاثة قرون في موقف الدفاع .

وتداول المؤتمرون أو المتآمرون في مؤتمر الصلح في باريس وعلى رأسهم الرئيس الأمريكي «ولسن» ورئيس الوزراء البريطاني« لويد جورج» ورئيس

وزراء فرنسا «كليمنصو» كيف يوقفون هذه الكارثة؟ وكيف يخمدون النار الإسلامية المشتعلة في الأناضول؟

وهداهم تفكيرهم الغبي أول الأمر - أو ربما كتجربة استطلاع رأي - إلى لعبة زادت الموقف اشتعالاً. ذلك أنهم قرروا إرسال قوات غزو يونانية لتحتل أزميرا! وحدث احتلال اليونان لمنطقة أزمير بعد الهدنة بسبعة شهور، ١٥ مايو سنة ١٩١٩. ويقال إن ذلك التدبير قد تم بمؤامرة بين العميل الماسوني الصهيوني «لويد جورج» الذي أصدرت حكومته وعد «بلفور» وبين «فينزيلوس» رئيس وزراء اليونان - والذي كان بحقد القرون - يرى في نفسه ممثلاً للتراثين البيزنطي والأرثوذكسي، ومن ثم فهو يحلم (إي والله)!! بإمبراطورية إغريقية تكون عاصمتها الآستانة - القسطنطينية سابقاً - ومعها غرب الأناضول والروملي!! ويذكر المدعو محمد عزة دروزة في كتابه «تركيا الحديثة» (مكتبة الكشاف - بيروت ١٩٤٦) أن احتلال اليونان لأزمير كان من أشد ما بعث في نفوس الأتراك ألماً وحسرة. وتكونت عصابات من الأرمن والروم واليهود فصبوا كؤوس أحقادهم على الأتراك وتفننوا في الأذى والتصرفات المهينة وارتكبت هذه العصابات ما يستفز الجماد من البغي والتجني والشذوذ والعنف ومن سلب ونهب وتعذيب وانتهاك أعراض وإزهاق أرواح وتمثيل واعتقالات في مناطق تراقيا الروملي وساحل البحر الأسود وولايات أزمير وبورصة، بتوجيه وتنظيم هيئة مركزية متصلة بالبطريركية اليونانية وبجيوش الاحتلال اليوناني ومتضامنة مع البطريركية الأرمنية ومستندة إلى تعضيد رجال وضباط الاحتلال الإنجليزي ومدعومة من قبل الحكومة الأرمنية الشيوعية التي قامت في تخوم بلاد الدولة الشرقية من القفقاس (ص١١-١٢).

ورداً من الجماهير التركية المسلمة على هذا الاستفزاز تكونت فرق مسلمة فدائية كمنت في الجبال المواجهة لأزمير وقد أقسمت أن تظل في مواقعها تقاوم قوات الغزو اليونانية وتحاصرها حتى تقضي عليها. وسقطت الحكومة في استانبول.

إذن لا بد من الدوران حول الهدف. لا بد من احتواء الثورة الإسلامية المسلحة التي لن تصفى المسألة الشرقية بسبب أوراها المشتعل في كل مكان فحسب بل قد تجدد شباب الخلافة الإسلامية من جديد .. وربما .. وربما .. !! وحسبت الحسابات. المطلوب إيجاد عميل في صورة بطل قومي ذي توجهات ماسونية عالية الدرجة حاقد على الإسلام ودولته وبيء النشأة تحركه نقائص العرق والسلوك. وبحث الإنجليز في دفاتر سفارتهم في استانبول وراجعوا أسماء تشكليهم الماسوني في مناستر، ووجدوا (الكارت)!!

وكان المرشح ضابط يدعى «مصطفى كمال».

وتقول بطاقته بالبنط العريض تحت أنظار المختصين الإنجليز:

«إنه قد ولد لأب - إن كان صحيحاً نسبته إلى ذلك الأب - انحدر في صباه من جبال ألبانيا قرب حدود الصرب المشهورة بعدائها الشديد لدولة الخلافة العثمانية. ولأم جاء والدها الفلاح البسيط من جنوب ألبانيا. وأتت والدته من مقدونيا، وأن الدماء اليهودية تجري في الأسرة الكمالية. ولد في سالونيك مستودع اليهود الدونمة الذين درأوا عقائدهم باعتناق الإسلام. لم يكد يلتحق بمدرسة فاطمة مولى الملحقة بأحد المساجد - وهي من أشهر مدارس الدين - حتى أخرجه أبوه وسلمه إلى مدرس متقدم في السن كان يدير مدرسة ابتدائية تعلم وفق المناهج الغربية لأن أباه كان يقاوم شيوخ الدين ويؤيد الأفكار التي كانت تتسرب من الغرب. وفي السابعة عشرة من عمره التحق بالمدرسة العسكرية في «موناستر» لأنه على حد قوله: «أريد أن أصبح ضابطاً أزين جسمي بالملابس العسكرية البديعة». وفي موناستر المحفل الماسوني الموالي للإنجليز والذي في حضانته تكوّن تشكيل فرع للاتحاد والترقي الخاضع لسيطرة الإنجليز .. وكان الناقمون في البلقان وحول موناستر بصفة خاصة يؤججون الثورة والفتنة في دولة الخلافة. وككل مقدوني أو ألباني إنه يكره الدولة

العثمانية. وكان أثناء دراسته في موناستر يتردد على سالونيك رغم كرهه لبيت أمه التي تزوجت من تاجر روسي بعد وفاة أبيه. وكان يقضي وقته في صحبة بعض الرهبان المقدونيين.

إنه وإن كان قد انضم إلى تنظيم «الاتحاد والترقي» في سالونيك والذي كان فرعاً من منظمة النهيلست الدولية التي تضم أشتاتاً من الناس يتحدثون عن اضطهاد روسيا لليهود ويتغنون بفضائل النمسا وإتاحتها لهم فرصاً لجمع المال - ذلك التشكيل الذي كان يسيطر عليه الألمان وانبثقت عنه الحكومة المهزومة المنحلة - فإنه كان مكروهاً من هذا التنظيم وظل في القاع، وحرص زعماء التشكيل السالونيكي على تركه خارج نطاق الدائرة السرية التي تدير أعمال المنظمة، ومن ثم فإن ولاءه لمحفل موناستر أكيد. كان يسخر من جميع المبادئ والمثل العليا الخلقية ويمزقها شر ممزق فقد كانت في نظره ليست أكثر من غطاء يخفي رياء الناس وحماقة الحمقى. مجرد من المشاعر الرقيقة، لا يخلص لإنسان أو لمثل أعلى أو لنظام مرسوم. ما فيه من الحيوان أكثر من الإنسان. ذئب كاسر مجرد من العاطفة أو الخلق أو المبادئ السامية أو السلوك القويم .. أو أي شيء غير شهواته الحيوانية، منبوذ من النساء الناعمات اللاتي يتجاهلنه فازداد حقداً وانطواءً على نفسه. يقضي جل وقته مع النساء الماجنات اللواتي لا يحتجن إلى فطنة أو لباقة، يشرب ويلهو كل ليلة حتى مطلع الفجر .. يقامر ويلعب النرد ساعات طويلة مع أي إنسان يجلس إليه .. مارس جميع الرذائل وجرَّب كل الموبقات وانغمس فيها حتى أذنيه ثم دفع الثمن مرضاً جنسياً وصحة منهارة. كافر بجميع شئون دنياه الأخرى. لم يكد يبلغ الرابعة عشرة حتى تفتحت ميوله الجنسية الطائشة. انغمس في الملاهي والحانات والمقاهي والأندية الليلية يشرب ويقامر كل ليلة لا يعنيه أن يتأنق في اختيار النساء فحسبه نظرة أو ضحكة من امرأة ليلتهب دمه وينطلق وراءها فلا يرجع إلا وقد نال منها ما أراد، وكلهن عنده نساء لا فرق بين هذه وتلك. عندما كان ملحقاً حربياً في صوفيا تعلم

الرقص الكلاسيكي على مدرس خاص ومارسه حيثما وجد إلى ممارسته سبيلاً. وغشى الصالونات والحفلات وحاول أن يكون نجماً من نجوم المجتمع، فغازل نساء صوفيا. وكان الأول كلما تعرف إلى امرأة أن يستطلع مدى استجابتها لرغبته الجنسية فإن لم يجد لديها استعداداً لذلك كف عن الإلتفات إليها وسعى إلى نيل غايته من أخرى. أناني طاغي، مصمم على اغتصاب السلطة بأي ثمن. لا يثق بأحد ومن المتعذر أن يصادق أحداً، غادر، الوعود دائماً في نظره وسيلة إلى غاية وسلم إلى هدف. فشل في القتال في جميع الجبهات. يحقد على العرب بسبب فشله في القتال في جبهة سوريا ولا يستطيع أن يفرق بين عصابات العملاء من عرب «لورانس» و«حسين بن علي» الملقب بالشريف وبين الجماهير العربية المسلمة التي تتولى دولة الخلافة. تسلم قيادة جميع قوات تركيا الجنوبية في حانة بمدينة أطنه من القائد الألماني «فون ساندرز» وتركها وسافر إلى الآستانة موعوداً بدور لكن لم يسند إليه أي منصب. إنه الآن في العاصمة وفي ضاحية شيشلي ولوع بالأحاديث الخليعة والإفراط في الشراب والمغامرات الماجنة والليالي الحمراء في رفقة النساء .. إنه بلا عمل» (١)

وهذا هو المطلوب .. إذن آن الأوان !!

عُين مصطفى كمال مفتشاً عاماً للجيش التاسع!! في نهاية إبريل ١٩١٩ في ذات الوقت الذي قبض فيه الإنجليز على كبار قادة الجيش ورجال منظمات المقاومة المسلحة في العاصمة وزجوا بهم في سجن بكير أغا!! واعتقلوا عدداً آخر اعتبروهم خطرين ونقلوهم إلى مالطة.

ورتب مصطفى كمال مع «الداماد فريد» رئيس الوزراء الجديد أمر ذهابه إلى الأناضول بصفته مفتشاً عاماً للجيش التاسع. ويذكر «دروزة» أن رئيس الوزراء «فريد» كان عضواً في جمعية محبي الإنجليز التي كان رئيسها الراهب الإنجليزي «فرو» وقد أفهم «فريد» الإنجليز أن السبب في الاضطرابات الناشئة

---

(١) راجع: هـ.س أرمسترونج «الذئب الأغبر .. مصطفى كمال» دار الهلال - ١٩٥٢. وكذا: أرنولد توينبي «العظماء المعاصرون» لندن - ١٩٥٠.

داخل البلاد لا ترجع إلى أية عاطفة شعبية!! بقدر ما ترجع إلى تصرفات جمعيات الاتحاد والترقي الملعونة .. ولئن كان مصطفى كمال عضواً فيها إلا أنه في الواقع من ألد خصومها .. ثم هو إلى ذلك جنتلمان يمكن الثقة به، ومن ثم فهو خير من يصلح لأن يضطلع بالمهمة الكبيرة، وأفلح رئيس الوزراء في إقناع الإنجليز بوجهة نظره فأصبحت وظيفته مفتشاً عاماً للمنطقة الشمالية وحاكماً للولايات الشرقية .

ويذكر «دروزة» أن من صلاحيات هذه الوظيفة «أن يكون تحت أمره فيلقان يتبعهما أربع فرق، وأن يصدر أوامر وتعليمات للفرق الأخرى المجاورة لمنطقته ولو لم تدخل في دائرة تفتيشه، ولولاة الولايات الموجودة في هذه الدائرة والولايات المجاورة لها، حيث كاد يكون له صلاحية الاتصال الرسمي بجميع قوات ولاة الأناضول»[١] .

ولم يكن الإنجليز في حاجة إلى وجهة نظر فريد - إن كتاب مصطفى كمال كان عندهم منشوراً. وكان السلطان قد وافق أول الأمر على إيفاده للأناضول لتهدئة الخواطر حتى لا يجدها الإنجليز فرصة فيحتلون باقي البلاد. وكان حجم الهزيمة وجميع قوات العدو - بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان .. الخ - الذين يحتلون العاصمة وأزمير - قد شلت تفكير السلطان الذي يحول بينه وبين الأناضول عساكر الغزو وأساطيله فلا يدري شيئاً عن روعة استعداد كتائب الجهاد وجماهير الشعب كله التي حملت السلاح والتهبت كل مشاعرها للقتال وعسكرت في كل هضاب ووديان ومدن آسيا الصغرى .

ثم عاد السلطان وارتاب في أمر تعيين مصطفى كمال لهذه المهمة وأصدر قراراً بإيقاف سفره، لكن مصطفى كمال نفذ من بين جيوش الاحتلال الإنجليزية .. لقد سَرَّبهُ الإنجليز .. والعذر غاية في السخرية والاستخفاف بالعقول - السبب كما يقول المتيمون به حد العشق - في نشراتهم الهزيلة :

---

(١) محمد عزة دروزة «تركيا الحديثة» مطبعة الكشاف - ١٩٤٦. ص١٤. ١٥.

«فاضطرب الأمر بين اختصاص سلطان الجيش والأسطول بتنفيذ الأوامر، وظلت معلقة حائرة بين جهات الاختصاص المتضاربة بضع ساعات تمكن خلالها مصطفى كمال من الوصول إلى غايته»[1] (هكذا!!).

ووصل إلى سامسون في ١٩ مايو ١٩١٩ يحمل صفة رسمية وصلاحيات وظيفية واسعة ويحولها خطوة .. خطوة - على الطريقة إياها - إلى غرض في نفس يعقوب!!

ولم يكن أولاد يعقوب (إسرائيل) والمستلحقون من «الإشكيناز» تحت قيادة المحفل الكوني الماسوني ومحفل مناستر السري، ومنظمة الصهيونية العالمية في حراسة وتأمين ثأر القوى الصليبية العالمية - ثأر ستة قرون - ليريدوا إلا سلخ الأتراك - تركيا الرسمية على الأقل - من دينهم وتراثهم ودورهم، وخلعهم من أمتهم الإسلامية، وإعلان الطلاق!!

ويوم جاء الدعى الدجال إلى الأناضول الثائرة زعم أنه مبعوث السلطان الخليفة الذي أرسله لينقذهم من الإنجليز. ولم تكن الجماهير المسلمة وهي تغلي بالثأر، تدرك أبعاد ما حدث في استانبول .. بينها وبين العاصمة - التي تقع في الجانب الأوروبي من الدولة - قوات الحلفاء التي تحتل فخر المدائن، وقوات اليونان تحتل أزمير، ومضايق وبحار تملؤها أساطيل المحتلين .

قال مسيلمة المسخ الزنيم، لكي يربط كتائب الجهاد به: «لقد قرر العدو أن يدمر تركيا وطننا، ويمزقها شر ممزق، ويقيم ولاية يونانية حول سامسون وقد امتلأت جميع قرى الأقاليم بوكلاء بطريريك اليونان .. وبات السلطان خليفتكم مسلوب الحول والقوة أسيراً في أيدي الإنجليز - لذلك أرسلني إليكم كي أنقذكم، لكنكم يجب أن تنقذوا أنفسكم بأنفسكم!!»[2] .

---

(١) أرمسترونج «الذئب الأغبر - مصطفى كمال» ص١١١.
(٢) المرجع السابق ص١١٥.

وفي وسط أوار الثورة المشتعلة في الأناضول، ولأنه - كما زعم - مبعوث الخليفة السلطان قال للجماهير المحتشدة :

«عليكم أن تقرروا أمركم . عليكم أن تختاروا لكم زعيماً. وهناك شرط واحد جوهري للنجاح : أن يكون لكم رجل واحد في المقدمة، رجل واحد يقود هذه الحركة، ورجل واحد فقط .. فإذا اخترتموني فسوف يتعين عليكم أن تشاطروني مصيري»[1] .

ولأنهم يريدون النجاح، وتنظيم حركتهم، وهو قد جاءهم ممثلاً للسلطان الخليفة للإنقاذ، وفي صورة رسمية وبخطاب مختوم، من وزير الحربية، مفتشاً عاماً للجيش وحاكماً للولايات الشرقية فقد وافقوا على اختياره زعيماً وقائداً. واشترطوا عليه - زيادة في التأكيد - ألا يفعل شيئاً من شأنه أن يسبب أذى للسلطان الخليفة في شخصه. فقبل الشرط!!

وعن تحايله مستغلاً اسم الخلافة لركوب الموجة يعترف هو ذاته، بعد الطلاق الرسمي وإعلان لا دينية الدولة، وذلك في خطابه أمام مؤتمر «حزب الشعب» يصف ما شاهده في الأناضول عن ارتباط الناس بالخلافة :

«الارتباط التام بمقام السلطان الخليفة انسياقاً وراء التقاليد الدينية والوطنية التي مرت عليها الأجيال، ووجوب حفظ هذا المقام وصيانته، وكون هذا الأمر لا بد منه في خلاص الأمة والوطن ولم يكن أحد قادراً على فهم معنى الخلاص وإمكانه من غير خليفة وكان من يشذ عن هذا المفهوم يتهم باللادينية واللاوطنية والخيانة»[2] .

وجاءت الأوامر من حكومة الآستانة المركزية إلى كاظم قرة بكير بإلقاء القبض على مصطفى كمال، واستخدم مصطفى كمال حماسه في محاولة إقناع كاظم قائلاً: «إن الأوامر الصادرة من العاصمة ليست في الواقع صادرة من السلطان

(١) المرجع السابق ص١١٧.
(٢) محمد عزة دروزة (تركيا الحديثة) ص١٤.

بل من الإنجليز وإذن فهي ليست شرعية - والسلطة الشرعية الوحيدة هي الممثلة في مؤتمر المندوبين الذي سيعقد في سيواس»، وبهذا النقاش استدرج مصطفى كمال كاظم قرة بكير إلى متاهة من الأبحاث الفلسفية السياسية ثم ناشده كزميل - وكان كاظم بفطرته بطيئاً في الوصول إلى قراره - وعقد مؤتمر «سيواس» في ٤ سبتمبر ١٩١٩ وصدر عن المؤتمر ميثاق يحدد الحد الأدنى الذي يقبل به الأتراك الصلح مع الحلفاء ومما جاء فيه: يجب أن يترك تقرير مصير البلاد ذات الأكثرية العربية بحرية إلى أهلها، أما البلاد التي تسكنها أكثرية عثمانية متحدة في الدين والجنس والأصل فهي كل لا يتجزأ.

وسقطت وزارة فريد في ٢ نوفمبر ١٩٢٠ وجرت انتخابات عامة في البلاد لانتخاب برلمان جديد وفاز المجاهدون الثوار بأغلبية كبيرة وانتخب مصطفى كمال نائباً عن «أرضروم» وكان من رأيه أن يكون مقر البرلمان في أنقرة لكن النواب رأوا الانتقال إلى العاصمة - الآستانة - بعد انتخابهم نواباً شرعيين عن البلاد ليكونوا هناك في ظل الحاكم الشرعي للبلاد. ووصلوا فعلاً إلى العاصمة واجتمع الشمل في جو من الغبطة وأرسلوا برقية إلى السلطان يعربون فيها عن ولائهم له. وكان ذلك في مستهل يناير ١٩٢٠.

وفشل مصطفى كمال في بلوغ غايته وانتقل مركز النشاط من أنقرة إلى الآستانة وانتقلت الزعامة من مصطفى كمال إلى رؤوف، وسادت رغبة حارة في تجنب الشجار بين تركي وتركي والظهور بمظهر الشعب المتحد في جبهة واحدة تحت زعامة الحاكم الشرعي .. خليفة المسلمين.

وفي طول البلاد وعرضها بات الأتراك يرفضون تنفيذ أوامر جيش الاحتلال. واستدعيت القوات إلى الخدمة من جديد ودربت تدريباً أفضل. وخولفت شروط الهدنة أكثر من مرة وأغارت جماعة من الأتراك على مستودع للذخيرة في غاليبولي وحملوا معهم عند انصرافهم حارسه الفرنسي وما كان يحتويه المخزن من سلاح .. ومع ذلك لم يتيسر القبض على هؤلاء ومعاقبتهم !

وبات أن الأمر سيفلت من يد مصطفى كمال المرسل إلى الأناضول لاحتواء الثورة التي لم يستطع الآن السيطرة عليها .. ويفلت من الإنجليز في المقام الأول.

وتحرك الإنجليز لتدعيم بطلهم وتلميع دوره، وعلى طريقة لعبة الأمم وصناعة الدمى الأبطال - والتماثيل الإنجليزية ليست كالأمريكية سريعة العطب - اتخذ مهندسو اللعبة عدة إجراءات لإبراز الزعيم :

(١) أعلنوا احتلال العاصمة - الآستانة - رسمياً في ١٦ مارس ١٩٢٠ رغم الهدنة .

(٢) ألقوا القبض على معظم النواب وخاصة البارزين منهم، ومنهم منافسو مصطفى كمال، وعلى كثير من كبار القادة وتولوا ترحيلهم إلى معسكر اعتقال في مالطة .

(٣) سَرَّبوا من الآستانة أخلص رجال مصطفى كمال ومنهم عصمت - ساعده الأيمن وخليفته فيما بعد - وفوزي شاقماق من الحربية - والكاتبة الماسونية خالدة أديب وزوجها الماسوني الصحفي عدنان، لينضموا إليه في أنقرة في قلب الأناضول .

(٤) أغلقوا دار البرلمان الشرعي المؤيد للخلافة ومقامها وجله من قادة الثورة واحتلوا بناية المجلس في ١١ إبريل ١٩٢٠.

(٥) زوَّدوا اليونان بالسلاح للتوسع في منطقة احتلال أزمير غربي الأناضول، فراحوا يحرقون ويقتلون ويكتسحون المنطقة بلداً بلداً - والفرنسيون أيضاً قاموا بعدة عمليات حربية[١] .

---

(١) راجع: George Haddad - Revolutions and Military Rule in the Middle East, New York 1965, P. 101-103. ، وكذا: أرمسترونج «الذئب الأغبر - مصطفى كمال» ص١٢٦-١٢٧.

ولم يبق من الزعماء البارزين أو القادة الوطنيين أحد خارج السجن أو النفي، وشاعت في أقاليم تركيا أنباء احتلال الإنجليز للعاصمة وحركة الاعتقالات التي أقدموا عليها. وجاء مصطفى كمال ليقول لكتائب الجهاد المسلحة شرقي ووسط الأناضول والتي كانت في حالة غليان واستعداد وقسم على نيل إحدى الحسنيين وعلى حد تعبيرهم: «إما غاز وإما شهيد».. جاءهم ليقول لهم: لا بد من القتال، وهذا شيء هم له حاضرون، وينبههم إلى النيات السيئة للحلفاء وبالذات الإنجليز (هكذا!!)، ولا بد من التنظيم، ولا بد من انتخاب برلمان بديل وحكومة غير حكومة استانبول التي احتلها الإنجليز. وتطلع الناس إليه. وهو قد أخفى مهام دوره المهلك إلى حين. ووافقوه على ما أراده.

أصدر دعوة لانتخاب مندوبين من مراكز الأناضول ليشكل مجلس أمة يضطلع بالعمل بصورة رسمية يكون مقره أنقرة. وعقد المجلس بالفعل تحت اسم «المجلس الوطني الكبير». أو «الجمعية الوطنية الكبرى» عقب صلاة الجمعة في ٢٣ إبريل ١٩٢٠.

ودشن افتتاحه بمراسم طنانة وصدرت الأوامر بإقامة الاحتفالات الدينية والرسمية في جميع أنحاء البلاد لهذه المناسبة ولم يغفل الأمر بالدعاء للسلطان الخليفة والدين والدولة أيضاً وبقراءة قصة المولد الشريف[1].

بل إن قرار دعوة الجمعية الوطنية الكبرى أو المجلس الوطني الكبير الذي وقعه مصطفى كمال كان ذا صيغة إسلامية غلابة في بنوده الأربعة التي حفلت بالشعائر الدينية - يقول القرار بالحرف الواحد:

١- فى الثالث والعشرين من شهر آيار (مايو) الجارى وبعد صلاة الجمعة، تعقد الجمعية الوطنية الكبرى بعون الله أول اجتماع لها فى أنقرة.

٢- بما أن افتتاح الجمعية الوطنية الكبرى يصادف يوم الجمعة فعلى جميع

---

(١) دروزة (تركيا الحديثة) ص.٣.

النواب والشخصيات الوطنية أن تحضر إلى المسجد الكبير فى أنقرة حيث ستتلى آيات القرآن الكريم وتُقام الصلاة فى هذا اليوم المقدس وبعد الصلاة يقوم النواب إلى مبنى الجمعية الوطنية الكبرى حيث يُرفع العلم فوق ساريته وتُذبح الخراف وفقاً لتقاليد الأضحى الإسلامية.

٣- تأكيداً لعظمة هذا اليوم المقدس (الذى ألغى العطلة فيه بعد ما انتصر) يتوجب على جميع حكام الأقضية والألوية أن يدعوا الناس للصلاة فى المساجد حيث تتلى السيرة النبوية وتتلى آيات الذكر الحكيم.

٤- على جميع أئمة المساجد أن يضمنوا خطبة الجمعة دعوة المواطنين إلى حمل السلاح من أجل تحرير الوطن من الأعداء الغاصبين وقواتهم المحتلة والتقيد بأوامر «الجمعية الوطنية الكبرى» عندما تدعوهم لتلبية نداء الواجب. وبعد إنهاء الصلاة تتلى سيرة المولد النبوي.

مصطفى كمال

أنقرة في ١ نيسان (إبريل) . ١٩٢٠[١] ».

وفي باريس حول مائدة الصلح جلس ساسة الحلفاء - ويلسون ولويد جورج وكليمنصو - يحيط بهم مساعدوهم يرسمون مستقبل الدنيا واستداروا في قلق: إن شيئاً غير عادي يحدث في تركيا .. لقد هزمت تركيا لكنها لم تستسلم بعد .. إن الأتراك يوشكون أن يطردوا الجيوش المتحالفة من بلادهم!! وإذن يجب تدارك الكارثة التي قد تفسد كل شيء وتثير الثورات في جهات أخرى وتؤثر في خطط الحلفاء لتنظيم العالم!!

وتحرك مهندسو اللعبة على محورين في وقت واحد :

• بناء على تخطيط ناصحيهم (الإنجليز بالطبع) أعد الساسة الكبار معاهدة

---

(١) محمد جلال كشك (حوار في أنقرة) ص٥٤ . ٥٥.

صلح خاصة بتركيا أطلقوا عليها معاهدة «سيفر» ثم نشروا نصوصها في ١٠ أغسطس ١٩٢٠ على أنها ستوقع مع حكومة الآستانة. وكان لنشر نصوص هذه المعاهدة رد فعل قوي - كما توقع الساسة الكبار في باريس - بين الأتراك. فقد كانت تلك النصوص التي اشترك في إذاعتها أكثر من خمسمائة صحفي بمثابة حكم بالإعدام على الأتراك. ومن بين موادها التسعة عشر الرئيسية: سلخ ولاية أدرنة في الروملي عن الدولة. جعل منطقة أزمير تابعة بالاسم للدولة وإبقاء حامية يونانية وبوليس يوناني فيها وخول أهلها حق طلب الانضمام إلى اليونان بعد خمس سنين. قيام حكومة أرمينية مستقلة في الولايات الشرقية. قيام حكومة كردية شرق الأناضول. منح مزايا كبيرة لرعايا الدول الأجنبية والأقليات الدينية في إقامة المدارس والمعابد والتوظف في الدولة. منع الدولة من إقامة أي استحكامات. لجنة إنجليزية فرنسية إيطالية للإشراف على مالية الدولة ومندوب الدولة في هذه اللجنة رأيه استشاري فقط. إلغاء التجنيد الإجباري. بطلان إلغاء الامتيازات الأجنبية .. الخ.

وأعطته هذه المعاهدة سلاحاً قوياً للحملة على حكومة الآستانة المحتلة من جميع جيوش الحلفاء.

● وعلى الجانب الآخر حشد «فنزيلوس» الحالم بالإمبراطورية الإغريقية جيشاً جراراً وابتاع من الإنجليز والفرنسيين مستودعاتهم الحربية وزوَّد جنوده بالسلاح والذخيرة والسيارات المصفحة وخير وسائل المواصلات والإسعافات الطبية ووضع هذا الجيش تحت تصرف الحلفاء كي يستخدموه وفق هواهم في قسر الأتراك على قبول معاهدة الصلح المعروضة. وقبل أقطاب العالم الثلاثة مرحبين. ورجوه أن يعجل بإطلاق جيشه من عقاله كي ينقذهم من خصومهم الأتراك .

وانطلق الجيش اليوناني كالعادة حرق وقتل وتمثيل بالجثث في القرى الآمنة التي اجتاحوها!! وتصدت الكتائب المجاهدة للقتال. ومن شتى الجهات أقبل

الرجال والنساء من جميع الطبقات ليسجلوا أسماءهم في سجلات المتطوعين. وآمن كل تركي بوجوب المقاومة لأن الأتراك الذين عاشوا خمسمائة عام شعباً يسود الدنيا لن يصبحوا بين غمضة عين وانتباهتها عبيداً. ولمن؟ لليونان! التي كانت بالأمس القريب إحدى ولايات الدولة العثمانية!!؟

وجاء وفد من الآستانة موفداً من السلطان الخليفة يعرض على مصطفى كمال توحيد الجهود بين العاصمة وأنقرة لمقاتلة اليونانيين العدو المشترك. وكانت الجمعية الوطنية تميل إلى الوحدة، لكن الصنم الذي كان يرمي ويعد لأن يكون ديكتاتوراً له دور قادم، رفض. وازداد تقدم اليونانيين. وطالب بالتنظيم وأن تكون الكتائب والفرق والعصابات المسلحة جيشاً نظامياً تحت رئاسته وحده!! وأمام اليونان - عبيد الأمس - كان همّ الأتراك القتال والقتال وحده. وأجابوه إلى ما أراد. ثم إنه حتى الآن لم يعلن شيئاً عن نواياه نحو الخلافة، ولم ينكشف دوره ولم تتبين الخيوط التي كانت تمسك بالدمية وراء الحدود.

وطالت الحرب التركية اليونانية بتدبير دولي على رأسه الإنجليز لتكون «مسمار جحا» الذي دقه كبار اللاعبين ليصعد بها نجم الزعيم ولتصبح المكوك الذي تنسج من حوله خيوط بطولته. ولتكون الغطاء الذي يعطيه الوقت المتسع لترتيب البيت من الداخل وفق تخطيط الخارج.

ففي إحدى المعارك التي انتصر فيها الأتراك بقيادة صفيه «عصمت» عند «إين أونو» في ٣١ مارس ١٩٢١ أعلنت كل من إنجلترا وفرنسا فجأة رغبتهما في إنهاء الحرب التركية!! ورفضت اليونان!! فأرسلت فرنسا مندوبين سريين إلى أنقرة عقدوا مع «الزعيم» معاهدة سرية مكنته فرنسا بموجبها من الحصول على ثمانين ألف رجل من الجبهة السورية ومعدات حربية تكفي أربعين ألف مقاتل!! كذلك باعت له أمريكا وإيطاليا أسلحة من نقود كانت تأتيه من موسكو!! أما إنجلترا فأعلنت الوقوف على الحياد (هكذا!!)..

وروجت الماسونية العالمية لهذه المعركة وأصبح اسم عصمت: «عصمت إينونو» نسبة إلى موقع المعركة. وتوالت برقيات التهنئة على الزعيم من روسيا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا تهنئ بالنصر!!

والتقط مصورو الصحف الأوروبية صور البطل!! مصطفى كمال وقائد المعركة عصمت أثناء القتال ووزعت على كل صحف العالم!!

وفي ١٠ يوليو ١٩٢٠ عاود اليونانيون الهجوم للمرة الثالثة وانسحب الأتراك، وقام اليونانيون في ٢٣ أغسطس ١٩٢١ بزحف قوي قابله الأتراك بهجوم كاسح في «سقاريا» في ١٣ سبتمبر ١٩٢١ وانهزم اليونانيون. ولم يصل الأمر إلى الجلاء حيث لم يتم إلا بعد سنة وبعض سنة من هذا التاريخ. ومنحه الأتراك الطيبون بعد معركة سقاريا لقب الغازي - أي المجاهد في سبيل الله - اللقب الذي كان يُمنح للمجاهدين من الخلفاء العظام!!

وبعد نصر سقاريا طلب تجديد فترة قيادته العليا لمدة ثلاثة شهور مع منحه سلطات كاملة لأن الخطر لا زال قائماً!! فوافقت الجمعية الوطنية. وبعد هذه المدة استقال بعض الوزراء وتكوّن في المجلس حزب معارض حول أمور متصلة بشخص الزعيم ونواياه ومطامحه وطغيانه ومصير السلطنة والخلافة .. فشُنق خمسة وعشرين ضابطاً من كبار القادة.

وبعد معركة سقاريا أيضاً عقدت معه روسيا والجمهوريات التابعة لها معاهدة عرفت بمعاهدة «القارص» فى ١٣ أكتوبر ١٩٢١. وعقدت معه فرنسا اتفاق أنقرة في ٢٠ أكتوبر ١٩٢١. الذى نص على إنهاء الحرب بين فرنسا وتركيا وجلاء الفرنسيين عن «كليكية».

ودارت معارك كراً وفراً بين الأتراك واليونانيين لمدة عام آخر حتى تحررت الأناضول تماماً من الاحتلال اليونانى فى سبتمبر ١٩٢٢.

لكن الجيش اليونانى تَزَوَّدَ بإمدادات!! وعاد ليتجمع فى «تريس» وراء الآستانة وتحركت فرقة من ألفين من المشاة الأتراك إليهم.

وفى كتابه «الذئب الأغبر - مصطفى كمال» الذى نشرته (دار الهلال) فى يوليه ١٩٥٢ - وكأنه مقدمة بين يدى ثوار مصر - يتحدث مؤلفه الكابتن «هـ . س. أرمسترونج»، الذى وصفته الدار الناشرة بأنه «أقام فى تركيا عدة أعوام شهد فيها الانقلاب الكمالى ووقف على أسرار ووثائق لم يقف عليها غيره من المؤرخين وكتاب التراجم». يتحدث عن الدور الإنجليزى، فى رسم بالكلمات، فيقول:

«وكان ذلك يتطلب أن يخترق الأتراك خطوط جيش الاحتلال الإنجليزى بحيث لو أزمع الإنجليز مقاتلتهم حقاً لمنعوهم من اللحاق باليونانيين وليهزموهم شر هزيمة!! على الأقل بفضل خبرة ضباطهم وأسطولهم العظيم وطائراتهم (ولكن هل الإنجليز يعتزمون الاشتباك معهم حقاً؟) فأرسل مصطفى كمال مشاته نحو المدافع الإنجليزية مزودين بأمر التقدم وبنادقهم معكوسة مع الحرص على إظهار الود والاحترام للسلطات الإنجليزية ثم مواصلة اختراق خطوطهم .. وكان الخطر عظيماً فإن طلقة واحدة خاطئة أو أمر أسيء فهمه كفيل ببدء المعركة، لكن الطلقة الخاطئة لم تنطلق، فقد تحيرت القوات الإنجليزية ماذا تفعل !! (مسكينة!!) وكانت الأوامر التي لديها مائعة تقضي بمنع مرور الأتراك وفي الوقت نفسه بعدم إطلاق النار أو استخدام العنف (يا لطيف!!) وهؤلاء هم الأتراك يتقدمون دون أن يتوقفوا أو يقاتلوا، وأضحى الموقف حرجاً (بالذمة!؟) واقترب الأتراك من الأسلاك الشائكة وبدأوا يخترقونها.!! وفي هذه اللحظة جاءتهم فجأة!! أوامر من قيادتهم بالتوقف .. لقد بدأت المفاوضات لعقد الهدنة»!! (ص١٧٥).

(ملحوظة: جميع علامات التعجب ليست من عندنا .. من الخواجة أرمسترونج نفسه).

وأرسل مصطفى كمال صفيه وشريكه الوحيد في السر عصمت ليقابل قائد

جيوش الاحتلال البريطاني في قرية «مودانيا» للاتفاق على التفصيلات!! وعقد مؤتمر في هذه القرية في ١١ أكتوبر ١٩٢٢ حضره قواد الحلفاء الثلاثة وقد وافق الحلفاء على طرد اليونانيين من «تريس» وجلائهم من «تراكية» وجلاء الحلفاء نهائياً عن الآستانة وتركيا بأسرها ولم يتم جلاء الحلفاء عن العاصمة إلا في ٦ أكتوبر ١٩٢٣ (ريثما تتم الخطوات الإنقلابية المتفق عليها مع البطل!!).

لا أعتقد أن الصورة قد باتت أمام القارئ الكريم مثقلة بالأحاجي أو مطلمسة بالألغاز .. بل ولا حتى «فزورة» تحير من يقدم على حلها ولو لبضع لحظات!![1] .

إذن آن الأوان لتسليم مفاتيح القلعة!!

لقد تثبت وضع «الزعيم» .. فلتبدأ الضربات نحو الهدف، وخطوة خطوة!!

ففي ٢٨ أكتوبر ١٩٢٢ دعا الحلفاء حكومة أنقرة المؤقتة (هكذا كان اسم الحكومة التي أنشأها مصطفى كمال في الأناضول) إلى مؤتمر يعقد في «لوزان» ووجهوا الدعوة أيضاً إلى حكومة «توفيق» الرسمية في الآستانة (منتهى العدالة!!) الآستانة الأسيرة .. مدينة وخليفة وحكومة ودار برلمان، وكل وسائل المواصلات من قِبَلِ الحلفاء، الكبار والصغار حتى أن الفتوى المضادة التي صدرت من أنقرة عام ١٩٢٠ رداً على فتوى منسوبة إلى السلطان الخليفة كانت تقول بالنص: «نستنفر ونهيب بجميع المسلمين أن يُخلِّصوا الخليفة من الأسر»!![2] .

وقد كان توجيه الدعوة بهذه الكيفية منطوياً على خبث شديد، كان يعني تفريق السلطنة عن الخلافة .. الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية حسب المفاهيم الأوروبية الكهنوتية والعلمانية.

---

(١) فرنسا وأمريكا وإيطاليا وروسيا يعقدون معه المعاهدات السرية والعلنية ويمدونه بالرجال والسلاح والأموال!! وبريطانيا تسهل له أمر اختراق قواتها!! كل ذلك ضد من؟ ضد اليونانيين الذين غزوا تركيا من قبل بقرار ودعم من هؤلاء الحلفاء!! أبقى بعد ذلك شيء يقال عن دور أتاتورك؟ وكل من صب على قده فيما بعد من أبطال الثوار؟

(٢) George Haddad: Revolutions and the Military Rule in the Middle East, New York, 1965. P.103.

والتقط الخيط وقرر أن يضرب الضربة الأولى، وأن يدعو الجمعية الوطنية لاجتماع «قد يستطيع فيه إقناع النواب بخلع «السّلطان وحيد الدين» وبإلغاء السلطنة، لكنه لا يجرؤ على مهاجمة الخلافة فذلك من شأنه أن يمس الشعور الديني للشعب كله»، فلتترك للخطوة الثانية.

وفي الليلة السابقة على عقد الاجتماع دعا إليه كبار القادة ومنهم رؤوف رئيس وزرائه ليجس النبض دون تصريح بشيء. وقال له رؤوف: «يذكر البعض أنك تنوى إلغاء السلطنة والخلافة». فأجاب: «أحب أن أعرف آراءكم أولاً». فرد رؤوف: «نحن لا نتكلم عن «وحيد الدين» بالذات، إنه يجب أن يخلع وأن يخلفه آسر، ولكن لا شك أنني وكل تركي ندين بالولاء لمقام السلطنة والخلافة. ولا جدال في أن الدولة تحتاج إلى فرد تعلو رأسه جميع الرؤوس ولا يستطيع أن يطمع أحد في منصبه» ووافق المجتمعون على رأي رؤوف. وخلص مصطفى كمال من الحوار بأنه سيدلي بتصريح عن هذا الموضوع في جلسة الجمعية الوطنية في الغد.

وفي اجتماع الجمعية الوطنية، وفي وسط الضجيج الذي ساد المجلس بشأن دعوة الحلفاء لحكومة توفيق باشا في الآستانة، وقف على المنصة واقترح أن يفصل بين السلطنة والخلافة فتلغى السلطنة ويخلع وحيد الدين. وعندئذ تنبه النواب إلى خطر القرار الذي يُراد منهم أن يصدروه، وأحيل الموضوع إلى لجنة الشئون القانونية كي تبحثه، إذ أنها ستكون السابقة الأولى في تاريخ الحكم الإسلامي التي يُفصل فيها بين الخلافة وسلطة الحكم، إنها تعني أن تكون الخلافة منصب روحي أو مؤسسة كنسية تتعلق بملكوت السماء، وأن تكون السلطة الزمنية لمؤسسة سياسية تتولى شئون الأرض، وهذا أمر غريب على طبيعة الإسلام. واجتمعت اللجنة في اليوم التالي ورفضت الاقتراح بالإجماع.

ووقف مصطفى كمال يحيط به أنصاره وحرسه المسلحون وبعضهم قدير على

ارتكاب أي حماقة. إنهم قد يطلقون النار إذا طلب إليهم ذلك!! وصاح «البطل» وفي صوته رنة التهديد بينما وضع أنصاره أيديهم على مسدساتهم :

«أنا واثق من أن المجلس سيقبل الإقتراح بإجماع الآراء .. إن السلطنة يجب أن تفصل عن الخلافة وتلغى، وسواء وافقتم أم لم توافقوا فسوف يحدث هذا .. كل ما في الأمر أن بعض رؤوسكم سوف تسقط في غضون ذلك»!![1] .

وبدأت إجراءات أخذ الرأي بالتصويت العلني فتبين له أن الاتجاه الغالب يميل إلى رفضه فاقترح تحت التهديد المسلح أن تؤخذ الأصوات برفع الأيدي، ولم ترتفع غير أيد قليلة. لكن رئيس الجلسة الذي لم تفارق عينيه مصطفى كمال أعلن النتيجة بقوله: «أقر المجلس الاقتراح بإجماع الآراء» فقفز نفر من النواب فوق مقاعدهم محتجين صائحين: هذا غير صحيح .. نحن لم نوافق، فصاح بهم آخرون: إجلس .. اسكت .. خنازير!!. وساد الهرج والمرج. وغادر مصطفى كمال قاعة المجلس يحيط به أنصاره. وهكذا في هذا الجو الديمقراطي فصلت السلطنة عن الخلافة!![2] ..

وعين عبد الحميد - ابن أخ السلطان السابق - خليفة للمسلمين .. خليفة فقط مجرداً من كل سلطان أو نفوذ.

وسافرت هيئة المفاوضة التركية إلى مؤتمر لوزان في ٢١ نوفمبر ١٩٢٢ بعد أن أحدث مصطفى كمال حدثاً هو الأول من نوعه منذ التاريخ الإسلامي بعامة. وكان الوفد برئاسة «عصمت» الذي اختير لوزارة الخارجية وسافر بهذه الصفة[3] ومعه حاخام اليهود «حاييم ناحوم أفندي» وهو الذي فتح لليهود يومئذ باب الهجرة إلى تركيا ليكونوا بالقرب من فلسطين، وهو الذي عينه مصطفى كمال ليكون سفير تركيا في أمريكا ولم يتم ذلك لأن «حاييم» فَضَّل أن يكون حاخام اليهود في مصر[4] .

---

(١) أرمسترونغ «الذئب الأغبر - مصطفى كمال» ص١٨٣-١٨٤.
(٢) المرجع السابق ص١٨٥-١٨٦. (٣) نفس المرجع - ص١٨٩.
(٤) محمد خليفة التونسي «الخطر اليهودي - بروتوكولات حكماء صهيون» ص٧٨.

أرسل مصطفى كمال «عصمت» و«حاييم» متجاهلا كلاً من الوزارة والجمعية الوطنية وزودهما بتعليماته الشخصية. وفي لوزان تفاوض وفد مصطفى كمال مع اللورد «كيرزون» وزير خارجية بريطانيا، ممثل الحلفاء في جميع شروط الصلح. واللورد كيرزون هذا هو الذي هتف في مجلس الوزراء البريطاني: «إنه إذا كانت هذه هي الصهيونية فإنه لا يوجد سبب على الإطلاق لماذا لا ينبغي علينا جميعاً أن نكون صهاينة»!!

قال عصمت أو قال حاييم - لا يهم - للورد كيرزون (ما يعلمه كيرزون بالطبع): «١- إن الكفاح الأكبر ما زال ينتظر مصطفى كمال فلقد طالما أوضح لأصدقائه أنه يرى وجوب اقتلاع الدين من تركيا.

٢- إن الخطوة القادمة هي إلغاء الخلافة الإسلامية - التي لم تعد خلافة ولا يحزنون .. إنها مجردة عن السلطة .. لكن ربما .. وربما!!

٣- إن سلسلة من الإجراءات الانقلابية ستتم تتغير بموجبها الهوية التركية من إسلامية شرقية إلى غربية لا دينية تحارب الإسلام.

٤- سنسحق ونخرج كل القوى الإسلامية من تركيا.

٥- إن الغازي قد أوضح أنه لا يؤمن بعصبة من جميع الدول الإسلامية ولا حتى بعصبة من الشعوب التركية ولن يقود تركيا إلى حماقة من هذه الحماقات أو ينصب نفسه بطلاً للشرق معادياً للغرب وللإسلام ضد المسيحية»[١] .

ولم يكن كيرزون يريد غير هذه الشروط. ووقع مع عصمت «معاهدة لوزان» بتاريخ ٢٤ يولية سنة ١٩٢٣ التي حددت حدود تركيا كما تضمنت نصوصاً تنازلية عن قبرص ومصر وليبيا وتونس والجزائر وبلاد الشام والعراق.

وسألت الصحفية خالدة أديب بطلها الذي كان يحب دائماً أن تكون إلى جواره:

---

(١) أرمسترونج «الذئب الأغبر - مصطفى كمال» ص١٧٩- ١٨٠.

«إنك سوف تستريح بعد مؤتمر الصلح ياباشا» فأجابها مصطفى كمال في عنف وعيناه تومضان ببريق مخيف: أستريح؟ أية راحة؟ إننا بعد أن خلصنا من اليونانيين سوف يقاتل بعضنا بعضاً، أو سوف يأكل بعضنا بعضاً![1] .

وتكتلت الجمعية الوطنية لتشد من أزر رؤوف الذي استقال من رئاسة الوزارة. وبدأ جهاز الغازي يغتال النواب المعارضين أثناء عودتهم إلى بيوتهم في نفس الليلة التي قد يتهور فيها أحدهم ويعارض. وهدد الباقين بالشنق.

ونددت الجمعية الوطنية بقبول مصطفى كمال الهدنة مع الأعداء في «مودانيا» ولمفاوضات عصمت السرية في «لوزان» وقرروا التصويت على تنحيته. وعمد مصطفى كمال إلى استخدام سلاحي الوعد والوعيد لإحباط القرار ضد عصمت رجله الذي يطيعه بلا مناقشة[2] .

ومن هنا بدأ ينشئ حزباً سياسياً من لجان المقاومة التي كانت قد نشأت في الأقاليم منذ عام ١٩١٩ أيام القتال ضد اليونان، وقرر أن يحيلها إلى آلة حزبية منظمة تخضع لإشرافه ويمنح كل لجنة منها سلطة اختيار عمدة القرية وواعظها وناظر مدرستها ومدير شرطتها وبريدها وكناس شوارعها. ومن هنا ترتبط اللجان به ارتباطاً شخصياً. وعلى الطريقة - إياها - فإنه كان دائم التحذير من معارك لم تنته ولن تنته فهو يقول لهم في النهاية وعقب كل اجتماع حيث جمع في يده أعنة تلك المنظمات: «احتفظوا بمنظماتكم .. إن العدو الخارجي قد ذهب لكن الحرب لم تنته بعد. فالبلاد مليئة بالخونة. قفوا في صفي وأطيعوني .. أنتم الشعب وحزب الشعب الذي ينبغي أن تحكموا تركيا»[3] .

وإذ ضمن التفاف هذا الجيش من القرويين حوله وفرغ من التنظيم بدأ هجومه بعرض مرسوم يقضي بإلغاء حصانة النواب من الاعتقال والمحاكمة، ثم أتبع ذلك برقابة صارمة على الصحف وأمر البوليس بمنع أي اجتماع أو خطاب عام. وأدرك

---

(١) أرمسترونج «الذئب الأغبر - مصطفى كمال» ص١٨١-١٨٢.

(٢) أرمسترونج - المرجع السابق ص١٩٥.   (٣) نفس المرجع ص١٨٨.

النواب خطورة الخطة السياسية التي يدبرها للانفراد بالحكم فقرروا إحباطها بأي ثمن. وطلبوا منه التنحي عن رياسة الحزب الجديد بحجة أن رئيس الدولة ينبغي أن يظل فوق الأحزاب، لكنه أجابهم بقوله: «لست أوافقكم على حجتكم، فأنتم تتكلمون عن زعامة أحد الأحزاب السياسية، وأنا أقول إنه ليس في الدولة غير حزب سياسي واحد، ولا يمكن أن توجد أحزاب أخرى تناوئنا. ويهمني من وجهة الكرامة والشرف أن أظل زعيماً لهذا الحزب الوحيد - حزب الشعب - ورئيساً للدولة في وقت واحد»[١] .

وكان الجواب تحدياً للجمعية الوطنية فبدأت الأعصاب تثور وبدأ كثيرون من زملاء مصطفى كمال الذين وقفوا إلى جانبه في أحلك الأيام خلال السنوات الأربع الماضية يتكلمون ضده بزعامة رؤوف!.. وكان بينهم رحمي، وعدنان، وكاظم قره بكير، ورفعت، وعلي فؤاد، ونور الدين .. ولم يبق في صفه غير عصمت، وفوزي، وبعض أصدقائه الشخصيين وأصفيائه في مجالس الشراب[٢] .

وانفض النواب من حوله وراحوا ينتقدونه علانية وأعلنوا أنهم لن يقروا أن تحكم البلاد حكماً مطلقاً على يد ذلك المنتقم الفظ صاحب الآراء الشاذة والوسائل غير اللائقة! إن أحداً لن يأمن على نفسه في ظل رجل مثله.

وبادر إلى حل الجمعية الوطنية وأجرى انتخابات جديدة آملاً أن يحصل على الأغلبية فيها بفضل معاونة حزبه الجديد - لكن المجلس الذي أسفر عنه الانتخاب جاء مناهضاً له شأن المجلس القديم، يأبى الانصياع لأوامره ويحدث ضجيجاً كلما خاطبه الغازي بلهجة ناظر المدرسة الذي يخاطب تلاميذه.

وجلت آخر جيوش الاحتلال الإنجليزية عن العاصمة في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٣. وبدا واضحاً أن الانتظار في غير مصلحته.

وحانت فرصة «البطل» للبت في أمر حكومة تركيا الجديدة قبل أن يزداد خصومه قوة فليعلن تأسيس الجمهورية ويدبر أمر انتخابه رئيساً لها وحاكماً شرعيا

---

(١) ، (٢) أرمسترونج «الذئب الأغبر - مصطفى كمال» ص١٩٢.

للبلاد.. لكن الجمعية الوطنية لن تنتخبه ما بقيت لها حريتها الكاملة. فليدبر إذن مؤامرة سياسية تحقق له هدفه ليخلق أزمة ويستغلها...

وخلق الأزمة. دعا وزراءه إلى مأدبة عشاء فى داره وبعد أن أفرط المدعوّون فى الشراب اقترح عليهم أن يستقيلوا فى اليوم التالى من مناصبهم كى يحرجوا الجمعية الوطنية بعد أن كثرت شكواهم من محاسبة النواب لهم مباشرة، وبعد ذلك يعودون إلى مناصبهم مرفوعى الرأس مرهوبى الجانب. ولم تتمكن الجمعية الوطنية فى اليوم التالي من تأليف حكومة جديدة. وبعد يومين دعا نفراً من أصدقائه المخلصين إلى مأدبة عشاء رسم فيها خطته (على طريقة التنظيم الطليعى إياه!) قائلا:

«لقد حان الوقت كى نضع حداً لهذه الفوضى، غداً سوف نعلن قيام الجمهورية، فهى المخرج من كل هذه المصاعب.. فعليك أنت يا فتحى أن تُعَقِّد الأمور فى المجلس غداً بقدر ما يمكنك، فتؤلب الأعضاء ضد بعضهم البعض... وعندئذ تقترح أنت يا كمال الدين أن أستدعى أنا لتولى زمام الأمور إنقاذاً للجمعية من مأزقها»[1] .

وسارت الأمور وفق الخطة الموضوعة واستدعوه. وتكلم وأنهى حديثه قائلا: «لذلك أقرر أن تصير تركيا جمهورية لها رئيس يُختار بطريق الانتخاب (وذُهِلَ النواب للقرار المفاجىء) وتقدم بالمشروع الذى أعده بالاشتراك مع عصمت. وأعلنت الجمهورية وفاز مصطفى كمال بـ ١٥٨ صوتا من ٢٨٦ وامتنع ٤٠٪ عن التصويت[2] (ديمقراطية سليمة!!) فى ليلة ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣.

وبهذا الانتخاب صار مصطفى كمال الحاكم المطلق للبلاد، ورئيساً لمجلس الوزراء ورئيساً للجمعية الوطنية، ورئيساً لحزب الشعب، وفوق ذلك كان القائد العسكرى العام الذى يسيطر على الجيش والشعب معاً.

---

(١) أرمسترونج «الذئب الأغبر - مصطفى كمال» ص١٩٣.

(٢) Haddad; Revolution and Coups d'Etat in Turkey. P.110.

لكن.. ماذا بعد؟

يقول أرمسترونج فى عرى صريح: «لكن كفاحه الأكبر كان ما زال ينتظره!.. ولقد طالما أوضح لأصدقائه أنه يرى وجوب اقتلاع الدين من تركيا» (ص ١٩٥).

ويقول جورج حداد فى كتابه (Revolutions and military rule in the middle East New York, 1965) : «كان التحديث بالنسبة له يعنى أن يتم بتغريب وعلمنة المجتمع التركى وتحرير القطر من تأثير الإسلام والشرق ومن مظاهر الثقافة العربية... إن الحكام العسكريين الذين حاولوا الإصلاح فى الأقطار الإسلامية الأخرى إما لم يكن لديهم الشجاعة أو لم يجدوا من المناسب أن يسيروا فى الاتجاهات المختلفة للثورة العلمانية التى افتتحها مصطفى كمال منذ نحو أربعين عاما» (ص ١٠٨).

وذاع فى كل مكان من تركيا أن حكام أنقرة كفرة وملاعين بعد أن انفضحت ميول مصطفى كمال وأنكشفت نياته المستورة نحو الإسلام والخلافة. ووزعت النشرات والصور الكاريكاتورية التى تهاجم الزعيم هجوماً لاذعاً. وراح كبار القادة الباقين يهرعون إلى الآستانة وألتفوا حول الخليفة ينشدون الأمان فى حماه إذ لم يجل بخاطرهم أن «الغازى» يجرؤ يوماً على أن يمس الخليفة بسوء!! وكان الخليفة الجديد عبد المجيد قد حافظ على مقتضيات منصبه كواجب أسمى، فأحيا تقاليد أسلافه العظام... وبدلا من أن يركب عربة كسلفه الأخير صار يمتطى صهوة جواد أبيض - مثل محمد الفاتح يعبر به «القرن الذهبى» إلى جامع أيا صوفيا ليصلى الجمعة، يتبعه حرسه من الفرسان وتحف به الجماهير المهللة!.. وكان يستقبل فى قصره الزائرين والسفراء والمبعوثين، بوقار الزعيم الدينى لمائة مليون مسلم .

وسرى رأى عام في الجمعية الوطنية للدفاع عن الخلافة الإسلامية. فانتهز فرصة تهور أحد النواب المعارضين فى إحدى جلسات الجمعية وكلف شخصاً باغتياله فى الليلة نفسها أثناء عودته إلي بيته! وألقى أحدهم خطبة أيّد فيها الخليفة، فهدده «الغازى» بالشنق إذا فتح فمه بمثلها مرة أخرى![1] .

(١) أرمسترونج: «الذئب الأغبر -- مصطفى كمال» ص١٩٧.

وأدرك مصطفى كمال الخطر، أى تعاظم رد الفعل الإسلامى وأبعاد ما يحدث فى الآستانة وتأكد من أن أكثرية الشعب فى تركيا كلها تكرهه... وفيما هو يدبر أمره حائراً أمدته بريطانيا بسلاح جديد. فقد روِّجت لرسالة أرسلها «أغا خان» الزعيم الإسماعيلى فى الهند يطالب باسم مسلمى الهند باحترام مقام خليفة المسلمين، ومعروف صلة أغاخان بالإنجليز[١] وعلى الفور استغل مصطفى كمال الفرصة وألغى الخلافة الإسلامية في ٣ مارس ١٩٢٤ وأعلن فصل الدين عن الدولة، وإلغاء المحاكم الشرعية. وإلغاء وزارتي الشرعية والأوقاف، وطرد الخليفة وأفراد العائلة العثمانية ذكوراً وإناثاً وأصهارهم من البلاد. وتوالت الإجراءات الانقلابية: ألغى التعليم الديني وأغلقت مدارسه القائمة ولُقِّنَ التلاميذ في المدارس الانقلابية أن الثقافة والتقاليد الإسلامية هي من أسباب تأخر التركي وجموده، وما أصابه من كوارث وتعرُّض له من دسائس كما هي من أسباب ضعف البنية القومية والثقافية واللغوية التركية. ومُحيت كل مظاهر الإسلام وحلت التشريعات الغربية محل الشريعة الإسلامية[٢] .

وثارت عواطف الجمهور الدينية ضد قلب الدولة والبلاد إلى دولة وبلاد لا دينية وهدم كيان الإسلام والمسلمين، وقامت الثورة الكردية بقيادة «الشيخ سعيد» انتصاراً للدين وحماية له من الملاحدة. وحمل قائد الثورة وأسماه «لواء النبي والقرآن الأخضر» فنكل بالثورة التي ظلت تقاوم لتسعة شهور. وحكم على آلاف من الأكراد بالشنق أو النفي أو السجن. وشنق ستة وأربعين من رؤساء القبائل في «ديار بكر» كان آخرهم الشيخ سعيد زعيم الثورة[٣] .

وبتاريخ ٤ مارس ١٩٢٥ أصدر قانون إقرار الأمن والسكون خولت الحكومة بموجبه منع أي منشورات من شأنها أن تؤدي إلى الارتداد (أي العودة إلى الإسلام) والعصيان، كما خولت فيه سوق الناشرين إلى محاكم الاستقلال!! وأصدر بتاريخ

---

(١) أرمسترونج: «الذئب الأغبر – مصطفى كمال» ص١٩٧.

(٢) دروزة «تركيا الحديثة» ص٧٣.

(٣) دروزة «تركيا الحديثة» ص٧٤ وكذا George Haddad; The Turkish Revolution P.109-111.

٢٥ فبراير ١٩٢٥ ذيلاً لقانون الخيانة الوطنية وصف فيه بالخيانة الوطنية منشئو الجمعيات السياسية التي يكون الدين أساساً أو وسيلة أو مظهراً لها، وكذلك المشتركون فيها[١].

وصار أي إجراء أو نقد شفوي للحكومة يُعَد خيانة عظمى تُعاقب عليها «محاكم الاستقلال» بالموت فوراً. وألغيت حصانة النواب ضد الاعتقال. ودبّر الكمائن لاصطياد خصومه. وأقام «محكمة الاستقلال» لمحاكمة زعماء المعارضة الذين ألقى القبض عليهم جميعاً بعد أن كلّف رجال الأمن العام بجمع الأدلة التي تثبت التهمة. وحكمت عليهم جميعاً بالشنق بغير مراعاة لقواعد المرافعات والإثبات المقررة في القانون. وصدّق على الحكم دون أن تتحرك عضلة واحدة في وجهه وهو يوقع بالموت على كثير من أصدقائه القدامى. وكان يتباهى بأنه قد حكم بالشنق على عدد من الأتراك يفوق العدد الذي حكم عليه أي تركي منذ عهد السلطان محمود الثاني. واحتفل بإعدام أصدقائه بإقامة حفلة راقصة رسمية بقصره في الليلة نفسها.

وبات حزب الشعب الذي صار اسمه «حزب الشعب الجمهوري» الآلة المهيمنة على الحكومة بحيث صار محتوماً على كل ذي منصب حكومي، من أصغر موظف في أصغر قرية إلى رئيس الوزراء، أن يكون عضواً فيه. وكان الوزراء موظفين دائمين أكثر منهم وزراء، بسبب انعدام أحزاب المعارضة[٢].

وصارت انتخابات الجمعية انتخابات اسمية إذ لم يكن يُسمح لأحد بمناقشة مرشحي الحكومة الذين ينتقيهم مصطفى كمال من أعضاء حزبه ولجانه .. وكان النائب يلتزم الطاعة المطلقة لرغبات «الغازي» عند التصويت على مشروعات القوانين – وإذا اجترأ شخص سواء أكان نائباً أو شرطياً في إحدى القرى، على أية مخالفة أو عصيان فسرعان ما يُفصل فوراً من الحزب. فيفقد تبعاً لذلك عمله ويتعذر عليه أن يجد عملاً آخر، ولو أدى الأمر إلى موته جوعاً!.. وهكذا صار الحزب أشبه بجيش احتلال، يشرف على إدارة شئون البلاد!

(١) دروزة «تركيا الحديثة» ص٧٤.
(٢) الذنب الأغبر ص١٩٩ . ٢٠٧ . ٢٠٩ . ٢١٠ ، ٢١١.

وكان مصطفى كمال يستعين في حكمه بثلاثة أشخاص، يجتمعون به كل ليلة في منزله فينهون إليه الأنباء ويتلقون أوامره: «عصمت» الذي كان يختص بشئون الحكومة والجمعية الوطنية .. و«فوزي» الذي اختص بشئون الجيش .. ثم «ضياصفت» السكرتير العام لحزب الشعب وهو يهودي قدير حاضر البديهة كان يسرد على مسامعه أنباء اليوم الهامة وشئون الحزب[١] .

وبعد أن فرَّق الكيان السياسي للدولة بأكمله صار عليه الآن أن يغير عقول الشعب بأسره: أفكارهم القديمة، وعاداتهم وأزياءهم وأساليب حياتهم وأدق الدقائق التي تربطهم بنشأتهم الشرقية وماضيهم. وكانت هذه المهمة أصعب بكثير من إعادة بناء الكيان السياسي للدولة أو على حد تعبيره : «لقد قهرتُ العدو وقهرتُ الدولة، فهل أستطيع أن أقهر الشعب»[٢] ؟!!

واعتقد الدمية أن تغيير عقل الشعب يتطلب تغيير غطاء الرأس!! فأصدر قانوناً يلزم الشعب بأن يضع قبعة فوق رأسه ليكون متمديناً!!.. ولما عارض الشعب أرسل محاكم الاستقلال إلى الأقاليم لتحكم على مئات من المتمردين بالشنق والرمي بالرصاص والسجن[٣] !!

وأصدر مجموعة من التشريعات ألغى من خلالها كتابة اللغة التركية بالحروف العربية لكي يفصل بين الشعب التركي وبين كل تراثه في شتى مجالات المعرفة التي كتبت بالحروف العربية. وأمر بترجمة القرآن إلى اللغة التركية وجعل الآذان للصلاة باللغة التركية، واستبعد ما استطاع استبعاده من الكلمات العربية والفارسية من اللغة التركية وجعل العطلة الأسبوعية الأحد واتخذ التقويم الغربي تقويماً رسمياً للدولة وأصدر قانوناً أسماه القانون المدني ليصير به حياة المجتمع التركي الاجتماعية والعائلية والشخصية والاقتصادية على أسس غريبة عن حياة الأتراك طيلة قرون طويلة[٤] .

---

(١) أرمسترونج «الذئب الأغبر - مصطفى كمال» ص٢١٢.
(٢) المرجع السابق ص٢١٣. (٣) المرجع السابق ص٢١٤.
(٤) محمد عزة دروزة «تركيا الجديدة» ص٨٠ ، ٨٢.

ونظراً لما كانت تشغله الآستانة من مركز عظيم في أذهان الشعب التركي والعالم عامة والعالم الشرقي والإسلامي خاصة، فقد أصدر الزعيم (الدمية) قانوناً بتاريخ ١٣ أكتوبر ١٩٢٣ بجعل أنقرة عاصمة للدولة الجديدة.

ومن هنا.. ومن هنا وحده، وجدت أوروبا الصليبية، كل أوروبا، من يكسر لها حاجز العجز ويريحها من الحقد الدفين - وكان ذلك هو العميل الماسوني الصليبي أتاتورك!!

وبكت الصلاة قرب «أيا صوفيا» وأسرت الجُمع الجلائل مثخنات بالجراح!! فلقد أغلق أتاتورك مسجد أيا صوفيا الجامع الكبير في الآستانة وحظر الصلاة فيه «إحتراماً لمشاعر الغرب» على حد ما أعلنه في عرى صريح.

ورغم اللقب الذي اخترعه لنفسه «أتاتورك» - أي أبو الترك - فإن المعارضة واصلت نضالها ضده فشكلت الجمعيات العلنية والسرية، لكنه واجهها بأسلوبه الذي اختطه لنفسه: قهر الشعب!! بالشنق والرمي بالرصاص والسجن والموت جوعاً.

هبت ثورة في منطقة تمتد من قونيا إلى أضاليا وأزمير وجاءت أنباء بقرب نشوب ثورة مماثلة في أرضروم فأخمدها وشنق كثيرين في مشهد عام فوق قنطرة «غلطة» عبر «القرن الذهبي» وشنق زعيم الثورة وكان في الثمانين من عمره مع أتباعه جميعاً. وأرسل إلى قرية واحدة قوات بطشت بالثوار وسجنت ألفاً من الأهالي وشنقت ثمانية وعشرين رجلاً من أبرز زعماء الثورة في عنف دونه وحشية الوحوش !![1] .

حتى الجمعية الوطنية - وبعد الاطمئنان على أن أعضاءها هم مرشحو حزب الشعب - قتل أحد أنصاره نائباً أثناء المناقشة برصاصة أطلقها على بطنه في حرم المجلس. واستدرج رئيس حرسه نائباً آخر وتودد إليه، ثم دعاه إلى العشاء في دار الحرس وهناك خنقه وألقى بجثته في العراء[2] .

---

(١) أرمسترونج «الذئب الأغبر - مصطفى كمال» ص٢٠٤-٢٠٨.
(٢) المرجع السابق ص٢١١.

وغيره كثير كثير، فلقد أيقظت السلطة المطلقة في أعماقه نزواته الوحشية فانطلق ذئب أنقرة الأغبر ينشب مخالبه في أعدائه، ويضع بصمته الدموية على رقاب ضحاياه، بالسجن والتعذيب والمشنقة .. بالدم والإرهاب[١] .

يقول دكتور محمد محمود عبد القادر - أستاذ كرسي الكيمياء الحيوية بكلية الطب قصر العيني - في بحث له عن صحة الحكام :

«وتؤكد الحقائق التاريخية أن الديكتاتورية كانت مقترنة دائماً بالأمراض التي تؤثر على مستويات المخ العليا لزعمائها - والأمثلة في هذا المجال كثيرة، وترجع بنا الذاكرة إلى الزعيم التركي مصطفى كمال أتاتورك (أتاتورك بمعنى أبو الأتراك) حينما نشرت الوثيقة التاريخية الطبية الخاصة به قبل وفاته. فقد أصيب مصطفى كمال أتاتورك في شبابه بمرض السيلان الذي لم يكن له علاج أكيد في ذلك الوقت ثم أصيب بمرض عضال في الكلية سنة ١٩١٧ لم تعرف كنهته. وكان يتعرض لآلام مبرحة مزمنة لا تُطاق، كانت السبب في إدمانه على شرب الخمر مما أدى إلى إصابته بتليف الكبد والتهاب في أعصابه الطرفية وتعرضه لحالات من الكآبة والانطواء - وتدهور في المستويات العليا للمخ - لذلك كان هذا الديكتاتور مثلاً فريداً في القسوة والتنكيل والأنانية المدمرة» [٢] .

وعن أحلام السمن والعسل التي سوف ينغمس فيها المواطنون بوعد من الأبطال الملهمين نقرأ النتيجة: «كان الفقر يعم كل مكان، والأيام الذهبية التي وعد الشعب بها بعد طرد الأعداء قد تمخضت عن أيام أسوأ من أيام السلطان عبد الحميد ذاته! فقد عزُ الطعام، وتفاقم الغلاء، وشحّت النقود، بل شحّت البضائع الضرورية واختفت من الأسواق، وثقلت الضرائب، وازداد جشع جباتها، وجند الشباب جميعاً في الجيش برغم انتهاء الحرب، فانهارت البيوت والمزارع على أصحابها، وماتت الماشية لقلة العلف، وأتلف الجدب الحاصلات الزراعية.. وصارت الحياة عبئاً لا يُطاق بعد أن بلغت الفاقة والعوز حداً لم يُسمع بمثله من قبل»![٣] .

---

(١) نفس المرجع السابق: ص٢١٢. (٢) صحيفة الوفد ٢٩ أغسطس سنة ١٩٨٥.
(٣) أرمسترونج «الذئب الأغبر - مصطفى كمال» ص٢٠٢.٢٠٣.

ومع كل ما جرى، وجد أرمسترونج من صفاقة الوجه، ما جعله يقول بلا حياء أو خجل: «إنه لم يفقد ذرة من إيمانه بالشعب، وبقدرته على أن يقوده إلى مستقبل عظيم. وقد عبَّر عن رأيه بتصريح أدلى به في ربيع سنة ١٩٣٢، قال فيه: «فليترك الشعب السياسة جانباً في الوقت الحاضر، وليضع همه في الزراعة والتجارة !!

إنني ينبغي أن أحكم هذه البلاد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً أخرى. وبعدها أستطيع أن أطلق للناس حرية الرأي» (ص٢٢٥).

وواصل الدمية إصلاحاته الثورية !! مفرزاً صديد كرهه للغة العربية فأمر بأن تتلى الصلوات في الجوامع بالتركية وحدها. وألغى كل شعار إسلامي لتحل محله صورة الذئب الأغبر زاعماً أن ذلك كان رمزاً للأتراك القدماء أيام الوثنية.

ويرى «جورج حداد» أن كثيراً من الإصلاحات الكمالية، والأيديولوجية القومية لها، قد تخطت حدود ما كان يخطط له «الأتراك الشبان» الذين سبقوه. بل إن أفكار «جوك آلب» عن القومية والتغريب قد حورت، لأن جوك آلب نفسه لم يكن يتوقع العلمانية الكاملة وإلغاء الخلافة وتبني الثقافة والحضارة الغربية[١].

أما «جوك» آلب هذا الذي ذكره حداد فهو أكبر دعاة الفكرة الطورانية، أي القومية التركية. وعن هذا المنظِّر للفكر الطوراني الذي اتخذه مصطفى كمال منهاجاً لتركيا، وإن فاقه كفراً وضلالاً، يتحدث الأستاذ عباس محمود العقاد فيقول:

«وفي سالونيك هذه كان يقيم «جوك آلب» فيلسوف الحركة ومبشرها الأكبر في القرن العشرين. وجوك آلب هذا رجل غير موثوق من نسبه التركي، ولم يكن من المولودين في البلاد التركية وإنما كان ينتمي إلى جهة في جانب ديار بكر بالعراق، وكان يقول: إن اللغة والثقافة والشعور هي عناصر القومية وليست علاقة النسب والميلاد، وكان أكثر من هذا وذاك تلميذاً للعالم الاجتماعي الإسرائيلي «دركيم». ودركيم هذا يعرفه المتعقبون لمساعي الصهيونيين في ميدان الثقافة هو رسول الماركسية في ميدان العلم الاجتماعي.

---

(١) Revolution and Military Rule in the Middle East. P. 109.

.. ولكننا نعلم أن سالونيك مدينة يغلب عليها الصهيونيون وأتباع «شبتاي زيفي» الذين دخلوا في دين الإسلام وبقوا على عزلتهم الدينية باسم «الدونمة» ليعملوا في البيئة التركية غير متهمين ولا محذورين. فمن المستحيل أن يكون هذا شأن المدينة وبيئتها الثقافية، ثم يظهر فيها فيلسوف يتتلمذ على العالم الاجتماعي الإسرائيلي دون غيره، ثم يقال إن «الصهيونية» لم تعمل شيئاً في هذا الاتجاه، يقبله الماضون فيه كما أسلفنا عن قصد وتدبير»(١) .

إن هؤلاء الدونمة الذين كانت أسماؤهم في الأوكار: عزراً وحاييم وهارون ودبورا وأستير وساراي، أما في السوق والوظيفة: فمحمود ومحمد وحسين ومصطفى وعائشة وخديجة وزينب يقرأون التلمود والعهد القديم ويرتلون بالعبرية ويأكلون الفطير ويعيدون في أوكارهم وخلواتهم عيدي الفور والحانوكا كاليهود .. هؤلاء الدونمة تقدموا عام ١٩١٨ بعد احتلال الآستانة إلى قادة الحلفاء معلنين أنهم ليسوا أتراكاً ولا مسلمين(٢) .

تولى هؤلاء الدونمة والماسون توجيه الفكر والتربية والتعليم والثقافة في تركيا الكمالية. وما أن حل عام ١٩٢٧ حتى رأينا أحد مفتشي المعارف - علي رضا بك - يسأل تلميذاً: ما اسمك؟

- محمد.
- من هو محمد؟
- محمد أنا.
- هل تعرف شخصية كبيرة بهذا الاسم؟
- كلا.
- ما هي قوميتك؟
- التركية .

---

(١) عباس محمود العقاد «بين الكتب والناس - الحركة الطورانية» مطبعة مصر ١٩٥٢ ص٤٣-٤٤.

(٢) خالد محمد علي الحاج «الكشاف» مطابع الدوحة الحديثة بقطر - ص٣٧٤ ، ٣٧٥.

- ما هو دينك؟
- الدين التركي.
- من هو الله؟
- أتاتورك..!!

قدم المفتش ما سمع للوزارة فكان الجواب عزله .

ثم خطا أتاتورك خطوة أخرى وفرض على الشعب أن يخلص نفسه من الأسماء العربية وبالذات الأسماء ذات الدلالة الإسلامية .

ومنذ عام ١٩٢٢ - وإلى أن هلك عام ١٩٣٨ - ظل حاكماً بدائياً متوحشاً يكمن كالوحش المفترس لاصطياد خصومه .. وقد كف عن الاختلاط بالشعب .. وصار متحفظاً منعزلاً تتعذر مقابلته .. لا يخرج بغير حراسة قوية ولا يقترب من داره إنسان إلا بتصريح خاص. ووضع حول مسكنه أنواراً كاشفة باهرة الضوء .. ولم يعد يقابله غير وزراء حكومته ونفر من أنصاره الكبار وأصفياء السوء .. ولو أنه وُجِدَ في عصر جنكيز خان لبزَّهُ في جبروته الذي لا تضعفه عاطفة أو خلق أو وفاء ولقاد مثله القبائل المتوحشة فغزا بهم الأقطار واجتاح الأمصار ودَمَّر المدن .. ثم أنفق فترات الراحة بين الحفلات المتعاقبة في المجون الصارخ والخمر والنساء..

هذا ما يقوله عنه «أرمسترونج» المتيم به حد العشق (ص٢٠٢و٢٢٥)!!

ولقد كان الإسلام وسيظل - وآسف للقياس - أكبر وأقوى من الشبح والدمية والصنم والعميل.

ذلك أن صحوة إسلامية كبرى تجتاح تركيا منذ أواخر الأربعينات، هذا غير الثورات التي حدثت ضده ومحاولات اغتياله المتكررة..

ولقد أطلت في موضوعه، ولوثت قلمي - على كره مني - بسيرته الوبيئة .. لكن - وليعذرني القارئ - فلقد كان النموذج الذي صب على قده، وفي قالبه

الخسيس، كل عتل جاء بعده زنيم وعميل.

كانت تجربته كما يقول «جورج حداد» أحد المروجين لثوريته!! وأسطورته: «ذات تأثيرات بعيدة المدى على المنطقة كلها، وأوحت إلى القادة (قادة المنطقة) في كل مكان أن يسيروا على نفس خطى الرمز كمال أتاتورك !!(١) ..

إن خبايا الدور الذي لعبه أتاتورك وفاء لأسلافه الدونمة بالتنسيق مع الماسونية الدولية والصيلبية العالمية لا يمكن أن تستره باقات الورد التي تُلقى على «إينيت قبر»!!(٢) .



---

(١) Revolution and the Military Rule in the Middle East. P.101.

(٢) أي القبر الكبير.

الفصل السادس

النبتة الخبيثة ..والتمرد المؤامرة

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأرض مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾.

(إبراهيم : ٢٦)

منتنة الرائحة..!!

مشوهة الخِلقة ..!!

وبيئة النشأة .. مصت من ألف ثدي وثدي .. ولعقت من ألف ماعـون وماعـون !!

عاهرة العينين من غير بصر أو بصير !!

.. تلك الجاسوسة الحمقاء القبيحة التي أفرزتها خطيئة القرن الماضي من تلقيح ورى الأكباد وغل الصدور وبغضاء القلوب لشتى الغزاة والجواسيس والزواقيل. ودارت بها مذعورة تداريها في خبء الليل في أوكار كل عالم العدو.. في سراديب الأديرة، وبؤر التنصير، وملفات السفارات، ولفائف القنصليات، ومحافل الماسون، وجيتو التلمود!!

ويوم أعطوها اسماً غريباً على بلادنا تأخر هذا الاسم عن نظرائه في البلاد الغريبة نصف قرن أو تخلفت هي لتلحق باسمها الزنيم نصف قرن أو يزيد!!

ويوم أخرجها صانعوها من أنبوبة اختبار المولد والحضانة والنضج، أجروا لها ألف عملية تجميل، وجروها إلى شوارعنا لتمارس دور البغي المعكوسة، تدفع أجرة زناتها ولا أجرة لها.. لكنهم تركوها كما هي مشوهة الخلقة، بعد أن

أعيتهم حيل تحسينها .. تركوها كسيحة مقعدة تفزعها ضربات حفار القبور التي تناديها بأنها شيء غير قابل للبقاء مهما أقيمت من حوله جميع الأسناد .. تركوها تلعق جربها وتطل الخيبة من فجوات وجهها المجلود بخزي القرون وتطفح عفونة جراثيمها على جسدها المملوء بالبثور .. فعافها كل الناس حتى الخطاة والأوشاب .. لأنها رقدت في الطريق في عرى صريح !!

وعندما أطبقت كل قوى عالم العدو على ديارنا لتمزق عقدنا الجامع وتنثر حباته، ركبوا لها رجلين وأعطوها عصاوين وساقوها بسياط الحمير .. لا يرافقها إلا زنماء بيت دعارتها وحمالوا محفتها ونُدل حانتها .. يحميها ويحرسهم أسلحة أحد آبائها الرسميين .. ودسُّوا في جيوبها بعض الدنانير لتستأجر منادين ونخاسين .. فالطريق طويل والحركة أكبر من المحفة والنُدل والزنماء!!

علّقوا في أذنيها زنمة ليشهدوا لها بأنها شريفة .. وفحروا في جبهتها وشماً ليخدعوا الناس بأنها ثائرة !!

لكن هذا الزيف - الشرف والثورة - المصنوع بالوشم أو الوسم لم يستطع أن يداري دناءة خلقة الأصل والوصم !!

طلبوا منها أن تقوم بدور .. أي دور .. ولأنها لا تستطيع - إعداداً ودراية وقوة وحركة - أن تنتظم في أي طابور من طوابير الأعداء المقاتلة .. الطابور الأول أو الثاني أو الثالث أو الرابع .. وضعوها فصيلاً هزيلاً ضمن الطابور الخامس .. لتقوم بدور الغدر (الهايف) من وراء خطوط المجاهدين المسلمين !!

وزحفت على بطنها .. وتقطعت أنفاس المسكينة وماتت في عام وبعض عام، منذ أخرجوها حتى أهلكوها .. أو هلكت هي بحكم طبائع الأشياء.

والغريب أن أبوين من آبائها المحسوبين في دفاتر النفوس الحرام (جبروا بخاطرها) .. فانحنت في رقصتها المذبوحة - في النزع الأخير - تحت وطأة أحدهما في بيت المقدس وأركعها الآخر في دمشق، عند مثوى صلاح الدين!!

وهذا ما لم يسبق أن فعله الآباء البرابرة أو الوحوش ببناتهم العاهرات!!

لكن تُرى .. هل كان ذلك شفقة من الآباء لأن كريمتهم البغي جفل منها كل الزناة !؟

المهم .. أنهم وأدوها بعد ذلك في إحدى الخرائب البعيدة..

لكن الآباء الأبالسة تركوا لنا نفايات بيت دعارتها مبعثرين هنا أو هناك وحرّموا عليهم أن يتحركوا باسمها .. لأن الساقطة - اسماً وسيرة - كانت تشكل تعكيراً لصفو آبائها الذين استقروا في بلادنا..

وبعد ما يقرب من نصف قرن من الوأد اشترك ورثة بيت الدعارة مع بعض الأقنان وحفاري القبور والزبالين وآكلي الرمم وأعلنوا أنهم متيمون في هوى الموءودة، يشربون كأس عشقها حتى الثمالة!!

قسموا العمل بينهم تكيهناً وتبشيراً وتأريخاً، فكتبوا قصتها تقديساً ودعوة وسيرة.

وكانوا صادقين عن غير قصد وهم يسردون حكاية إلهتهم الهاوية بقدها وقدسها!! بعد نصف قرن من بلى عظامها النخرة !!

مساكين هؤلاء العشاق!! بعثوا لنا صورتها من جديد عارية عِرى استنباتها وعار مولدها وعورة هلاكها!!

وبذلك أماتوها اثنتين عن غير وعي وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وكأن الله سبحانه أراد لجيلنا أن يشهد ميتة بعث الرمة بعد أن حضرت الأجيال الماضية ميتة نبتتها المرة !!

لقد هتكوا الستر عن سيرتها وفضوا الختم عن مسيرتها دون وازع من ضمير عائلي يعيب كشف العورات وبلا حمية قبلية تغار على عِرضها المفضوح!!

ولقد كانت بديهيات صلة الرحم أن يتركوها لغزاً خفياً في باطن سر الجريمة في حلكات الحنادس وغياهب الهلكات!!

ولعل أكبر ظاهرة في الغباء والعته في تاريخ التجمعات البشرية أن يكتب أفراد قبيلة لقيطة بأيديهم معلقات تحكي سفالة الأصل وترسم فضيحة النسب!!

وكان فضل الله علينا كبيراً..

أراحنا سبحانه من الإتيان بشهود ذوي عدل قد يعيينا طلبهم أو قد يرفضهم الخصوم.

فها هي المؤامرة الجريمة، ليست في حالة تلبس فحسب، ولكن في شهادة أهلها وعشاقها .. ألقى الله في ألسنتهم - على التوائها - معجزة كلمة الحق وقد زين لهم سوء الانتماء أنهم بعرضهم عِرضهم مفضوحاً في عرى صريح سيحصلون على أكبر رصيد في التقدم والعلمنة والتحضر وحسن الوصال!!

فمن خلالهم - السدنة والكهنة والصبية - نطل عليها وهم يطرحونها من البداية إلى المنتهى!!

أما «محمد رفعت» رئيس المحفل الماسوني السابق - وزير المعارف الأسبق - في كتابه «التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة» - (دار المعارف) فيفترض أن اللغة العربية كانت قد ماتت وخرس أهلها، ويعزى إحياءها (هكذا)!! إلى قسيس أمريكي وبعثته التنصيرية (التبشيرية) البروتستانتية ومساعديه .. فيقول بلا حياء أو خجل :

«وكان على رأس البعثة الأمريكية قس أمريكي هو «إيلي سميث E.W. Smith» ، وإليه وإلى مساعديه أمثال نصيف اليازجي وبطرس البستاني يرجع الفضل في إحياء اللغة العربية فقد أخذوا ينقبون عن كتب الأدب العربي التي كانت مهملة في زوايا الأديرة والكنائس» (ص٥٩).

تُرى هل أودع أجدادنا العرب - الذي يريد أن يلحق باسمهم الشريف تلك النبتة الخبيثة - تراثهم لدى الرهبان والشماسين والقسس والكهنة أمانة أو وديعة ليحفظوها في زوايا الأديرة والكنائس وحرموا أبناءهم - آباءنا -

ومساجدهم ومكتباتها وخزائنها منها، فأهملها هؤلاء الذين استُحفظوا عليها، حتى جاء «إيلي سميث» وجماعته بعد قرون لا نعرف مداها بالضبط، بالصدفة أو بتدبير سابق أو اتفاق بين الأجداد والمبشرين على تباعد القرون، فقاموا بالحفريات والتنقيب وأخرجوها ونشروها للورثة الذين ارتكب آباؤهم جريمة إخراسهم في سبيل سواد عيون ذوي الأردية السوداء!؟

ويتحدث «محمد رفعت» عن إنجازات هؤلاء القسس فيقول:

«إنهم أنشأوا الكلية الإنجيلية السورية اليسوعية عام ١٨٦٦، فوفد إليها الطلاب ليتشربوا روح النقد دون أي قيد ديني أو تقليدي» (ص٥٩).

وجاء الكاثوليك ليشاركوا في التلقيح :

«واقتفت البعثة الكاثوليكية إثر الأمريكان البروتستانت، فأنشأوا كلية القديس يوسف، وقد أدى التنافس بين كلية يسوع وكلية القديس يوسف إلى حفز الدارسين العرب على كشف الكنوز العربية ونشرها بعد أن ظلت مطوية قروناً طويلة» (ص٦٠).

تخيل أن الكنوز في كل فروع التراث كانت في أمانة الرهبان الوطنيين!! مستأمنين عليها في الأديرة حتى جاء المبشرون الأجانب فكشفوها لنا على أمانتها إخلاصاً للتراث العربي، وقد قطعوا المحيطات وجاءوا لوجه الله يكرزون ببشارته!!

ويأتي دور المساعدين - مساعدي القسس يعني!! - في البعث العربي، قوماً ولساناً:

«وكان رائدا الحركة الفكرية في سوريا هما الشيخان أو المعلمان نصيف اليازجي وبطرس البستاني .. وأن العالم العربي كله ليعترف لهذين الشيخين المسيحيين(!!) وأولادهما وتلاميذهما من بعدهما بفضلهما الذي لا يُنكر على النهضة العربية الحديثة فقدأُشربا حب القومية العربية وافتتنا بلغة العرب وآدابها أيما افتتان.. وكان اليازجي الرائد الأول لحركة إحياء اللغة العربية بما ألفّه وصنّفه من قصائد شعرية وكتب في النحو والصرف والمنطق ومن إنشاءات جديدة

حاكى بها مقامات الحريري والهمزاني» (ص٦٠).

يبدو أن المساعدين لم يعترفوا بحكاية الكنوز التي كانت مخبأة في زوايا الأديرة والكنائس. ورأوا أنها لا تصلح في إعادة اللسان أو صنعه من جديد، وأن افتتانهم بلغة العرب وآدابها قد تفوّق على كل ما كتبه أهل العربية - أصحاب الكنوز في علوم العربية المتنوعة - فصنّفوا نحواً وصرفاً وإنشاءات ومقامات!!

وبدأت المولودة تتكلم :

«وأما المعلم بطرس البستاني فقد أصدر في عام ١٨٦٠ أول نشرة عربية أسماها نفير سوريا ومجلة الجنان والجنة والجنينة وأنشأ أول مدرسة وطنية في عام ١٨٦٤.. الخ» (ص٦١).

ثم تولّد لدى المولودة الحس والشعور بعروبتها:

«وقد تولّدت من التقاء العنصرين القديم والحديث على أيدي اليازجي والبستاني وتلاميذهما الشرارة الأولى التي ألهبت روح القومية العربية في نفوس العرب على اختلاف مذاهبهم» (ص٦١).

وعلى طريقة الشعوذة البدائية، اتباعاً لفن الساحر والحاوي بدأت تحرّك رأسها ورجليها بالطبل والمزمار والإنشاد!!

«إن اليقظة القومية التي حركت العرب هي قصيدة إبراهيم اليازجي بن نصيف اليازجي التي أنشدها لعدد من صحبه من أعضاء الجمعية العلمية السورية عام ١٨٦٨ حيث قال:

«تنبهوا واستفيقوا أيها العرب

فقد طمى السيل حتى غاصت الركب»(!!)

طبعاً سحر البيان في هذا الشعر هو الذي خلق اليقظة في القومية، فتحرك العرب بعد أن تأكدوا أنهم عرب!!

(ملحوظة: كاتب هذا الكلام كان يشغل وظيفة وزير المعارف - يعني المسئول

الأول عن تربية وتعليم وتثقيف الناس في مصر)!!

أما الدكتور جلال يحيى في كتابه «تاريخ القومية العربية - الثورة العربية» -(دار المعرفة) فيرجع بذرة النبتة الخبيثة إلى الفتنة الطائفية في لبنان بين الدروز والموارنة تدعيماً لأصلها العريق..!! واعتبر تمرد الموارنة ضد الدولة العثمانية ثورة قومية، وأنه من خلال هذه الثورة التي «سمحت للدول الأوروبية بالتدخل وخلقت بذلك سابقة خطيرة لهذا الإقليم» كما قال في صفحة (٣٩) «بدأت بذور الوطنية الأولى في الإنبات واتخذت شكل الأماني القومية التي ستزداد صلابة وتبلوراً مع الزمن» (ص٤٠).

وتبلورت وازدادت صلابة بين أحضان القسس الغرباء .. قسس الغزوة الصليبية الثقافية -- هجمة الفكر طليعة هجمة العسكر - في بعثات التنصير أو التبشير. ونسب الدكتور للفرنسيين الجهد الأكبر في التطعيم والتفريخ لأن بعثات التنصير: «كانت كاثوليكية في أغلبها وحاولت خدمة العرب الذين يرتبطون بالكنيسة الرومانية» (ص٣٠).

ومن بين الآباء أو الحاضنات أو المربيات - أي إرساليات التنصير - جماعة سان لازار وكلية القديس يوسف والجزويت والجمعية الشرقية، والجمعية العلمية السورية وإخوان الصداقة !!

وكانت رسالة هذه الإرساليات كما حددها الدكتور المؤرخ :

«وكان هدفها خلق جيل عربي يعتز بتراث آبائهم وأجدادهم الأولين» (بالصداقة!!) ولو أن هذا القسم ليس من أيماننا - يا دكتور، هل من ضمن هؤلاء الآباء والأجداد الذين جاء قسس فرنسا ليخلقوا جيلاً يعتز بهم أولئك الذين تصدوا للغزوة الصليبية الأولى الرسمية ودحروها وهزموا جنودها وطردوهم وضمنهم جنود فرنسا ؟!

ويواصل أستاذ التاريخ!! أمانة عرضه للتاريخ فيقول :

«أنشأ الجزويت المدارس في بيروت، وزحلة، ثم في دمشق وحلب، ثم أنشأوا جامعة سان جوزيف التي ستصبح منافساً خطيراً للكلية السورية البروتستانتية

وسيفيد الشعب العربي من كل منها »!! (ص٣٣).

« وبعد ثلاث سنوات أنشأوا المدرسة الوطنية وعملوا على تخريج جيل وطني يعتز قبل كل شيء» (ص٣٥). هل ضمن اعتزاز الجيل الوطني بعروبته أسر الملك الفرنسي لويس في دار ابن لقمان!؟ (ملحوظة: هذا الرجل (الدكتور!!) يدرس التاريخ لشبابنا في الجامعات)!!

ومع تقليح جديد!!

يتحدث الدكتور «جلال يحيى» عن نشاط البروتستانت التابعين للأمريكيين الذين اقتصر نشاط بعثة تنصيرهم على بيروت وأنشأوا الكلية اليسوعية أو الكلية السورية الإنجيلية في سنة ١٨٦٦. ويقول : إن خريجي الكلية اليسوعية قد «عملوا على اليقظة العربية»..

ويذكر أن بعثات التنصير الأمريكية والفرنسية :

«قد درست اللغة العربية وتراثها وكشف كنوزها وأحبتها. وترجموا الإنجيل إلى العربية».

ويتحدث عن الرائدين أو المعلمين أو الوسيطين «نصيف اليازجي» و«بطرس البستاني» فيقول عنهما :

«إن نصيف اليازجي - ويعرفنا به زيادة في سعة الأفق والتوضيح - وهو مسيحي درس على القساوسة واطلع على المخطوطات وسيطر على الحياة الفكرية».

أما بطرس البستاني «فقد ترجم الإنجيل إلى العربية وألف قاموس محيط المحيط وأنشأ المدرسة الوطنية لتخريج جيل يعتز بعروبته وأصدر جريدة الجنان ولسان حالها: الوطنية من الإيمان».

وذكر أن تلاميذ اليازجي والبستاني وخريجي المؤسسات سالفة الذكر قد نادوا بتخليص الوطن من الأتراك .

وهكذا بدأت «التخليقة» تعقل وقد نطقت بلسان عربي ركبه لها القسس ومساعدوهم وصبيتهم بعد أن وجدوه مقطوعاً محفوظاً وسط الغبار في زوايا الأديرة والكنائس. وأصبح هذا اللسان فصيحاً قادراً على مخاطبة الجماهير وعلى وجه الخصوص بعد ترجمة الإنجيل إلى العربية الذي لولا تعريبه - أي الإنجيل - لظلت الجماهير خرساء !!

ملحوظة (للدكتور فقط): لم يكن يقرأ الإنجيل في ذلك الوقت وبعد ترجمته إلا المتخصصون في الكهنوت وهم لا يشكلون أي نسبة تذكر في نسبة المسيحيين القليلة بين الجماهير العربية .. إلا إذا كان الدكتور لا يعتبر المسلمين عرباً!! أم تراه يحسب - ومن المفروض في الدكتور أنه درس على المنهج - أنه فور خروج الإنجيل المترجم من المطابع تدافع المسلمون إلى أبوابها يتلقفونه ليعدلوا به لسانهم الأعوج أو ليحيوا به لغتهم الميتة !!؟

وبدأت المولودة تتحرك في أنبوبة الاختبار. فيرجع جلال يحيى: «أول مجهود للحركة القومية العربية إلى سنة ١٨٧٥ عندما اجتمع خمسة شبان من خريجي الكلية اليسوعية البروتستانتية وكونوا جمعية سرية .. كانوا جميعاً من المسيحيين لكنهم قد رأوا أهمية العمل على ضم المسلمين والدروز .. جمعية بيروت العربية» (ص٦٤).

وشاركت الأفعى الإسرائيلية في تغذية المولودة، فلماذا لا يكون لها مثل غيرها دور في التبني والتوجيه؟

«وكانت أفكار الماسونيين قد بدأت في الوصول إلى سوريا - واتخذوا بيروت مركزاً لنشاطهم ولكنهم أنشأوا فروعاً لهم في دمشق وطرابلس وصيدا. وكانت أهدافهم ثورية لا غبار عليها. وبدأت أفواج هذه الحركة تتصل بالجمعية السرية (جمعية بيروت العربية المشار إليها).. وكانت وسيلتهم منشورات سرية» (ص٦٤).

وهكذا التقت الطليعة اليهودية الحركية المسماة بالماسونية مع رؤوس الغزوة الصليبية الثانية في صورة المبشرين، لتحريك الإنتاج، أي إفرازات الغزو

النصراني والتلقين اليهودي .

وتبرع جلال يحيى فمنح صفة العروبة للحركات الوهابية والسنوسية والمهدية (رغم عملها في نطاق الإسلام)!!

ويعتذر عن جريمة إسلامية هذه الحركات بأنها «لم تعمل في مناطق يسكنها أقليات، وأن بعضها قد اضطر إلى اتخاذ الدين وسيلة لتعبئة الشعور العام. إذ أن المستوى الثقافي والحضاري في أقاليمها كان يتطلب ذلك» (ص١٠).

وقبّح الله الكذب وأهله.

فأولاً - إن هذه الحركات الإسلامية الإصلاحية كانت إسلامية الدوافع والغايات .. إسلامية النهج والطريق.. فكيف كانت تتخذ الدين وسيلة؟ وسيلة لماذا .. والدين منطلقها ومسارها وهدفها!!؟

وثانياً - إن هذه الحركات التي قامت لتجديد شباب الإسلام لم تكن تعمل من أجل قومية عربية مضادة للفكرة الإسلامية، ولم تكن في حاجة إلى مبشرين كاثوليك أو بروتستانت أو صبية قسس يبعثون لها تراثها أو يحيون لغتها أو يركبون لها لساناً عربياً في الدرعية أو الرياض أو برقة أو أم درمان أو أن تخلصها ترجمة الإنجيل مما استغلق عليها أو استبهم واستعجم!!

فلماذا كانت تداهن أقاليمها المسلمة المختلفة!! (حكاية المستوى الفكري والثقافي) وتضطر لاتخاذ الدين وسيلة في عملية ضحك على الذقون لتصل بالناس إلى العروبة المنشودة؟

وكيف عرف سيادته أنها كانت تريد العروبة في السر وتتستر بالإسلام في العلن !!؟

سبحان الله !!

الإمام محمد بن عبد الوهاب، والإمام محمد بن سعود، والإمام السنوسي، والإمام المهدي - رحمهم الله وجزاهم عن إسلامهم خير الجزاء - كانوا مضطرين

إلى اتخاذ الدين وسيلة!!

وثالثاً - إن واحدة من هذه الحركات - السنوسية - حاربت في جهاد بار إلى جانب الدولة العثمانية كل معاركها حتى النفس الأخير .. حتى النزع الأخير لدولة الخلافة الإسلامية - والدولة العثمانية هي الهدف الذي استنبتت عروبية جلال يحيى لحربها والعمالة ضدها بداية وغاية !!

إن الحركات الوهابية والسنوسية والمهدية تتبرأ من عروبية المبشرين والماسون، ومن السخف والبرود والعهر إدخالها في هذه الحكاية الوبيئة.

أما كاهن العروبية وراهبها وعريفها - إلى آخر مسمياته - «ساطع الحصري» فإنه في كتابه «محاضرات في نشوء الفكرة القومية» - (دار العلم للملايين - بيروت) فبعد أن اعترف بإسلامية الجماهير العربية وإسلامية الدولة العثمانية وأن العرب لم يعتبروا الدولة العثمانية دولة أجنبية وتجلى ذلك في قبولهم الدخول فيها قبول طواعية واندماجهم فيها اندماج مواطنة فاعلة، لكنها دولة إسلامية تدافع عن بيضة الإسلام تحت زعامة خليفة المسلمين، وأنهم كانوا يحترمون السلطان العثماني احتراماً دينياً خالصاً، وأنهم اعتبروا العثمانيين امتداداً طبيعياً للخلافة الإسلامية التي تسلسلت من الراشدين إلى الأمويين والعباسيين والعثمانيين. ولم يكن يرتسم في أذهانهم صورة تاريخ يستحق التسمية باسم تاريخ الأمة العربية، كما أن التاريخ العثماني ما كان يظهر إلا بمظهر تتمة للتاريخ الإسلامي العام. وأن العرب كانوا يُدعون للخدمة العسكرية فيشتركون في حروب الدولة ويساهمون في انتصاراتها ويعتبرونها نصراً للإسلام والمسلمين .. الخ». (ص١٧٥-١٧٩).

.. بعد كل هذا، انقلب الرجل فجأة على كل ما قال وفي نفس الفصل من نفس الكتاب، وبعد صفحة واحدة، وأخذ يردد في بلاهة ما استُخدم من أجل إشاعته كمنشورات غبية بين الناس .. الحكاية إياها: حكاية القسس وبعثات التنصير كاثوليكية وبروتستانتية، شرقية وغربية، اليعاقبة والملكانيين، وحكاية

ترجمة الإنجيل وأنها كانت أكبر ظاهرة في بعث اللغة العربية وإحياء القومية العربية .. إلى آخر ما لتّ فيه وعجن فيما يزيد على عشر صفحات !!

لكن الكاهن العروبي بعد أن مجد الطليعة العروبية ممثلة في نصارى الشام، عاد ينفي عن النصارى بعامة حكاية القومية العربية وكنوزها وإحياء لغتها وتاريخها وآدابها وإنجيلها. فقال - والكذب ليس له رجلين - على حد المثل الشعبي:

«ما كانوا يرتبطون بالدولة ارتباطاً قلبياً، وإنما كانوا يخضعون لحكمها خضوع اضطرار. والسواد الأعظم منهم ما كان يهتم لا بالتاريخ العثماني ولا بالتواريخ العربية لأنه كان يعتبرها كلها بمثابة تاريخ إسلامي محض لا يخص غير المسلمين» (ص١٨٣).

ويبرر الكاهن القومي تلك النبتة العروبية الخبيثة - في صورتها العميلة والخائنة - ويمجد المساعي العظيمة (!!) لفرنسا، أي بعثاتها التنصيرية التي خلقت طابوراً خامساً يكره العرب والإسلام .. ويثني الكاهن العربي على هذا الطابور العميل ويبارك طلب الحماية الاستعمارية :

«والمساعي العظيمة التي بذلتها فرنسا في هذا السبيل لم تخل من بعض الثمرات لأنها استطاعت أن تكوّن بعض الجماعات التي تقول: لا أمل في إصلاح الدولة العثمانية إصلاحاً يضمن الحرية والمساواة للنصارى، ولا خير في دولة عربية تقوم مقامها طالما تكون الأكثرية فيها للمسلمين فلا سبيل إلى سعادة المسيحيين إلا تحت حماية دولة أوروبية مثل فرنسا» (ص١٩٤).

وهذا صدق من غير قصد!!

فالمولودة الموؤدة - الإلهة المبعوثة، باعتراف كاهنها الأكبر لا تكتفي برعاية فرنسا القسس والإرساليات، وإنما تريد حماية فرنسا الجيوش والأساطيل .. فرنسا الاستعمار!!

ويرى «حازم زكي نسيبة» في «القومية العربية - بيروت ١٩٥٩» :

«أن غزوة نابليون أدت إلى انتشار الوعي القومي وانتشار الفكرة الأوروبية في القومية وإلى كراهية الحكم التركي» (ص٤٨-٤٩).

أراد الرجل أن يجعل لها مجداً تليداً تحت حوافر خيول الفرنسيين الغزاة..

وينقل« محمود كامل» في «عروبتنا - إقرأ - دار المعارف - ١٩٦٤» عمن أسماهم بعض المؤرخين الأوروبيين :

«أن الأمريكيين قد لعبوا دوراً كبيراً في إحياء اللغة العربية وأنهم أوحوا بأول الآمال الوطنية العربية - وهي الآمال التي تزعم الترويج لها طلبتهم وبعض المدرسين الذين اختيروا من العرب للتدريس في المعاهد الأمريكية .. وما بدأ كجمعيات ثقافية تطور فأصبح حركة تآمر هدفها التحرر المقدس من النير العثماني» (ص١١٩). إي واللّه!! ما أفرزته بعثات التنصير وصبية القسس كجمعيات ثقافية تطور - بحكم تغذية النبتة الخبيثة - فأصبح حركة تآمر!! لكن تآمر مقدس!! أرأيت الهدف من إفراز اللقيطة وحضانتها وتغذيتها وحمايتها واضحاً جلياً في بيان عشاقها المفتونين !؟

* * *

مما تقدم، وفي محاولة غبية وخسيسة من تلاميذ الغزو الفكري لإلصاق العربية الشريفة بتلك النبتة الخبيثة، اتهم هؤلاء التلاميذ الفاشلين أجدادنا بالكفر بتراثهم والبراءة من أبنائهم - آبائنا الذين حرموهم من ميراثهم الثقافي في كل ما ألجزوه وصنّفوه في شتى فروع المعرفة. وحكموا على أبنائهم - آبائنا - بأنهم سفهاء، ناقصو الأهلية .. قُصّر، لزم لهم «مجلس حسبي» يتصرف في التركة «الكنوز» وتصرف هذا المجلس بأسلوب اللصوص فلم يسلمها للأبناء الورثة عند سن الرشد، لكنه أعطاها للكهنة والرهبان ليلقوا بها في زوايا الأديرة والكنائس فظلت مهملة عدة قرون!!

كذلك، يريد لنا حراس ثقافة العدو في بلادنا من بني جلدتنا!! أن نتهم آباءنا بخرس اللسان وطلاق لغتهم العربية!! فهل نحن أبناء الخرس أم أبناء أمة عربية مبينة !!؟

أيعقل أن نتهم جامعاتنا الإسلامية في الآستانة وفاس والزيتونة والقيروان والقاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد وغيرها... نتهم جامعات الأزهر والقرويين والزيتونة ومحمد الفاتح.. نتهم مساجدنا الكبرى وخزائن كتبها .. بل حتى نتهم بيوتنا المتواصلة بمكتباتها التي ما خلت يوماً من «الكنوز» مخطوطة ومطبوعة .. أنتهمها جميعاً بأنها قد عميت بصيرتها عما في زوايا الأديرة والكنائس، مما يخصها هي ويقع في دائرة إسلامها وعروبتها، وتأصل من خلاله وجودها نهجاً ونكهة وحضارة، واختصت به وتميزت من خلاله عن سائر أمم الأرض كأمة مسلمة !!؟

أما لغتنا العربية الشريفة فهي أقدم وأبقى وأنشط وأكثر حيوية من كل التاريخ المسيحي بعامة!! ومن ثم فهي الغنية ليست في حاجة إلى من يدحض خرافة (موتها!!) ثم (إحيائها!!) على يد البروتستانت أو الجزويت أو الآباء اليسوعيين!! فتواصلها المتواتر هو حقيقة أمة نحن أبناؤها عرباً وغير عرب .

فلم تكن اللغة العربية يوم جاء «إيلي سميث» وبقية ركب القسس، والجواسيس في الهجمة التنصيرية على بلادنا، لغة العرب فحسب، بل كانت اللغة الغالبة في جميع ديار المسلمين من ترك وفرس وأفارقة وهنود.. كتبت بها كل هذه الشعوب في جميع البحوث من فقه وتاريخ وعلوم الحديث والأدب والشعر والفلسفة والطب والفلك والرياضيات وجميع العلوم والمعارف بعامة. بل إن ما يزيد على نصف اللغات الفارسية والتركية والأوردية عربي الأصل والصرف والأوزان. ولولا هؤلاء المبشرون الذين وفدوا قبل عسكر الغزاة أو في ركاب موجات الاستعمار لتعرب النصف الباقي .

أما القرآن الكريم الذي تكفل بحفظه من أنزل الذكر الحكيم، فلم يخل بيت مسلم، على امتداد الساحة الإسلامية كلها، من حافظ له كله أو بعضه، أو يتلوه بلسان عربي مبين .. كان ذلك منذ أن نزل- تكرم وتمجد - وعلى مدار التاريخ الإسلامي كله. انبثقت من خلاله أمة، وقامت على أساسه دولة وحضارة وتاريخ

وعلوم ونظام .. حفظه الناس في العقول والصدور والضمائر والألسنة والعيون، وانطلقوا على هَدي من نصوصه يصيغون حياتهم ومدنيتهم وثقافتهم في كل المجالات .. ولم يتخلفوا عن ذلك قط في أي عصر من العصور. قد يعتريهم ضعف أو تخلف في الإنتاج المادي، لكن القرآن ظل - وكما هو - في موقعه من الأمة وحياتها .. النهج والأمان.

وهذه حقائق رآها بأم عينه القسيس «سميث» وصحبه ومن على شاكلته من المبشرين والجواسيس .. ولا تنكرها إلا عيون الصبية وقد لطخها قذى التهجين والاغتراب.

ومن ثم فالأمة العربية التي يحاول هؤلاء الصبية أن يُدخلوها في حكاية النبتة الخبيثة لم تكن في حاجة إلى ترجمة الإنجيل لتُحْيي لغتها أو تُعَدِّل لسانها.

أما الدولة العثمانية التي زعم صبية النبتة الخبيثة أن هذه النبتة أرادت حربها وإغاظتها بتعريب الإنجيل، كشيء عربي يحقق الذات العربية ويبعث العروبة ولغتها في مواجهة الأتراك .. هكذا!!

هذه الدولة العثمانية هي التي نسخت القرآن ووزعته، وقامت على تعليمه، وأنشأت له الدور العامرة لتلاوته وحفظه وتجويده، وتدريس علومه على تنوع مجالاتها التي انتظمت كل ما ارتبطت به حياة المسلم الخاصة والعامة .. كانت هذه الدور العامرة في كل مكان ومن بينها بيروت وصيدا ودمشق وزحلة !!

وربما كان في بيوت آباء الحصري وجلال يحيى ومحمد رفعت وغيرهم نسخة من المصحف العثماني الشهير!!

ولقد أخذني سياق هذا التوضيح فيما لم أكن أرغب فيه، لأن قصة لغتنا العربية الحية وهيمنة القرآن الكريم عليها وحفظه لها، حقيقة مستقرة عند عامة الناس، فالناس هي وجوداً وبياناً، وهي ليست القبطية أو السريانية تُستفتي فيها المتاحف، أو بعض رطانات تُلقى داخل الأقبية في مناسبات خاصة كنوع من التراث ولا يفهمها أصحابها الذين عربتهم لغة القرآن .

إن وقفتي للدفاع عن المساكين القسس المبشرين الذين قطعوا البحار وجاءوا إلى ديارنا في خدمة الرب لتنصيرنا مبشرين بخلاص يسوع وكفارته وفدائه على رجاء القيامة !!

لقد جاء المساكين طلائع استعمار ينشئون الكنائس ويُكَرِّزون بالثالوث المقدس لتعميد الناس جميعاً. ثم خرج لهم من شكك في رسالتهم واتهمهم بالانحراف عن إرسالياتهم وأزعج أرواحهم المتنيحة، فادعى عليهم أنهم جاءوا لخدمة العرب والمسلمين وكشف الكنوز العربية، وأن هدفهم خلق جيل عربي يعتز بعروبته قبل كل شيء .. يعتز بتراث آبائهم وأجدادهم الأولين !!

لماذا التقوُّل على الموتى وتجريح القديسين، وهم راقدون قريري العين في كنائسهم أو هلكى بجروحهم في صحارينا على طريق خدمة الرب يسوع المسيح!؟

لماذا اتهام القسس بالكفر والتواطؤ مع المسلمين والانسلاخ عن هدفهم بكشف الكنوز الإسلامية ونشرها وإحياء لغة القرآن!؟

فأنا تقديراً للمقدسة «لندا» والراهبة «تريزا» اللتين أعطتاني صورة ملونة عن الراعي الصالح لعبت بها في طفولتي، وللخواجة «اسكلي» مدير كلية الأمريكان السابق الذي أهداني العهد الجديد .. وصرفاً لأرواح قدامى المبشرين التي تنوح في غرفة مكتبي- وهي متنيحة منذ قرون على رجاء القيامة- تطلب شهادتي دفاعاً عن مهمتها الرسولية!! التي أراد طعنها وتشويهها والتشويش عليها تلاميذهم الأغبياء .. ينبغي عليَّ أن أُوضح مهمة هذه البعثات التنصيرية (التبشرية)!!

فمن أجل «عضم التربة» - كما يقول المثل النصراني - أي عظام القرافة أو المقابر - وجب الدفاع !!

وموضوع التبشير أو التنصير طويل يحتاج إلى مجلدات. لكن لا بأس من ذكر طرف منه في هذا المجال. وآمل- إن كان في العمر بقية - أن أخصص له دراسة مستقلة .

في كتابه الذي يبلغ ستمائة واثنتين وعشرين صفحة: «تاريخ الإرساليات المسيحية A. History of Christian Missions» وفي فصل بعنوان: «التوسع الأوروبي المبكر، (Early European Expansion, 1000-1500) ١٠٠٠-١٥٠٠» يقول القسيس المبشر «استيفان نيل Stephen Neil»:

"كانت الحروب الصليبية أول إشارة لصحوة أوروبا وللمقدرة الجديد المنوطة لها الشعوب الأوربية للعمل الجماعي كمسيحيين - لكنها لم تكن الإشارة الوحيدة. ففي القرن الثاني عشر كان الضغط المسيحي في أسبانيا والبرتغال يطرد المسلمين .. وسقطت غرناطة آخر قلعة إسلامية في عام ١٤٩٢م. وفي عمليات إعادة التنصير كانت هناك أشياء نبيلة وأخرى مخزية. وربما كان حتماً أن يكون العنف والضغط الذي مارسه الحكام المسيحيون ملحوظاً أكثر من التبشير. وعادت شبه جزيرة إيبريا مسيحية»، وذكر أنه: «إذا كان المسلم الطيب هو المسلم الميت (أي المقتول) فكان يمكن من خلال التبشير المخلص بالبشارة كسب المسلمين إلى عقيدة المسيح" (أي بدلاً من قتلهم)!! (ص١٣٤).

وكانت تلك هي البداية !!

ويتحدث عن «رامون لول Ramon Lull» فيقول:

«يعتبر رامون لول واحداً من أعظم المبشرين في تاريخ الكنيسة فهو أول من طوّر فكرة الإرساليات على أسس واعية، وقد ولد في عام ١٢٣٥م. وقد استدعته ثلاث رؤى متكررة للمسيح للعمل وسط المسلمين فقال: إن الإرساليات سوف تُنَصِّر الدنيا كلها بالتبشير والوعظ، ولكن من خلال نزف الدم، والدموع، وبالجهد العظيم، ومن خلال الموت المرير!!

وقام بأربع زيارات لشمال إفريقيا لتبشير المسلمين والجدال معهم شخصياً. وفي زيارته الرابعة التي كانت لتونس أمسكوه بطريقة خشنة ومات متأثراً بجراحه» (ص١٣٥-١٣٧).

ويتحدث «استيفان نيل» عن رحلات تبشيرية مبكرة في القرن الثالث عشر

عبر الهند من وإلى الصين - وأنه منذ القرن الرابع عشر كانت هناك محاولات لإدخال المسيحية اللاتينية في الهند على قاعدة ثابتة. ويحكي حكاية مجموعة من ثلاثة من الفرنسيسكان الفريرز(Friars)وصلوا حتى تانا قرب بومباي. وهناك نشب نزاع أو جدال اضطر الأخ توماس لأن يقول ما يعتقده في محمد ﷺ :

«إن محمداً(ﷺ وقطع لسان القسيس) هو ابن الجحيم ومكانه في جهنم مع الشيطان أبيه، وليس هو فحسب بل كل أولئك الذين يتبعونه ويتمسكون بشريعته، الزائفة والمهلكة والملعونة، المعادية للرب ولخلاص الأرواح»!! (ص١٣١).

«ولم يكن غير طبيعي أن ثلاثة من الزائرين قُبض عليهم وأعدموا» (ص١٣١).

وفي فصل بعنوان «عصر الكشوف ١٥٠٠-١٦٠٠ The Age of Discovery, 1500-1600» . يتحدث عن عبور كريستوفر كولمبس للأطلنطي. ويذكر أن فاسكو دي جاما قد لَفَّ حول رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٧م ولمس الشاطئ الغربي للهند عند كاليكوت، ويقول :

«وأخيراً فإن الباب الخلفي لآسيا قد اكتشف من وراء المسلمين وسيطرتهم على طرق التجارة براً وبحراً والتي ربطت الغرب بآسيا. وكان أمام الرجال الشجعان - المكتشفين - ومن ورائهم الحكام وغيرهم - هدفان:

أولاً: أن يُوَصِلوا نور البشارة للأمم المجهولة التي كانت تعيش في الظلام.

ثانياً: أن يُوجِدوا دنيا عظيمة حليفة للمؤمنين (!!) ومن خلالها يسقطون قوة المسلمين إلى الحضيض»!!

ويتحدث عن قصة المسيحيين السوريين والجزويت فيقول :

«إن قصة المسيحيين السوريين قد نقلتنا مسافة متقدمة في التاريخ. والرجوع إلى الجزويت يعيد إلى أذهاننا أعظم حادثة في تاريخ الإرساليات للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، أعني تأسيس جماعة الجزويت. ففي ١٥ أغسطس

سنة ١٥٣٤م جمع القديس «أغناطيوس ليولا» حوله في باريس مجموعة صغيرة من ستة أصدقاء كونوا نواة لميليشيا المسيح الجديدة (New militia of christ).. كانوا محكومين بالطاعة الصارمة وكانوا خاضعين تماماً للبابا .. وفي أوروبا امتد نفوذ الجزويت من خلال اقترابهم الناجح من الحكام والطبقات الأرستقراطية».

ويتحدث عن نشاط الجزويت التبشيري في الهند واليابان. ويتحدث عن صلة الإرساليات بالإمبراطور «أكبر» الذي حكم في الهند من (١٥٥٦-١٦٠٥م) ومحاولة تنصيره، لكنه رفض وابتكر ديانة تتضمن محاسن كل الديانات أسماها «دين الله» ويقول نيل عن هذه الديانة :

«كانت ديانة توحيد، وقرابين النار مستعارة من الهندوسية، وعبادة النار من الزرادشتية، والسجود من الإسلام، والتعميد من المسيحية»!!

ويثني عليها بقوله :

«كانت هذه العقيدة في الحقيقة توفيقية بدرجة عالية كما كانت أرستقراطية كذلك»!!

(إذا لم يكن هناك تنصير فليقبل القسس المبشرون أي شيء .. المهم الابتعاد عن الإسلام)!!

ويقول «نيل» بأن السنوات الافتتاحية للقرن السابع عشر تميزت بواحدة من أعظم الرحلات الإرسالية بطولة ومخاطرة، ويذكر هذه القصة :

«في ٢٩ أكتوبر ١٦٠٢ «شرع بينيديكت دي جوز «Benedict de Goes» في زي تنكري يبحث عن مملكة بريسترجون المسيحية العظمى . ورحل عبر آسيا الوسطى حتى وصل الصين، وفي «سوتشو» تحددت إقامته في الحي الإسلامي. وكتب في عيد الفصح عام ١٦٠٦ للإرسالية في بكين يقول :

«أنا عضو في الجمعية (جمعية يسوع) أرسلني رؤسائي لأكتشف المملكة

المسيحية العظمى لـ «بريستون جون» لكن هذا القطر لا يوجد. لقد اجتزت آسيا ولم أجدها .. لم أجد مسيحيين على الإطلاق بالرغم من حكايات كثير من المسلمين .. أرجوكم أيها الآباء أو أي مسيحيين برتغاليين في بكين أن تساعدوني لأن أهرب من أيدي الكفار»!!

ويواصل «استفيان نيل» حديثه عن الجزويت ونشاطهم في الفلبين :

«أصبحت الفلبين مجالاً للإرساليات. وفي عام ١٥٧٩ أنشأ البابا أسقفية في مانيلا رفعت في ١٥٩٥ إلى أبروشية. وأصبح من السهل بعد ذلك أن تصير الجزر تابعة للنفوذ الأسباني .. وكانت طريقة الإرساليات خلق قرى مسيحية قوية فيها الكنيسة والمدرسة والمستشفى والملجأ. وكلها تلعب دورها. وأنشأ الجزويت المدارس في عام ١٦٦١. وأسس الدومينيكان في عام ١٦١١ كلية مانيلا التي أصبحت جامعة فيما بعد. أما القبائل التي تقطن الجبال البعيدة، والمورو المسلمون الخشنون فلم يقترب منهم أحد»..

وفي فصل «الإرساليات الرومانية الكاثوليكية ١٦٠٠-١٧٨٧ - The Roman Catholic Missions, 1600-1687»، يذكر أن القرن السابع عشر كان مثل السادس عشر عصر المشروعات العظيمة الملحوظة. وقد لعب الجزويت بمساعدة ملوك أسبانيا والبرتغال والبابا والفرنسيين دوراً قيادياً مع الفرنسيسكان والدومينيكان. وتحدث عن رحلاتهم في الصين واليابان والهند وإفريقيا وأمريكا الجنوبية وجنوب آسيا .. ولا محاولات في تبشير المسلمين.

وفي فصل «بدايات جديدة في الشرق والغرب - New Beginings in East and West, 1600-1800»، يتحدث عن سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك، وتبني الروس عملية الدفاع عن المسيحية الشرقية واعتبار موسكو روما الثالثة. ويتحدث عن إرساليات التبشير في بلاد التتار وسيبيريا. ويعترف بأن المسلمين التتار، قد قاوموا الضغط والتهديد والتبشير فقامت الثورات التتارية ضد التنصير مما جعل الحكومة والكنيسة تفكران في نقل هؤلاء التتار الزائدي

الحماسي(Over-Zealos) إلى مناطق روسية صرفة (ص٢١٦-٢١٧).

ويتحدث عن إرساليات البروتستانت ودورها في عمليات التبشير في بقع لم يصلها الرسل من قبل!! وبعد ترجمة القرآن رغب لوثر:

«أن تعلم المسيحية كم هو كتاب مخجل وملعون ويائس»!! (ص٢٢٢).

وذكر: «أن مجموعة كان رئيسها النبيل الألماني «هانز أنجناد Hans Ungnad» أرادت أن تدخل عالم الإسلام بعد نشر مبادئ الإصلاح. ولم يصلوا إلى حد إرسال كتب مسيحية باللغة التركية، لكنهم عاشوا على أمل أنه يوماً ما سيكون من الممكن جذب الأتراك إلى العقيدة المسيحية .. لكن المحاولات فشلت وخيب الأتراك أملهم عندما أصبحوا طليعة المد الإسلامي الأكثر تهديداً والأشد خطراً بدلاً من أن يصبحوا حلفاء الغرب المسيحي» (ص٢٢٣).

وفي فصل «قوى جديدة في أوروبا وأمريكا ١٧٩٢ - ١٨٥٨ New Forces in Europe and America, 1792-1858» يصف دور الإرساليات الأنجليكانية والبروتستانتية الإنجليزية والأمريكية بمختلف أنواعها في التبشير «بكلمة الرب وإيصالها إلى جميع بقاع الأرض» ويتحدث عن التركيز على الهند والصين واليابان وجنوب آسيا وجنوب الباسفيك وإفريقيا.

وعن العالم الإسلامي يقول :

«إنه من المدهش أنه منذ هذه الفترة فإن القليل يمكن تسجيله عن النشاط المسيحي في الشرقين الأدنى والأوسط» (ص٣٠٢).

ويذكر أن بريطانيا قد أرسلت الهيئة التبشيرية المسماة «الجمعية المسيحية التبشيرية. C.M.S» إلى مصر لتتعاون مع الكنيسة القبطية وتساعدها لتكييف حياتها مع متطلبات الحياة الحديثة. لكن هذا العمل أصبح بلا ثمرة فانسحبت البعثة في عام ١٨٦٢. أما «الأمريكان البريسبيتيريان المتحدون The United Presbyterians of the U.S.A» فقد جاءوا إلى مصر في عام ١٨٥٤ وبدأوا في جذب بعض الأقباط المتنورين!! (ص٣٠٣).

وفي سوريا ولبنان كان الطلائع هما الهيئة الأمريكية التي تبعها الأمريكان البريسبيتيريان. وقد وصل مبشرو الهيئة الأمريكية إلى بيروت في عام ١٨٢٣. وقد تم إنجاز عمل ملحوظ في مجالين : ترجم الإنجيل إلى اللغة العربية الحديثة، وبدأت الكلية السورية البروتستانتية في جذب التلاميذ من عدد من الأقطار، وقُدِّرَ لها أن تنمو لتصبح الجامعة الأمريكية الشهيرة في بيروت عام ١٩٢٠. (ص٣٠٣).

وفي فصل «ذروة الاستعمار ١٨٥٨-١٩١٤ The Heyday of Colonialism, 1858-1914» يقول :

«في الفصل الأسبق رأينا أن هناك القليل في الشرقين الأوسط والأدنى يمكن تسجيله. وفي الحقيقة أن الأراضي الإسلامية قد قصد إهمالها من الإرساليات المسيحية بالمقارنة بالحقول الأكثر إنتاجاً. لكن النصف الثاني من القرن التاسع عشر تميز ببداية المواجهة الحقيقية بين عقيدة يسوع المسيح وعقيدة محمد.

لقد عاشت الأقطار المسيحية طوال أربعة قرون في جهل ملحوظ عن حقائق العقيدة الإسلامية. لكن ذلك الجهل قد تبدد بواسطة أحد العلماء. إن واحداً من الأعمال الأولى في المعرفة المسيحية كان «ميزان الحق» لمؤلفه «س.ج. فاندر C.G.Pfander» الذي تم في عام ١٨٢٩.

وكان مؤلفه مبشراً من إرسالية «بازل» في فارس والدول المجاورة. وكان هذا عملاً في المناظرة المسيحية. ومن أجل الثقافة النقية!! كان ينبغي العودة إلى حياة محمد على ضوء المصادر الأصيلة للمسيحي الورع(!!) السير «وليام موير Sir William Muir» الذي خدم الحكومة في الهند عدة سنوات وكان الحاكم العسكري للبنجاب .

وكانت إحدى الخدمات التي أداها «موير» اكتشاف «دفاع الكندي» دفاع عن العقيدة المسيحية كتب في بغداد في القرن التاسع بواسطة مثقف عربي(!!). وبهذه وبمساعدات مماثلة تعلم المبشرون أن يقتربوا من المسلم بروح أوسع أفقاً

وأكثر تسامحاً، ويفهم داخلي لعقيدته كانت تنقص الأجيال السابقة».. (هكذا)!! (ص٣٦٦-٣٦٧).

ويتحدث عن مصر:

«لقد أصبحت مصر تحت السيطرة البريطانية في عام ١٨٨٢، ومن ذلك الوقت فصاعداً استؤنف العمل الأنجليكاني. وكانت مستشفى الجمعية المسيحية التبشيرية في القاهرة القديمة مركزاً للعمل التبشيري والطبي أيضاً. وكانت مصر من أوائل الأقطار التي شعرت بنفوذ الروح الجديدة التي دخلت جامعات الغرب والتي أنتجت تكوين حركات الطلاب المسيحية واتحاد الطلاب الإرساليين المتطوعين واتحاد الطلاب المسيحيين العالمي» (ص٣٦٨).

ويتحدث عن قادة الحركة التبشيرية البريطانية مثل «دوجلاس ثورنتون Douglas Thornton» وخليفته «و.هـ. تمبل جايردنر W.H.Temple Gairdner»، وعملهما المخلص بين المسلمين لتوصيل كلمة الرب !!

ثم يعرج إلى شمال إفريقيا المسلمة فيقول :

«إن الإرسالية الوحيدة التي تعمل في الأقطار الأربعة «مراكش وتونس والجزائر وليبيا» هي الإرسالية الطائفية لشمال إفريقيا التي تأسست في عام ١٨٨٢ وقد استمرت تعمل طيلة ثمانين عاماً مهتمة بالغرس أكثر من الحصاد» (ص٣٦٩).

ويدخل إلى وسط إفريقيا ليتحدث عن العمل وسط القبائل الوثنية واستمالة رؤساء القبائل فيقول :

«لقد كانت هناك دوافع كثيرة شجعت الرؤساء لأن يسمحوا بوجود الإرساليات بين شعوبهم. فبعضهم كان ذكياً لدرجة تجعله يدرك أن الرجل الأبيض قد يكون نافعاً كحارس ضد تهديد إخوانه المواطنين، والآخرون اعتبروه (الرجل الأبيض) بقرة حلوباً ينتزعون منها الهدايا والإتاوات اللانهائية»!! (ص٣٧٣).

ويذكر قصة طريفة عن أحد شيوخ القبائل واسمه «موشيش Moshesh» والذي تعامل مع الإرساليات لمدة ست وثلاثين وعاماً واستعان بهم ضد قبائل البوير وماطل في قبول البشارة!! (أي لم يتنصر) وبعد معاهدة الصلح مع بريطانيا عام ١٨٦٨ وكانت بلاده قد ضمت إلى الإمبراطورية البريطانية عام ١٨٦٥- وجد المبشرون أنه أصبح مفتوحاً أكثر لقبول الرسالة المسيحية. وعند ترتيب إجراءات تعميده مات قبل أن يتنصر!! ولما سمع المبشر «ي.و. سميث E.W.Smith» بالواقعة صرخ قائلاً: كما لو أن الشمس قد محيت من السماء(!!).

(ملحوظة: إيلي سميث هذا الذي جن جنونه وقال هذه العبارة عندما مات أحد «الزبائن» بدون تنصير ولا تعميد، بعد ما يقرب من أربعين عاماً من الضحك على المبشرين .. إيلي سميث هذا هو الذي قال عنه محمد رفعت وجلال يحيى والحصري ومن على شاكلتهم : إنه جاء لكشف الكنوز العربية وإحياء اللغة العربية .. وخلق جيل عربي يعتز بتراث آبائه الأولين)..

* * *

ونترك كتاب القسيس المبشر «استفيان نيل» ونرجو أن تكون جولتنا في بعض أحراشه قد أعطتنا فكرة عن رسالة المبشرين الذين أراد صبيتهم من كتبة النبتة الخبيثة تلويث مهمتهم والافتراء عليهم، ونستفتي عملاً تبشيرياً آخر عله - مع ما سبق - يخزي عيون الصبية - وإن كانت العيون الفارغة لا يلمؤها إلا التراب !!

من وثائق مؤتمر التبشير الدولي الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق من هذا الكتاب ننقل من المجلد العاشر المعنون :

«مؤتمر التبشير الدولي - الإرساليات والحكومات - أدنبرة ١٩١٠»

«تغييرات في طبيعة المسألة التبشيرية»

«٢- في الأراضي المحمدية - اجتماع عقد في القاهرة مساء السبت

١٨ يونية سنة ١٩١٠) يقول «و.هـ.ت جايردنر» :

«إن مشكلة الإسلام مسألة لا يمكن أن نتغافلها ببساطة .. أولاً: لأن الإسلام على أبوابنا فمن أقصى الساحل الشمالي الإفريقي يواجه أوروبا، إنه فعلاً يلمسها ويمكن القول إنه يمسكها عملياً من طرفي البحر المتوسط عند أعمدة هرقل وعند القسطنطينية.

وثانياً: لأنه مشكلة أساسية مركزية. فكروا في تلك الكتلة المركزية الهائلة لعالم الإسلام الصلب من شمال إفريقيا إلى غرب وسط آسيا .. إنه كإسفين ثابت يحجب الغرب المسيحي عن الشرق الوثني .. وأريدكم أن تدركوا أيها الآباء والإخوة أنه حتى لو حلت مشاكلنا مع يابانيينا وكوريينا وصينيينا ومنشوريينا وهنودنا!! ولو واجهنا أزماتهم الحالية في سعادة وتغلبنا عليها وأضفنا شرق أقصى مسيحي إلى الكنيسة، فإن ذلك الوتد (الخازوق)- أي الإسلام - الغريب عنا والمعادي لنا الغير منسجم أو متعاطف، سيقطع العالم النصراني الشرق والغربي كلية إلى نصفين فاصلاً الإثنين، عازلهما عن بعضهما، مظهراً للرب وللإنسان ليس فتقاً فحسب، بل صدعاً من القمة إلى القاع في ثوب الكنيسة العظيم .. بل في ثوب الإنسانية ككل، التي لولا الإسلام لانتصر المسيح عليها .. فحقاً - لذلك يجب ألا نؤجل مشكلة الإسلام .. إنها مشكلة اليوم كما رأينا .. فليكن اليوم - على هذا - هو يوم الحل والخلاص»!! (ص٢٥٣).

ويقول «جايردنر» عن العمل التبشيري في سوريا وفلسطين :

«إن النشاط الإنجيلي المباشر وسط المسلمين، الذي ظل يعمل سراً لعشرات السنين في سوريا وفلسطين لهو أكثر إمكانية اليوم منه في أي وقت مضى. سواء أكان ذلك عن طريق الزيارات، أو النقاش، أو إنتاج وتوزيع الأدبيات المسيحية، أو توزيع الإنجيل أو الإرساليات الطبية أو مدارس الأولاد والبنات» . (ص٢٥٥) .

* * *

هؤلاء هم المبشرون .. جاءوا إلى بلادنا في هجمة صليبية ثانية أعظم خطراً وأشد فتكاً من الصليبية الرسمية الأولى.

هذه هي رسالة التنصير في عريها الصريح، لا يسترها حتى ورق التوت، وخباؤها أوهى من بيت العنكبوت !!

ونعود الآن إلى النبتة الخبيثة وقد أثمرت مجموعة من التشكيلات المتآمرة ..

أسس العروبيون المقيمون في الآستانة جمعية أطلقوا عليها اسم «جمعية الإخاء العربي العثماني» في سبتمبر عام ١٩٠٨ على أمل التعاون مع «جمعية الاتحاد والترقي»، وأصبح من العسير التقاء الفكرة القومية التورانية مع الفكرة القومية العربية. واختلف الضباط العروبيون في الجيش العثماني مع زملائهم ضباط الانقلاب العثماني الأتراك، فأسس الأولون شيئاً أطلقوا عليه «المنتدى الأدبي» ضموا إليهم بعض المدنيين في عام ١٩٠٩، وفي سنة ١٩١٢ تأسس في القاهرة «حزب اللامركزية الإدارية العثماني» وله فروع في سوريا والعراق. وتأسست في بيروت «الجمعية الإصلاحية». وتأسست جمعية سرية سميت «الجمعية القحطانية» وكانت ترى أن يضع السلطان العثماني على رأسه تاجاً مزدوجاً، نصفه يمثل العرب والنصف الآخر يمثل الأتراك !!

ولما توقف نشاط هذه الجمعية القحطانية أسس عزيز المصري «جمعية العهد» من الضباط العراقيين العروبيين ومن ضمنهم نورى السعيد عميل الإنجليز الأسبق، وكان لها فرعان أحدهما في بغداد والآخر في الموصل. وصار لها فرع في دمشق في عام ١٩١٥ - أما «الجمعية العربية الفتاة» فقد تأسست في باريس في عام ١٩١٢ من سبعة طلاب وعقدت مؤتمراً لها في باريس أيضاً في عام ١٩١٣ حضره أربعة وعشرون مندوباً يمثلون البلاد العربية منهم أحد عشر مسيحياً !!

ولا يغرنك كثرة هذه الأسماء أو التشكيلات فتظن أنها كانت تمثل الرأي العام العربي أو أنها استطاعت أن تجمع من حولها عدداً ذا وزن كمي أو كيفي له تأثير في كثافة أو عقل أو وجدان الجماهير العربية .. المسلمة بالطبع !!

عدد لا يتعدى مائة شخص على أحسن الفروض، يضاف إليه بعض قيادات النشاط الطائفي النصراني العاملون سراً في جبل لبنان.

ويعترف محمد رفعت - على الرغم منه - بهذه الحقيقة فيقول، وهو يصور موقف هؤلاء الخوارج (العرب)!! في مواجهة الجماهير العربية المسلمة :

«وكان العرب قد أفادوا من تمرسهم بالسياسة في السنين الأخيرة ووقفوا على كثير مما كمن من أسرارها. فقرروا بصفة عامة ألا يواجهوا الرأي العام العربي بإعلان خروجهم على دولة الخلافة الإسلامية ، وعلى ذلك حددوا مطالبهم بالاستقلال الذاتي أو الداخلي، مكتفين بمساواتهم بالأتراك في الحقوق العامة وبقائهم تحت راية الخلافة الإسلامية. فقد كانوا يعلمون حق العلم أن العالم العربي لم يكن ليرضى أن يخرج مسلم عن دولة الخلافة، وأن الذين يحاولون ذلك لا بد أن يبوءوا بالخسران، وقد يدمغهم الناس بميسم الزيغ والكفران»!!

(محمد رفعت - التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة - دار المعارف - ص٩٨).

أما الدكتور جلال يحيى فيتحدث عن عمالة النخبة من الضباط العرب للإنجليز واعتبار عروبتهم خروجاً عن الإسلام، فيقول :

«إن النخبة من الضباط العرب في الجيش التركي، كان عليهم أن يختاروا بين عروبتهم وإسلامهم، بين خدمة السلطان خليفة المسلمين أو التعاون مع الإنجليز ضده». (د. جلال يحيى - الثورة العربية - دار المعرفة - ص١٢).

هكذا!!

إما العروبة وإما الإسلام !!

إما الولاء للسلطان الخليفة أو التعاون مع الإنجليز ضده!!

وكأن اختيار العروبة يعني موالاة الإنجليز والانسلاخ عن الإسلام!!

طريقان لا ثالث لهما.. إن كنت عربياً فلا بد من رفض الإسلام!!

وإن لم توالي السلطان الخليفة فلابد أن تمالئ الإنجليز ضده!! (لاحظ تعبير مع السلطان الخليفة «خدمة» وأما مع الإنجليز تعاون) !!

وهكذا يخدم الدكاترة المؤرخون قضايا أمتهم، ويصورون عروبيتهم - عروبيتهم هم بالطبع – وهي تتمرغ في هذا المرتكس الوبيء!!

ومن قبل جلال يحيى، في النص الأسبق، حدّد لنا وزير المعارف الأسبق «محمد رفعت»، من هم العرب الذين خافوا ألا يواجهوا الرأي العام العربي وإن كان قد أبهم اللفظ في كلمة «العرب»، إما جهلاً باستخدام لغة العرب أو خجلاً من ذكر هؤلاء العرب، في مقولته : «وكان العرب .. فقرروا ألا يواجهو الرأي العام العربي» !!

وجاء اليوم والدور !!

أعلنت الحرب العالمية الأولى في أغسطس عام ١٩١٤ بين ألمانيا والنمسا في جانب وبريطانيا وفرنسا وبقية الحلفاء على الجانب الآخر. ودخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا في أكتوبر من نفس العام.

ومن قبل ذلك اتصل الحسين بن علي بالحكومة البريطانية منذ شهر فبراير، أي قبل إعلان الحرب من جانب تركيا بحوالي تسعة شهور .. اتصل من خلال كتشنر ورونالد ستورز والجنرال ماكسويل تايلور. وكان ابنه عبد الله ممثل مكة المكرمة في مجلس المبعوثان العثماني يعرج إلى القاهرة للتآمر مع المستشار الشرقي في دار المندوب السامي البريطاني قبل سفره إلى الآستانة !!

واتصل ستورز السكرتير الشرقي للجنرال كتشنر قائد جيش الاحتلال في مصر وجلبرد كلايتون بعزيز المصري لدراسة إمكانية القيام بثورة عربية تقف إلى جانب بريطانيا ضد الدولة العثمانية !!

وفي يناير ١٩١٥ اجتمع فيصل بن حسين في دمشق – وهو في طريقه إلى الآستانة كرحلة تغطية– بجمعيتي «العربية الفتاة» و «العهد» ليجد أنهما قد

أعدا ميثاقاً قومياً!! للقيام بثورة عربية لصالح بريطانيا ضد الدولة العثمانية على أن تعترف بريطانيا بعد الحرب باستقلال ما يسمى الدولة العربية!!

ويقول جلال يحيى : «إن نشاط الفرنسيين كان واضحاً مع الرومانيين والملكانيين في الشام- قبل الحرب مباشرة- وكذلك كان نشاط الإنجليز مع الدروزر ونشاط الروس مع الأرثوذكسيين» !!

وتبادل الشريف حسين مذكرات مع السير هنري مكماهون - المندوب السامي البريطاني في مصر - منذ يوليو عام ١٩١٥. وقد وافق حسين على إبعاد بعض المناطق العربية من الدولة العربية المزمع إنشاؤها .. وهي المناطق التي كانت فرنسا تضع عينيها عليها. وشكر مكماهون الشريف حسين على رغبته في تحاشي خلق سوء تفاهم بين فرنسا وانجلترا!!

أنشأت بريطانيا مكتباً في القاهرة لتنظيم جهود هذه الثورة العربية!! تحت إشراف السير هنري مكماهون، والسير رجنالد ونجت - سردار الجيش المصري وحاكم عام السودان !!

وهزمت بريطانيا في الدردنيل والعراق من العربالمجاهدين مع إخوانهم الأتراك - وهم غير عرب المؤامرة بالطبع.

وفور إعلان الجهاد الذي أصدره خليفة المسلمين من الآستانة تنادت الأمة المسلمة كلها في غيرة إسلامية طبيعية إلى الوقوف وقفة رجل واحد مع دولة الخلافة الإسلامية ولبت النداء .. من ليبيا إلى الهند.. ومن شمال العراق إلى جنوب السودان .. إلى اليمن .. إلى الصومال..

جاوبت داعي الجهاد رغم جيوش الاحتلال البريطاني والإيطالي التي كانت تحتل ديارها .. ورغم تضليل ڤيروسات الخيانة .. ورغم أن الحاكمين في استانبول كانوا في غالبيتهم من الدونمة والماسون .

كانت الجماهير العربية المسلمة تُفَرِّق بين مقاومة الاعوجاج داخل دولتها

الواحدة .. وبين العمالة للغازي الدخيل .

كانت تدرك أن هناك مواقف في حياة الأمم ينبغي أن يتجمع فيها الكل حول الراية الواحدة التي تربط العقد الجامع .. وكان إسلامهم يفرض عليهم أن يقاتلوا تحت راية الخلافة الإسلامية .

وقد وضحنا ذلك في فصل الاستعمار التركي!! في هذا الكتاب .

حاول جمال باشا بالجيش الرابع في الشام إخراج الإنجليز من مصر وقد انضم رجال خفر السواحل المصريون مع غيرهم من المتطوعين الليبيين والمصريين إلى إخوانهم الأتراك، وطلب من الشريف حسين إعداد المجندين العرب لجيش التحرير الذي سيحرر مصر من الاستعمار البريطاني، وتظاهر الشريف حسين بالطاعة وأرسل ابنه فيصل إلى سوريا لإتمام الاستعدادات!! لكنه أرسل في نفس الوقت ابنه علي إلى المدينة المنورة لمراقبة الوالي التركي المقيم فيها وللاتصال بشيوخ العرب والبدء في هذه المنطقة. أما عبد الله ابنه فقد بقي إلى جوار والده لإتمام المؤامرة !! كما يقول جلال يحيى .. أيضاً !!

وجاء لورانس عميل المخابرات البريطانية ليشارك في الثورة العربية مع الشريف حسين !!

استولى جمال باشا والي سوريا على وثائق القنصلية الفرنسية في الشام وفيها ملفات اتصال الوطنيين بالفرنسيين وعمالتهم للحلفاء!!

وتشكلت محكمة في «عالية» لمحاكمة هؤلاء الخونة وأصدرت المحكمة حكمها بإعدام ثلاثة عشر عميلاً نُفذَ الحكم في أحد عشر منهم.

ويصف ساطع الحصري التكليفات الخيانية التي كان يقوم بها أبطال الثورة العربية فيقول :

«إن أهم الوثائق التي استند إليها ديوان الحرب العرفي في أحكامه كانت الأوراق التي عُثِرَ عليها في دار القنصلية الفرنسية في بيروت وكانت تحتوي على صور المخابرات التي جرت بين السفارة الفرنسية في الآستانة حول سياسة

فرنسا في سوريا- بلاغات واردة من وزارة الخارجية الفرنسية وتقارير مقدمة إليها عن صور المحادثات التي جرت في السفارة أو القنصلية مع بعض رجال السياسة - تعليمات توجيهية تبين الخطط الأساسية التي يجب اتباعها عند مقابلة الأهلين والمواطنين، وكانت إحدى الوثائق تلخص الحديث الذي جرى بين الكبير الفرنسي وبين «شفيق المؤيد» وكان هذا الحديث مما يدين الرجل إدانة خطيرة واستند ديوان الحرب العرفي في حكمه على الرجل- بحق- على هذه الوثيقة». (الحصري - محاضرات في نشوء الفكرة القومية - دار العلم للملايين بيروت - ص٢٣٢-٢٣٣).

احتراف في الإجرام والعمالة والسفالة .. لا أجد تعبيراً مناسباً !!

ويشهد عروبي آخر، هو محمود كامل :

«وكان جمال باشا قد استطاع أن يعثر على وثائق قنصلية فرنسية استدل منها على تآمر شخصيات سورية وفلسطينية عديدة على حكومته التركية وهي الوثائق التي لم يستطع «بيكو» القنصل الفرنسي العام أن يتلفها بلا تركها في عهدة القنصل الأمريكي فوقعت في أيدي الأتراك» (محمود كامل - عروبتنا - اقرأ - دار المعارف - ص١٣٢).

وأيضاً .. جلال يحيي :

«وصل جمال باشا إلى سوريا بعد أن هاجم رجال السلطات العثمانية القنصليات الفرنسية في بيروت ودمشق واستولوا على أوراق تدين عدداً من زعماء العرب بالتعاون مع الأعداء أو بما لا يختلف كثيراً عن الخيانة. ولكنه حفظ هذه الأوراق وأبلغ الشريف حسين بمحتوياتها وأخذ يستعد للمهمة التي جاء من أجلها وهي كسب العرب إلى جانب تركيا في الحرب ومحاولة الحصول على تأييد المسلمين ومشاركتهم في الجهاد. وتشهد خطاباته وخطابات أنور للشريف حسين بطول صبرهما ومحاولتهما جمع الشمل والوصول إلى الهدف المشترك».

(د. جلال يحيى - الثورة العربية - دار المعرفة - ص١٤٠).

لكن الشريف حسين لم يكن يهمه خيانة شركائه في الثورة العربية .. كان يهمه الأموال التي سيقبضها من الإنجليز، وصنعه خليفة أو ملكاً على العرب بمباركة علم الصليب البريطاني وفي ظلاله !!

أعلن الشريف حسين في يوم ١٠ يونية ١٩١٦ من مكة المكرمة ما سمي بالثورة العربية. وأطلق رصاصة يتيمة من بندقيته الميزر من فوق سطح الإمارة (تشغلها الآن - والحمد لله - رابطة العالم الإسلامي) ولم يكن في العاصمة المقدسة إلا عدد قليل من الجنود الأتراك، لأنهم كانوا وسط أهلهم المسلمين - كما قدروا - فلم يكونوا في حاجة إلى المزيد. وهاجم أُجراء الثورة العربية جنود الحامية التركية وأخذوهم على غِرة، إلى أن تأتي الطائرات البريطانية وتضرب جدة بالقنابل !!

وتولت الشراذم المُستأجرة تحت قيادة العميل البريطاني لورانس بعد ذلك شغل القوات التركية انتظاراً لمجيء قوات الحلفاء إلى سوريا وفلسطين .. شغلتهم في المدينة المنورة ومعان .. شغلتهم في طريق الحجاز - الشام ، شمال المدينة عن القيام بحركة التفاف وهجوم على القوات الإنجليزية من الخلف، وقطع خطوط رجعتهم إلى مصر.

وهكذا أصبح الطابور الخامس الذي يقوده فيصل بن حسين ورجل المخابرات البريطاني لورانس، ميمنة للقوات البريطانية التي جاءت من مصر لاحتلال فلسطين !!

وليس هذا فحسب، بل قام هذا الطابور الخامس بشغل القوات العثمانية في الشمال لتصفية الجو أمام قوات اللورد اللنبي من الجنوب. وتمكن اللنبي من الاستيلاء على غزة والخليل ويافا ثم دخل القدس في يوم ٩ ديسمبر ١٩١٧، ودخلت القوات البريطانية دمشق يرافقها الشريف ناصر!!

ويقول د. جلال يحيى بلا حياء أو خجل :

«وبعد يومين حضر كل من اللنبي وفيصل الذي دخل عاصمة الأمويين فارساً

معلناً نهاية أربعة قرون من الحكم التركي العثماني، كان يوماً مشهوداً في تاريخ سوريا تأججت فيه العواطف وساد الفرح لمجيء العرب» (ص١٩٦).
دخلت القوات الإنجليزية إلى دمشق لتنتظر شريكتها القوات الفرنسية!! ذلك أنه قد عقد بين انجلترا وفرنسا وروسيا في عام ١٩١٦ إتفاقية عرفت باسم اتفاقية سايكس - بيكو . اختصت فرنسا بموجبها بسوريا ولبنان وجزءاً من الأناضول ومنطقة الموصل. أما انجلترا فكان نصيبها الأردن والعراق وحيفا وعكا. ولروسيا المضايق التركية والآستانة !!

ومن الغريب أنه عندما قامت الثوة الشيوعية في أكتوبر عام ١٩١٧ ونشرت وثائق الحكومة القيصرية، ومن ضمنها هذا الاتفاق، أطلع جمال باشا الشريف حسين عليه .. أطلعه وأبناءه وبطانته على الخطة الصليبية لتقسيم العالم الإسلامي، «وذكرهم أن واجبهم كمسلمين مخلصين هو بذل مجهودهم بل وأرواحهم في سبيل عزة الإسلام .. وأن الحلفاء قد غرروا وأن الاستمرار في الإخلاص لهم لن يؤدي إلا إلى استعباد الشعوب العربية» (جلال يحيى - الثورة العربية - ص٢٠٨). لكن الشريف رفض التحدث إلى الأعداء الأتراك!!

وهكذا كانت وظيفة الطابور الخامس هو شغل الأتراك - كوظيفة النساء العاهرات في معارك الرجال . فلقد اضطر الجيش التركي في طريق «الحجاز - الشام» إلى بذل نصف مجهوده في الحرب للتصدي للعملاء، والنصف الآخر لمواجهة القوات البريطانية، التي في نفس الوقت حماها هذا الطابور من الجانب الآخر من أي هجوم تركي عليها!!

ولم يطب العيش لفيصل في دمشق إذ جاءته القوات الفرنسية وطلبت منه ترك البلاد فنفذ على الفور ورحل من حيفا إلى إيطاليا. وراح الثائر العربي يتسكع على ضفاف بحيرة ماجودي!! في برود الأجراء!!

ولقد صكت أذنيه وآذان أبيه وإخوته وبطانتهم من قبل تصريح «بلفور» وزير خارجية بريطانيا بإنشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين، وإعلان «اللنبي»

غداة دخوله القدس بأن الحروب الصليبية قد انتهت اليوم، وتهليل القائد الفرنسي غورو في دمشق وهو يركل بقدمه مثوى هازم الصليبيين: «ها قد عدنا يا صلاح الدين» !!

فلم تتحرك ثوريتهم حد العتاب - حتى من وجهة قومية بحتة!!. بل اعتبروا ذلك من باب مداعبات الأصدقاء!!

هذه هي العروبية - إياها- نتانة المولد وعفونة النهاية !!

وتفوح عفونة النهاية من الأب الأكبر الذي قام بالدور الأكبر في تحريك هذه العروبية وإخراجها من خبائها أو وكرها الذي استنبتها وأرضعها واحتضنها ولقنها فيه كل الآباء من قبل !!

فقد أذيعت أخيراً الوثائق السرية لوزارة الخزانة البريطانية تهتك الستر عن المبالغ السرية التي دُفعت لقادة الثورة العربية. كانت المبالغ يتم دفعها بأوامر من «تشرشل» وزير المستعمرات في ذلك الوقت شخصياً .. وكان الجاسوس البريطاني لورانس - صاحب العقال العربي المشهور - يتولى توزيع هذه الرشاوي. وتتحدث الوثائق عن خطاب سري من الفيلد مارشال «اللنبي» إلى وزير خارجية بريطانيا في سنة ١٩٢٠ «لورد كيرزون» يقول فيه:« إن هناك محاولة لتوحيد الدول الإسلامية ضد أوروبا. ويقترح كسب ودهم بالمال»!! وتحكي الوثائق قصة الرشاوي التي كانت تدفعها بريطانيا للحكام الذين ثاروا على الدولة العثمانية أثناء الحرب الأولى. فتقول: إن الشريف حسين تقاضى مبلغ ١٨٫٠٠٠ جنيه إسترليني. وأن معظم الرشاوي البريطانية أنفقت على الأمير فيصل، ابن الشريف حسين، لمساعدته على اعتلاء الحكم في العراق، وهناك مبالغ أخرى قُدِّمت إلى عبد الله بن حسين، لمساعدته على اعتلاء عرش الأردن.

وفي مارس ١٩٢١ حضر «تشرشل» مؤتمراً في القاهرة عن مستقبل الشرق الأوسط، وكان يرافقه «ت. لورانس». وبعد هذا المؤتمر قدم لورانس باسم وزارة

المستعمرات رشاوي كبيرة لفيصل وعبد الله من وراء ظهر والدهما الشريف حسين.. الخ. (أخبار اليوم - العدد ١٨٤١ - ٢٩ من ربيع الأول ١٤٠٠هـ - ١٦ من فبراير ١٩٨٠م).

ويذكر ألفريد ليننتال في كتابه «ما ثمن إسرائيل - What Price Israel» :

«أن الأمير فيصل ممثلاً عن مملكة الحجاز قد وقع اتفاقاً مع «د. وايزمان» ممثلاً عن المنظمة الصهيونية اعترف فيه بأن العرب يقبلون وعد بلفور ويسمحون بتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين» !!

* * *

وإذا كانت القوى الصليبية المسيطرة على العالم والمدعومة بالدائرة اليهودية قد تنفست الصعداء، عشية توقيع معاهدة لوزان والتزام الدمية في أنقرة بشروط «كيرزون» الأربعة، وخُنقت القوى الإسلامية داخل تركيا وشُرِّدت بقيتها .. فإنها أحست بأنها قد أراحت عالمها النصراني من حقد دفين - باق مقيم - وأزاحت كابوس الإسلام الذي جثم على صدر أوروبا ستة قرون!!

وأصبح ما تبقى من العالم الإسلامي غداة نهاية الحرب العالمية الأولى تحت السيطرة الأوروبية عارياً من كل ستار!!

الشام : سوريا، ولبنان لفرنسا، العراق وشرق الأردن لإنجلترا، وفلسطين تحت الانتداب البريطاني!!، وموعود بها وطناً قومياً لليهود!!

وكانت الدول الغربية قد انتزعت الأقاليم العربية: مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وعدن والخليج من الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر.

وحكم المستعمرون بلادنا من خلال الحاميات العسكرية ودور الحماية بأدوات محلية تُنَفِّذْ أوامر جيش الاحتلال!!

فلنتجول في بلاد الأسد الأسير، نمشي على جسر المعاناة في ديار الإسلام

المستباحة الحمي، وكل الحراب والمدافع مصوبة إلى الإسلام، حماها الوحيد، في يقظة الموتور وحراسة الغدر وتأمين العملاء!!

لنمضي في بلادنا لا يذعرنا عن هدفنا عواء البوارج الصليبية الراسية في ثغور الإسلام، ولا تفزعنا خوذات جيوش الاحتلال التي تسطع تحت سماء الشرق الجريح !!

ولننظر ونعي الصورة الأسيفة حيث يُصنع الذيليون والمطايا، في عرين أسلافنا الغر الميامين !!

ولنمسك دموعنا العزيزة ونحن نبصر الهامات السامقة تسقط عن مقاماتها العالية شهيدة أو سجينة، ليصعد عوضاً عنها نعال التبعية والاستخزاء في حماية الحبل والنطع والبارود!!

* * *

لكن الغرب يوم جاء واحتل ديارنا واجهته معادلة صعبة، شديدة التعقيد.

فهو قد جاء ليخضع ويحكم أساساً، ويهين بهذا المجيء ذاته، ومن ثم فهو مرفوض مقاوم في كل مكان.

ويعمل جاهداً على إطالة أمد بقائه بأساليب شتى.

ويعلم - بناء على مناهج بحثه - أنه مضطر لمنح الاستقلال الشكلي على المدي البعيد أو القصير!!

ويعلم أن الإسلام هو عقيدة الجموع الغفيرة ومنهاجها الفكري وميراثها الحضاري وقانونها الشرعي والأخلاقي والاجتماعي. «وأن الدين هو أشد ملامح الشرق الإسلامي أهمية لأن المنطقة إسلامية بأسرها. وأن الإسلام لم يتقدم بنظرية دينية وحسب، بل بقانون شرعي وأخلاقي وبمنهج اجتماعي وثقافي كذلك .. دين لم يعين حدوداً للمسجد والحكومة، بل وَحَّدَ التعاليم الدينية والأخلاقية والشرعية في نظام شامل في المجتمع الإسلامي. وهذا المجتمع - الأمة - كان أخوة دينية

ومؤسسة سياسية ونظاماً اجتماعياً في الوقت نفسه. وقد نظم القانون الديني (الشريعة) كل مظاهر الحياة الاجتماعية. أما القرآن - وهو الكتاب المقدس فقد حوى الحياة كلها، بقضها وقضيضها وليس حسب شريحة واحدة هي التدين أو الروحانية..

«وعلاوة على دعاواه (أي الإسلام) المتسعة وسيطرته على الجموع فإن تراثه يبقى وحده بحيث يتوجب علينا أن نوليه الاعتبار من نواحي كثيرة».

كما نصحه المستشرقون والمبشرون في بيان واضح على غير ما يفعل صبيته ووكلاؤه في بلادنا (مورو بيرجر - العالم العربي اليوم - ترجمة محيي الدين محمد - ص٢٦).

ويعلم المستعمر أيضاً أن القواعد الحربية لجيش الاحتلال ظاهرة للعيان فلا يخطئ المجاهدون مقاومتها ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .. أما قواعده الثقافية والفكرية فهي لأناس من بني جلدتنا يمشون بيننا بأسماء إسلامية وشارات إسلامية .. لكنهم مغربون عقلاً وضميراً، مشاعر وذوقاً، ويشكلون الطابور الخامس لإنجاز مهمات الردة، ومن أبرزها تخريج المطايا والذيليين والأصفار!!

ويعلم أيضاً أن الجماهير المسلمة رافضة لثورة «لورانس» ونتائجها، وتعاف أن يكون البديل عن الدولة العثمانية أعلام بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، وأن يحل ملك النصارى في مكان خليفة المسلمين!!

ويعي تماماً صرخة آبائه الروحيين في مؤتمر التبشير الدولي:

«إن مشكلة الإسلام مسألة لا يمكن أن نتغافلها ببساطة .. أولاً: لأن الإسلام على أبوابنا فمن أقصى الساحل الشمالي الإفريقي يواجه أوروبا إنه فعلا يلمسها، ويمكن القول إنه يمسكها عملياً من طرفي البحر المتوسط عند أعمدة هرقل وعند القسطنطينية. وثانياً: لأنه مشكلة أساسية مركزية . فكروا في تلك الكتلة المركزية الهائلة لعالم الإسلام الصلب من شمال إفريقيا إلى غرب وسط آسيا .. إنه كإسفين ثابت يحجب الغرب المسيحيَ عن الشرق الوثني .. وأريدكم

أن تدركوا أيها الآباء والإخوة أنه حتى لو حلت مشاكلنا مع يابانيينا وكوريينا وصينيينا ومنشوريينا وهنودنا!! ولو واجهنا أزماتهم الحالية في سعادة وتغلبنا عليها وأضفنا «شرق أقصى» مسيحي إلى الكنيسة، فإن ذلك الوتد (الخازوق)- أي الإسلام - الغريب عنا والمعادي لنا الغير منسجم أو متعاطف، سيقطع العالم النصراني الشرقي والغربي كلية إلى نصفين، فاصلاً الاثنين ، عازلهما عن بعضهما، مظهراً للرب وللإنسان ليس فتقاً فحسب، بل صدعاً من القمة إلى القاع في ثوب الكنيسة العظيم .. بل في ثوب الإنسانية ككل، التي لولا الإسلام لانتصر المسيح عليها .. فحقاً - لذلك يجب ألا نؤجل مشكلة الإسلام .. إنها مشكلة اليوم كما رأينا .. فليكن اليوم - على هذا - هو يوم الحل والخلاص»!!

(من خطاب «و.هـ.ت . جايردنر - مؤتمر التنصير الدولي - اجتماع خاص عقد في القاهرة مساء السبت ١٨ يونية ١٩١٠).

كيف يحل المستعمر هذه المعادلة الصعبة!؟

كيف يتعامل مع المشكلة (الإسلام) بكل أبعادها!؟

فليس أمامه إلا التعامل مع الإسلام وأن يوليه كل اهتمام كما حذره آباؤه الروحيون، وكما نصحه مستشرقوه، وكما ترى سلطته ممثلة في قادة الجيوش والمندوبين الساميين!!

فكيف يكون التعامل؟

أهو بضرب الإسلام ذاته ومحوه!؟

لن يستطيع!!

جيوشه المهزومة في الحروب الصليبية الرسمية وغير الرسمية أكدت له استحالة الهدف وخطأ التصور!!

إذن فليجرب: «الحد من دعاواه المتسعة وسيطرته على الجموع»!!

والحد من دعاوي الإسلام المتسعة وسيطرته على الجموع لن يكون إلا بتنحيته

عن مواقع القيادة السياسية والفكرية والإعلامية والصحافية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية !!

وابتداءً يجب ترتيب الأوضاع في داخل المستعمرة أو المحمية أو المستقلة المتعاهدة !!

فلمن تُسَلَّم مفاتيح القلعة؟

لمن تكون سدة القيادة السياسية عندما يحين ميعاد التسليم بالاستقلال الشكلي؟

ليس أمامه من خيار!! يسلمها لزعامات علمانية - أي لا دينية - قد دربها أصلاً على القيام بدورها المرتقب في مواجهة المقاومة العنيدة من جانب الشعوب المسلمة للاستعمار والتبعية والتغريب ..يسلمها لتلاميذه الذين رباهم على عينه منذ كانوا ولدانا!!

فلا بأس إذن - والاستعمار واثق باحتمال الاستقلال - أن تُسَلِّم بريطانيا أو فرنسا بشيء يسمى الاستقلال، تلقيه بحساب ويلقفه منها صنائع أو مجاهدون أو ثوار لا يستطيعون أن يمدوا البصر أبعد من الموصل أو سيناء أو قرطاج!!

فما دام الغازي الغربي قد ضمن ولاء المتغربين الفكري وأنهم ليسوا ضد أوروبا عقلاً وضميراً ومشاعر، فما حاجته أن يكون حاكماً عاماً أو مندوباً سامياً يرفع علم فيكتوريا أو جورج أو إداورد أو الجمهورية الثالثة أو الرابعة أو الخامسة على المحمية أو المستعمرة !!؟ يكفيه أن يكون سفيراً صديقاً في دولة متحالفة أو مستقلة على ذوقه!!؟

إنه لمطمئن أن الصبية عندما يحين تسليم المفاتيح سيرفعون على القلعة- وكما فعلوا بها بالضبط فيما بعد - راية علمانية .. تشطر الهوية نصفين: ناسوتي ويتبع العميل، ولاهوتي وله ملكوت السماء!!

ثم يروح وسطاء الهزيمة، بدائل الغزو، بعد هذا التحديد المريب. يعمقون

الهوة بين شطري الهوية ويضعون قواعد للسلوك لكل من القسمين في فصام نكد زنيم !!

ولئن كان كبرياء المستعمر قد جعله في بعض الأحيان يتمسك بالمشروعية، فقد ترك لمخلفاته من نتانات عهود العهر أن تقوم بالدور الذي نَزَّهَ المستعمر نفسه أن يهبط إلى دركه الأثيم!!

وصُنِعَ الزعماء والقادة ونشأت الأحزاب في المنفى أو قصر الدوبارة أو في المحافل الماسونية «كوكب الشرق»، «المشرق الأعظم»، «الهلال الخصيب»، «المحفل الأكبر» ، «الشرق الكبير»، «محفل الإصلاح»، «محفل الزهرة»، «محفل الاعتدال والسلامة» ، أو سكرتارية القسم الشرقي لدور الحماية والمندوبيات السامية، أو في رحاب الكلية الإنجيلية السورية.

ومن تحت قلنسوة مبشر الجامعة الإنجليزي «كريستوفر سكيف» أو المبشر الفرنسي «لويس ماسنيون» على قرع أجراس كنيسة سان سوبليس.

ولا بأس من أن يكون هناك قتال على كرسي الحكم العميل أو المحمي أو الصديق .. الحكم المُحَدَّد الغاية المُلَقَّن الطريق .. وأن يكون هناك صراع على تمثيل الأدوار المرحلية وتنفيذ النصيب الوطني!! المتروك للأدوار المحلية من الخطة المرسومة من وراء الحدود[1] .

ولم تستطع الأنظمة الليبرالية في الشرق الإسلامي أن تضبط حركة الجماهير. وشاخت بريطانيا وفرنسا، وأصبح الغرب ضعيفاً من الوجهة الاقتصادية والعسكرية. وأمسكت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بدفة العالم !!

وفي ٢١ فبراير سنة ١٩٤٧ قدمت السفارة البريطانية في واشنطون مذكرتين إلى وزارة الخارجية الأمريكية تعلن فيهما نهاية الوصاية البريطانية في الشرق

---

(١) راجع كتابنا: «الماسونية .. عقدة المولد وعار النهاية» فصل «المعادلة الصعبة: لمن تسلم مفاتيح القلعة».

الأوسط في نفس اليوم الذي كان فيه وزير الخارجية الأمريكي «جورج مارشال» يلقي أمام حشد من الشباب الأمريكي في «برنستون» خطبة يوضح فيها الدور الذي أصبح على الولايات المتحدة أن تلعبه في العالم، بعد أن تغلغلت في كل أركانه جغرافياً ومالياً وعسكرياً وعلمياً. ودعا الأمريكيين حيال وضع كهذا لأن يرتفعوا إلى مسؤولياتهم لضمان أمن وسلام العالم !!

وبدأت الولايات المتحدة تواجه حرباً أطلق عليها «الأدميرال ساورز» مدير المخابرات المركزية وقتئذ اسم: الحرب التي لا كالحروب!![1] .

ووصلت رأس الأفعى إلى صهيون!!

وكان لابد من تأمين اللولب .. وعجزت أمريكا وريثة الاستعمار الغربي التقليدي أن تقنع الأنظمة التقليدية لكي تقبل الغرس الزنيم، وتسلم بالكيان الغريب !!

فراحت تقوم بإجراء المناقصات لبناء زعماء جدد، يمتصون غضبة الجماهير ونقمتها العسكرية ، وصرخاتهم التهريجية ، ونباحهم الإذاعي الاستهلاكي والمحسوب المدى .. يصرفون حمية الشعوب المحيطة بالكيان الصهيوني، ويحولونها إلى مسارب معينة في معارك مصطنعة، وقضايا كاذبة، وحروب قومية!! ثورية!! تقدمية!! اشتراكية!!... إلى آخر هذه المعزوفة، على طريقة الصرف والري، حتى ينمو الكيان اليهودي ويزدهر، آمناً مطمئناً .. وحركة الجماهير محبوسة محسوبة في أيدي الإخوة الصغار!!.. ثوارنا!! .. مُؤَمِّني اللولب!!

وجاءت النخبة العسكرية في معظم بلاد الشرق الإسلامي على دبابات النصف الآخر من الليل في حراسة «العم سام»!![2].

* * *

---

(١) مايلز كوبلاند - لعبة الأمم - تعريب مروان خير - ص٥٧-٦١.
(٢) راجع كتابنا «الماسونية .. عقدة المولد وعار النهاية» فصل: «الماسون على دبابات النصف الآخر من الليل في حراسة العام سام» ..

من مصادر البحث

• مراجع عربية أو معربة :

١- موجز تاريخ العالم : هـ.ج. ويلز - ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد.

٢- الإمبراطورية البيزنطية : نورمان بنز - ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد.

٣- البداية والنهاية : إبن كثير.

٤- زاد المعاد : ابن قيم الجوزية.

٥- الإمبراطورية البيزنطية : أومان - تعريب د. مصطفى طه بدر

٦- لمحات من تاريخ العالم : جواهر لال نهرو - ترجمة عبد العزيز عتيق.

٧- الدولة الإسلامية : د. محمد سعيد الشعفي وزملاؤه.

٨- بيزنطة والإسلام : فازلييف : فازلييف - ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد.

٩- وجهة العالم الإسلامي : مالك بن نبي - ترجمة د. عبد الصبور شاهين.

١٠- العرب في أسبانيا : علي الجارم.

١١- تركيا والسياسة العربية : أمين شاكر وسعيد العريان ومحمد عطا.

١٢- محاضرات في نشوء الفكرة القومية : ساطع الحصري.

١٣- الإسلام والعروبة : د. محمود كامل.

١٤- التوجه السياسي للفكرة العربية الحديثة : محمد رفعت.

١٥- العالم العربي اليوم : مورو بيرجر - ترجمة محيي الدين محمد .

١٦- المنطق الثوري للحركة العربية الحديثة : عبد الله الريماوي.

١٧- الثورة العربية : د. جلال يحيى.

١٨- الجزائر الثائرة : كوليت وفرانسيس جانسرن - ترجمة محمد علي الشريف وزميليه .

١٩- حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية : لينين.

٢٠- مذكرات السلطان عبد الحميد : السلطان عبد الحميد - ترجمة وتقديم محمد حرب عبد الحميد.

٢١- الذئب الأغبر .. مصطفى كمال : هـ..س. أرمسترونج.
٢٢- برتوكولات حكماء صهيون : ترجمة محمد خليفة التونسي.
٢٣- كيف يفكر علماء الصهيونية : أمين هويدي.
٢٤- لعبة الأمم : مايلز كوبلاند - تعريب مروان خير.
٢٥- تركيا الحديثة : محمد عزت دروزة.
٢٦- القومية العربية : حازم زكي نسيبة.
٢٧- أسرار الماسونية : الجنرال جواد رفعت آتلخان.
٢٨- الميثاق : جمال عبد الناصر.
٢٩- القومية العربية : أحمد فؤاد الأهواني.
٣٠- ملوك العرب : أمين الريحاني.
٣١- الحركة التورانية الجديدة : المقتطف - الجزء الخامس من المجلد التاسع والأربعين - نوفمبر ١٩١٦.
٣٢- كتاب عباس حلمي الثاني : اللورد كرومر - المقتطف - المجلد السابع والأربعون - أغسطس ١٩١٥.
٣٣- مذكرات اللورد كرومر : اللورد كرومر - المقتطف - الملجد السادس والأربعون - فبراير ١٩١٥.
٣٤- خطاب البروفيسور نجم الدين أربكان في المؤتمر الإسلامي السابع لوزراء خارجية الدول الإسلامية ١٣٩٦هـ.
٣٥- تاريخ الترك والمغول في آسيا من مبدأ نشأتهم إلى سنة ١٨٠٥ - ليون كاهون - المقتطف.
٣٦- عيونهم على العريش منذ ٧٥ سنة - عبد الحميد الكاتب - أخبار اليوم ١٤ يناير ١٩٧٧.
٣٧- الرسالة الخالدة : عبد الرحمن عزام - القاهرة ١٩٤٦.
٣٨- الوثيقة .. الإسلام الخطر - محمود ثابت الشاذلي - القاهرة ١٩٨٥.
٣٩- الماسونية : عقدة المولد وعار النهاية - محمود ثابت الشاذلي - القاهرة ١٩٨٦.

• مراجع إنجليزية :

1- Stephen Neill; A History of Christian Missions; Penguin Books - London - 1971.

2- Alfred M. Lilienthal ; What Price Israel.

3- Lord Kinros ; Ataturk the Rebirth of a Nation; London 1965.

4- Cecil Roth ; The Standard Jewish Encyclopaedia; London 1966.

5-Bernard Lewis ; Emergence of Modern Turkey; Oxford - 1965.

6- George M. Haddad ; Revolutions and Military Rule in the Middle East; New York ; 1965.

7- George Antonius ; The Arab Awakening; New York; 1970.

8- Misbahul Islam Faruqi ; Freemasonry; Karachi; 1968.

9- Misbahul Islam Faruqi ; Jewish Conspiracy and the Muslim world.

10- The World Missionary Conference ; Volume 10; Edinburgh ; 1910.

11- Arthur Edward Waite ; A New Encyclopaedia of Free masonry.

* * *

محتويات الكتاب

الباب الأول : لبيك أبا أيوب
(٥ - ٦٦)

الصفحة

الباب الثاني : مزاعم وأباطيل
(٦٧ - ١١٦)

الباب الثالث : الدوائر الثلاث
(١١٧ - ٢٨٧)

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب : ٣٠٢١ / ١٩٨٩
الترقيم الدولي : ٦ / ١٧٦ / ٣٠٧ / ٩٧٧

هذا الكتاب

● منذ ـ غزوة مؤتة ـ وجذور « **المسألة الشرقية** » تنغرس فى أعماق ـ **أعداء الإسلام** ـ

● واستمر ـ المد الإسلامى ـ يحمل مشاعل النور والهداية ـ للإنسانية جمعاء ـ فى ظل العقيدة الإسلامية ـ التى محورها ـ **أن العبادة لله وحده** ـ وأنه لا فضل لعربى على عجمى .. ولا لأبيض على أسود ـ **إلا بالتقوى** ـ وأن الناس جميعاً سواء ..فى الحقوق والواجبات ..

● وسعدت البشرية بالحرية والعدل والأمان ..فى ظل ـ **عقيدة التوحيد** ـ التى أسقطت كل فروق اللون والجنس والعصبية القبلية والإقليمية .. وكل مؤثرات الزمان والمكان .. تجمعهم « **دولة الخلافة الإسلامية** » ـ الواحدة ـ فى مشارق الأرض ومغاربها .. لعدة قرون من الزمان ..

● ولكن هل قبع ـ **أعداء الإسلام** ـ واستكانوا .. بعد هزائمهم النكراء فى ميادين الحرب والمواجهة .. ؟ أم لجأوا إلى أسلحة الخسة والدسائس والمؤامرات ..؟ .. وما هى الأسلحة التى استخدموها .. ؟

● هل تحالفت ـ **القوى المعادية للإسلام** ـ سواء أكانت صليبية ..أو يهودية ..أو ماسونية صهيونية .. وغيرهم ..ـ **بالرغم مما بينهم من خلاف** ـ للانقضاض على ـ **الخلافة العثمانية** ـ. وكيف نشأت ـ مقولة ـ الاستعمار التركى .. وإثارة ـ **النعرات الشعوبية** ـ عربى .. تركى .. بربرى .. مغربى .. كردى .. إلخ

● وهذا الكتاب « **المسألة الشرقية .. دراسة وثائقية عن .. الخلافة العثمانية** » يجيب عن كل ما أحاط بهذا الموضوع .. ولماذا « **فى مؤتة كان البدء** » ثم ينبه إلى « **درس الشرخ** » ، وفى وسط الهموم تأتى « **البشارة** » .. وتبقى « **الصبغة إسلامية** » ثم يتولى بالتفنيد« **مزاعم وأباطيل** » ..حول « **الاستعمار التركى** »... و« **قضية الوجود العربى** »... ولماذا قيل « **الأتراك متعصبون** » .. وإطلاق شائعات « الفساد العثمانى » .. ثم يوضح ماهى « **الدوائر الثلاث .. والثالوث** » .. وكيف كان « **الالتفاف حول الأسد** » ثم « **العقبة إلى صهيون** » .. وتأتى مأساة « **الهنى توران وانقلاب الدونمة والماسون** » ويكشف حقيقة « **أتاتورك .. خيوط تحرك الدمية . وخطوط تحدد الدور** » .. ويفضح أصيل « **النهضة الخبيثة .. والتمرد المؤامرة** » .. الخ .. فى فصول يأخذ لاحقها بسابقها ، ويمهد سابقها للاحقها .. بأسلوب أخاذ متميز .. مدعّم بالوثائق والأسانيد والمراجع العلمية .. العربية والأجنبية ..

● ومؤلف الكتاب : ليس غريباً على معالجة هذا الموضوع . فإنه جمع بين الثقافة العربية والثقافة الأجنبية .. وقدم لنا من قبل كتابه القيم « **الماسونية ..عقدة المولد ..وعار النهاية** » .. وهو ينضح بالعلم الغزير والاطلاع الواسع ..

● ويسر « **مكتبة وهبة** » : أن تقوم بنشر هذا الكتاب ليعرف العالم العربى والإسلامى حقيقة « **المسألة الشرقية ..دراسة وثائقية عن .. الخلافة العثمانية** ».. وبالله التوفيق .

